نشأة الإنسان

بين القرآن والتوراة ونظرية دارون

بقلم

عمرو الشاعر

كلمة الغلاف الخلفي

كثرت الكتابات في الآونة الأخيرة حول مسألة خلق الإنسان الأول في القرآن، إلا أن الناظر في هذه الكتابات يجدها كلها تدور في فلكين اثنين: تصديق التصور الدارويني، وجعل القرآن سابقاً في القول بالتطور! أو التمسك بالتصور التوراتي، والقائل بخلق الإنسان الأول كتمثال من طين، صُيّر بشرا! والعمل على إظهار نقاط الخلل في التصور الدارويني.

وكلا الفريقين يدعي أن القرآن يُصدق ما يقول به! فلما نظرنا في القرآن الكريم لنرجح أحد التصورين، ظهر لنا أن القرآن ينفي كليهما ويقدم تصورا مخالفا تماما، نقدمه للقارئ في هذا الكتاب، تصورا علميا سليما، لا محل للخرافة فيه، ولا للإشكاليات المنطقية، التي تواجه النظرية التطورية، والتي سنظهر عوارها المنطقي كذلك، تصور يتكرر أمام أعيننا كل يوم، مع اختلاف بسيط! وعلى الرغم من ذلك لم ننتبه أن الخلق الأول حصل بهذا الشكل!

ولأن مسألة خلق الإنسان الأول ارتبطت في القرآن بسيدنا آدم، فإننا سنعرض لهذه القصة لنبيّن للقارئ الكريم، أن القراءة التقليدية لهذه القصة قراءة غير سليمة، صبغتها بصبغة جعلتها إلى الأسطورة أقرب منها إلى الحقيقة! مبيّنين أن الأحداث المذكورة فيها جد منطقية، وأنها كانت ضرورة حتمية لإعداد الإنسان الأول.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الخلاق العليم. سبحانه له الخلق والأمر وإليه ترجعون. سبحانه أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. وصلاة على الهادي البشير، السراج المنير، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى إخوته النبيين الميامين، ومغفرة ورضوان على من اقتدى بهديهم إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

قليلة هي الأسئلة الخالدة، التي وجب –ويجب– على كل إنسان عاش على سطح هذا الكوكب أن يتفكر فيها ويبحث لها عن إجابات شافية للصدور، مرضية للعقول، مثل: لماذا أحيى؟ كيف وُجدت أو وُجد الإنسان أصلا؟ لماذا كل هذا الكون؟ هل له خالق؟ وماذا يريد منا؟ هل وُجدتُ لغرض أم عبثا ظهرت؟ ما هي الطريقة المثلى للحياة على هذه الأرض؟

والإجابة على هذه الأسئلة عنصر حاسم في توجيه مسير الفرد والشعوب، فإما إلى إصلاح وسلام، وإما إلى إفساد وخصام! وقليل هم من تفكروا فيها، وأقل بكثير هم من قدموا لها إجابات. وتراوحت هذه الإجابات بين خرافي وهمي وبين أسطوري تاريخي، وبين وحي إلهي وبين تصور علمي!

وعلى الرغم من التفاوت الهائل بين المناظير المعروضة على الساحة، إلا أننا يمكننا حصر التصورات المنتشرة في تصورين اثنين سائدين، وهما التصور الديني –بمختلف أشكاله وألوانه– وبين التصور العلمي، والذي يعتمد كذلك في هذه المسائل على الرجم بالغيب!

ونحن لا نسعى أن نقدم في هذا الكتاب إجابة لكل الأسئلة الخالدة، التي راودت الإنسان –ولا تزال– وستظل تراوده ما بقي على وجه الأرض، وإنما نسعى لتقديم إجابة لسؤال واحد من هذه الأسئلة، وهو المتعلق بكيفية خلق الإنسان. فنقدم للقارئ

الكريم تصورا جديدا مخالفا لكل التصورات السائدة، والمنتشرة بين المتعلمين والمتدينين على حد سواء.

وهذا التصور الجديد الذي نقول به ليس من باب التخمينات، التي قدمها كثيرٌ من العلماء الطبيعيين، وإنما هو مستخرجٌ –من ألفه إلى يائه– من كتاب الله عزوجل، مسترشدين بالمستوى العلمي المتقدم، الذي وصلت إليه البشرية، والذي ساعدنا كثيرا على إيجاد تصورات متطابقة مع منطوق آي الذكر الحكيم.

ولأن أشهر التصورات المتعلقة بخلق الإنسان تنحصر في تصورين اثنين، هما التصور التوراتي، القائل بالخلق التمثالي المباشر، والتصور الدارويني، والقائل بالتطور، فلقد ارتأينا أن نخص هذين التصورين بالذكر لنوضح خطأهما، مبيّنين أن القرآن الكريم قد خالفهما وقدم تصورا ثالثا، جمع حسنييهما ورفض وهدم عوارهما.

وقليلٌ من المسلمين من يرى أن نظرية التطور الداروينية لا تناقض القرآن الكريم، بل تتوافق تماما مع آياته، فلقد قال القرآن الكريم بالتطور، إلا أن الأقدمين لم يستوعبوا هذا!!

وعامة المسلمين يرفضون نظرية التطور الداروينية، لأنها تصادم القرآن الكريم صراحة، ويتقبلون التصور التوراتي، القائل بالخلق المباشر لآدم كتمثال من طين، نُفخ فيه الروح، وبنفخة الروح هذه أصبح التمثال إنسانا حياً يُدعى آدم، ومن آدم خُلقت حواء، ومنهما جاءت البشرية كلها، من نكاح الأخوة لأخواتهم الإناث! وظلت البشرية في تناسل إلى أن وصلوا إلى ما هم عليه الآن.

وسر تقبل المسلمين للتصور التوراتي هو ظنهم أن القرآن صدّق ما في التوراة في مسألة خلق الإنسان! فلا يعني كونها في التوراة أن نرفضها! وعلى الرغم من أن التصور التوراتي القائل بتحول تمثال طين إلى إنسان بنفخة الروح تصور غير علمي! إلا أن

المسلمين يتقبلون هذا لظنهم أن هذا ما ورد في القرآن، ولأن هذا أفضل من التصور الدارويني .. القردي! ولأنهم لم يروا تصورا علميا أفضل!

وعلى الرغم من أن العرض القرآني يخالف التصور التوراتي في مفاصل كبيرة .. كثيرة، إلا أن التصور التوراتي أُسقط على العرض القرآني لسببين رئيسين: أولهما: أن المستوى العلمي الفكري للمفسرين، الذين تناولوا القرآن في ذلك الزمان، لم يكن يسمح بأي حال بتصور أرقى من الذي قدمه التصور التوراتي. ثانيهما: –وهو السبب الأهم– أن المنهج الذي التزمه المفسرون في التعامل مع كتاب الله تعالى منهجٌ غير دقيق، فلقد تعاملوا مع النص القرآني في أغلب الأحيان مثل أي نص بشري، فقالوا بالمجاز وبالتقديم والتأخير والحذف والإضافة، مما أدى في نهاية المطاف إلى تفسيرهم! نصاً موازٍ للنص القرآني، وليس النص القرآني نفسه!

ولقد بيّنا في كتابنا: "لماذا فسروا القرآن[1]" أن القرآن الكريم كتابٌ واضح بيّن لا يحتاج إلى تفسير، وإنما يحتاج إلى تأويل، –ليس بالمعنى المألوف للتأويل، وإنما بمعنى مطابقة النص مع الواقع، والتوقف فيما لم يصل علم المتعامل معه، وإمراره لمن يأتي بعده–، وهذه هي المشكلة الكبرى التي وقع فيها المفسرون، أنهم لم ينتبهوا إلى آية القرآن الكبرى، وهي علّوه على علوم البشر، وإلى المحور الرئيس في التعامل معه، وهو التأويل المرحلي لآياته: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [سورة يونس ,٣٩] فلا يمكن لبشري أن يقدم تأويلاً كاملا للقرآن مهما علا كعب علوم عصره، ومهما كانت ألمعية عقله، ولكن هذا ما فعله المفسرون –غفر الله لهم ورحمهم– فقدموا تفاسير كاملة لكتاب الله تعالى.

[1] الكتاب غير منشور، وهو موجود على صفحات موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

وبطبيعة الحال توقفوا مع بعض المواطن التي رأوا فيها مخالفة للعلوم السائدة في عصورهم، وبدلا من أن يُفوضوا فيها العلم لله، قاموا بتأويل[2] الآيات لتتوافق مع علوم عصورهم! كما قابلتهم بعض الآيات، التي لم يستطيعوا أن يقدموا لها تصورا متطابقا مع منطوق الآيات –بسبب محدودية المستوى العلمي لعصورهم– فقدموا بعض التصورات القريبة أو البعيدة منها، كأقرب احتمالية ممكنة لفهم الآيات! ومرت السنون والقرون ودخل المسلمون مرحلة السبات الفكري العلمي، وأصبح ما قاله الأقدمون مقدسا بدرجة تقارب درجة تقديس النصوص القرآنية والأحاديث النبوية!

وبعد أن استفاق المسلمون من غفلتهم، بدأت حركةٌ تُعنى بالتنقيب والبحث في التراث الذي تركه الأقدمون لتتبين، هل هذا التراث صحيح لا يزال صالحا، أم صحيح لم يعد صالحا؟! أم غير صحيح أصلا؟ ووجد أتباع هذه الحركة في التراث القديم الصالح والطالح، ومن الصالح ما كان صالحا ولم يعد كذلك، ومن ثم فعلينا أن نجد لأنفسنا صالحا مكانه!

وكالعادة كان التراثيون لهم بالمرصاد، فما انتُقد موطن إلا و كيلت التهم للناقد، فهو من المستغربين أو من الضالين المضلين، الذي يسعون للقضاء على تراث الأمة وصبغها بصبغة غربية! ولم يفرق التراثيون –في غالب الأحيان– بين من يستند إلى تصور مستخرج من أصل قرآني إسلامي، وبين المستنِد إلى منطلق علماني غربي، فطالما نقدوا التراث فهم حتما من الهدامين المضيعين!

وسيرى القارئ الكريم في صفحات هذا الكتاب نموذجاً جليا لما نقول به، فسيرى بجلاء كيف أن المفسرين قد لووا أعناق كثير من النصوص المتعلقة بخلق الإنسان، لكي تتوافق مع التصور التوراتي، وأننا نحن من تعاملنا معها طبقا لمداليلها الأصلية بدون اللجوء إلى تحايلات عجيبة!

---

[2] عندما نتكلم عن "التأويل" مع المفسرين أو مع غيرنا، فإنا نقصد المعنى المشهور له وهو: صرف النص عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، أو التعامل مع النص ليس كما هو مذكور، وإنما بإضافة أو حذف أو قول بتقديم وتأخير أو فهم الكلمة بمدلول آخر!

وسيجد –على الرغم من أننا قمنا بفهم النصوص كما هي، بدون قول بتقديم أو تأخير، وبدون أن نجعل المفرد جمعا ولا الجمع مفردا، وبدون أن نعطل معاني بعض الحروف أو أن نوجد لها معان عجيبة– سيجد أبواقا كثيرة تهاجمنا وتضللنا، بدون أن تقرأ ما كتبنا، مكتفية بمعرفة أننا قلنا أنه كان مع آدم وقبله بشر آخرون، وأننا قلنا أن الخلق لم يكن بذلك التصور التوراتي التمثالي وإنما كان بشكل آخر! وستدعي أننا نحن من نلوي أعناق النصوص من أجل أجندات وأهداف مشبوهة! ونحن ندعو القارئ الكريم أن يقارن ما قلناه بما قاله الأقدمون، ليخبر بنفسه من يلوي النصوص، ومن يتحرك داخل إطار المدلولات المباشرة للألفاظ.

ونود أن نبين للقارئ الكريم أن تناولنا لمسألة خلق الإنسان في هذا الكتاب ليس هو التناول الأول لها، فلقد تناولناها[3] بشكل مختصر في كتابنا الأول: "لماذا فسروا القرآن"، وعرضناها إجمالا كتدليل على صحة المنهج المقدم، وأن التناول الحر للقرآن يؤدي إلى استخراج تصورات علمية سابقة لاكتشافات الغرب، حتى لا يجادل المجادلون في الصبغة العلمية للقرآن، وأنها ليست من تمحكات علماء المسلمين، الذين يظلون قابعين حتى يكتشف الغرب فيقلبوا القرآن، علّهم يجدون فيه ما قد يشير إلى ما سبق به الغربيون!!

وها نحن نعرض مجددا لمسألة خلق الإنسان بتفصيل أكبر، مفردين لها كتابا كاملا، نرد به على التصورين السائدين: التوراتي والدارويني، ونعرض فيه بعض محاولات السابقين من يونانٍ ومسلمين، في الإجابة على هذا السؤال.

وليست الكتابة في هذا الموضوع بالأمر الجديد، فلقد قامت الدنيا ولم تقعد، عندما كتب الدكتور عبد الصبور شاهين كتاب: أبي آدم، قصة الخليقة بين الأسطورة

---

[3] توصلت بفضل الله وعونه إلى هذا التصور في السنة قبل الأخيرة في الدراسة الجامعية، في قسم الدراسات الإسلامية باللغة الألمانية في كلية اللغات والترجمة في جامعة الأزهر. وصارحت به قلة من الزملاء المقربين، الذين كنت أتوسم فيهم نضوجاً فكريا وعلميا. ولم أوثق الفكرة العامة للتصور إلا في بحث مكتوب بلغة ألمانية رديئة –تكاد تكون هندية!!– كنت أنوي تقديمه لبعض الألمان كتدليل على "الإعجاز" العلمي للقرآن، ولكن لم تسنح الظروف، ثم تراجعت بعد ذلك عندما اكتشفت المستوى الراقي!!! للغة البحث!

والحقيقة. وسبقه ولحقه آخرون، في الكتابة حول الموضوع، مستندين فيما يكتبون إلى كتاب الله.

وسنقوم بالرد، على صفحات هذا الكتاب، على أشهر ما كُتب من كُتّاب مسلمين معاصرين، حول هذا الموضوع، مبينين الخطأ الرئيس الذي وقع فيه الأقدمون، ولا يزال يقع فيه عامة الكتاب المتعاملين مع كتاب الله عزوجل، وهو محاولة إكمال التصور بما ليس في النص! مما يؤدي إلى ظهور تصورات عديدة متناقضة، يدعي كل واحد منها أنه يستند إلى كتاب الله عزوجل.

لذا سنحاول قدر الإمكان ألا نقع في الخطأ الذي نعيبه على غيرنا، وأن نلتزم بما تقوله الآيات وبما تصرح به الكلمات! كما يؤخذ على جل من كتبوا في هذا الموضوع، أنهم انطلقوا من مسلّمات مسبّقة، فهذا يؤمن بالتصور التوراتي فيدافع عنه، وذلك مقتنع بالتطور فيجعل آيات الكتاب العزيز مؤيدة له. أما نحن فقد انطلقنا في تناولنا للموضوع بحيادية لنرجح أحد الرأيين بدون تعصب لأحدهما، فتوصلنا إلى تصور جديد!

كما نودُ أن نعرف القارئ الكريم، أن تصورنا الرئيس في خلق الإنسان الأول تقول به جمعية التجديد البحرينية، وأصدرت بشأنه بعض الكتب! والله أعلم أيّنا توصل إلى الفكرة أولا، ولكن الله يشهد أني لم أنقلها منهم، وإنما هي من نتاج تدبري في كتاب الله عزوجل، كما أني أخالفهم في بعض النقاط المرتبطة بها والمتعلقة بقصة الإنسان الأول في القرآن! ولكني أقر لهم بالفضل في أنهم نبهوني إلى بعض المواطن التي لم التفت إليها في قصة آدم –وليس في الخلق–، وسأشير بإذن الله في أثناء تناولي إلى المواطن التي عرّفتني بها كتب جمعية التجديد في هذا الشأن، من باب الأمانة العلمية.

وسيجد القارئ الكريم اختلافات قليلة بين ما سنقدمه على صفحات هذا الكتاب وبين ما قدمناه على صفحات كتابنا: لماذا فسروا القرآن. وذلك راجع إلى إعادة نظرنا في

الآيات، والانتباه إلى بعض المواطن التي غفلنا عنها أو فهمناها بشكل غير صحيح، مما أدى بنا أن نرجع هنا عن بعض ما قلناه هناك.

ولأن آيات الخلق في القرآن ترتبط بشكل كبير بقصة آدم عليه السلام، رأينا أن نتناول الآيات المتعلقة به، لأن فيها الكثير من الأدلة على التصور الذي قدمناه في الخلق، وبدونه سيتمكن الرافضون لتصورنا من إيراد تشغيبات وشبهات على على التصور، بدون الرد عليه مباشرة، أما مع تقديم قراءة حديثة لقصة آدم عليه السلام، نفوت عليهم هذه الفرصة.

كما أن كثيراً من المتناولين للقصة قد عرضوها بشكل مبسط، قد يصل في أحيان كثيرة إلى مستوى قصص الأطفال! والذي قد ترفضه كثير من العقول العلمية، -والذي ننزه القرآن الكريم عنه-، ولأن القصة من الأهمية بمكان، فهي تعرض تاريخ الجيل الأول من البشرية، والذي يعرفنا ويلخص لنا رحلة البشرية كلها، والهدف من وجودها.

كما أن كثيراً قد يرون القصة غير علمية ولا تاريخية، فهي إما خرافية أو رمزية، لظهور الملائكة والشيطان فيها، لذا فسنعرض هذه القصة عرضا سليما، سيجده القارئ منطقيا، لا يرى العقل فيه حرجا. ولا يعني هذا أننا سنلوي القصة لنخرجها بهذا الشكل، وإنما سنصحح المنظور الذي يقرأ القارئ به القصة، وبهذا سيكتشف بنفسه منطقيتها!

وفي ختام التقديم أقول: ستجد عزيزي القارئ في هذا الكتاب ما يخالف المألوف، فلا تحملك الألفة على رده، وحاول أن توازن بحيادية ما نقول، ولا يحملك رفض بعض ما فيه على أن ترفضه كله، فلربما أخطأنا في بعض وأصبنا في آخر! وأذكرك بما قاله أستاذنا أمين الخولي: "أول التجديد قتل القديم بحثا" فليس من رأى كمن سمع، وليس من بحث كمن مر مرور الكرام، أبداً لا يستويان! وها نحن قد قتلنا القديم -في مسألةٍ بعينها- بحثا، وقدمنا لك رأيا جديدا، فهل تقبل أم تكون من الرافضين؟!

كان البدء في تأليف هذا الكتاب في يوم السبت، الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى في عام ثلاثين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة، الموافق السادس عشر من شهر مايو في عام تسع بعد الألفين بعد ميلاد المسيح.

الفقير إلى عفو ربه: عمرو الشاعر

لماذا الكتابة حول هذا الموضوع؟

لماذا الكتابة حول هذا الموضوع؟ هل انتهت كل مشاكل الأمة، حتى نكتب حول هذه المواضيع، التي قد تدخل تحت "الترف الفكري"؟ والواقع أن الكتابة حول هذا الموضوع ليست من باب الترف الفكري، وإنما هي إجابة سؤال، تبحث البشرية له عن إجابة، مقدمة تصوراً مقبولا عقلا ومنطقا، كما أنه ملزم لوجود الخالق، فلا يمكن أن يكون الخلق الذي أُجري بهذه الطريقة قد حدث صدفة، وإنما تحتم الطريقة –التي سيخبرها القارئ بعد صفحات– أن تكون النشأة الأولى للإنسان خلقا مباشراً من خلاق عليم.

وإجابة هذا السؤال من المنظور القرآني مُعرّفة للإنسان دوره في هذه الحياة، ومحذرة إياه من تكرار الخطأ الأول الذي اقترفه الجيل الأول من الإنسان. ونحن –تحديدا– إذ نكتب في هذا الموضوع فإننا نرمي إلى استكمال المنظور الإنساني الذي بدأناه وقدمناه في كتابنا السابق: السوبرمان بين نيتشه والقرآن، والذي استخرجنا فيه من القرآن إجابات ناجعة للسؤال الخالد: كيف نحيا؟

وهنا نقدم للإنسان الإجابة على السؤال السابق؛ وهو: كيف خُلقت، أو كيف نشأ الإنسان الأول؟ لنبين لغير المسلم أن التصور القرآني حول الإنسان سابق لغيره، فريد في عرضه، وهي خطوة حتمية قبل أن نبدأ كتابنا: تهافت الملاحدة! كما نقدم بهذا الكتاب نموذجاً كبيرا لما أصلناه في كتابنا: لماذا فسروا القرآن، نُبين فيه كيف أن المنهج غير المحكم في التعامل مع كتاب الله عزوجل، مؤدٍ لا محالة إلى إضاعة بينات كثيرة من بينات القرآن، وكيف أن المنهج الدقيق يبرز وجوه سبق عديدة للقرآن!

كما نهدف إلى القضاء على وهم التعارض بين العلم والقرآن بشأن قضية كبرى، وهي قضية خلق الإنسان، لنؤكد أن القرآن موافقٌ للعلم، سابقٌ للتصورات، هادم للنظريات الباطلة. وبذلك نقضي على معضلة اختلاف مصادر التلقي عند المسلم، والذي يجد في العلوم والتاريخ تصوراً مخالفا للتصور القرآني –تبعا للفهم التوراتي، وليس القرآن

نفسه-، فنوضح أن العرض القرآني حول الإنسان الأول عرض علمي سليم، لا يتعارض مع الحقائق التاريخية ولا العلمية!

كما نرمي إلى كشف زيف وتهافت نظرية التطور الداروينية، والتي تُستغل كدُعامة كبرى للإلحاد، وكأديولوجية فكرية للغرب في التعامل مع غيره من البشر، مذكرينهم أنهم أناس من خلق الله تعالى!

كما نرمي إلى كشف البون الشاسع بين القرآن والتوراة، وإبطال المقولة المنتشرة بأن القرآن نقلُ عشواء من التوراة، بأن نوضح من خلال نموذج كبير التشابه الظاهري، الذي ينتج من القراءة السريعة، والاختلاف الكبير الذي ينشأ عند تدبر الآيات موضع النقاش! مما يجعل القول بالنقل عن التوراة مستحيلاً عقلا!

ونحن إذ نكتب عن النشأة الأولى، فإنا نعد هذا الكتاب جزءً أولا -قائما بذاته- ندعو الله تعالى أن يعيننا على كتابة جزءه الآخر: النشأة الأخرى، والذي سنتناول فيه بإذن الله وعونه أحداث أيام اليوم الآخر، مقدمين تصورا مرتبطا مرتبا للمشاهد المعروضة في القرآن حول ذلك اليوم العظيم!

وفي النهاية نقول: إن الكتاب تدبر واجب في آيات كتاب الله عزوجل، وبما أنها ذُكرت مرات عديدة في القرآن فهي أمر عظيم وليست ترفا فكريا بحال، كما أنه دعوة للتفكر وإعمال الذهن فيما ينفع، بعيدا عن الهموم الاقتصادية والشهوات الجسدية، التي أصبحت عناصر تفكير عامة البشر.

سؤال حتمي

قبل أن نبدأ في تناول القضية الرئيس لهذا الكتاب، لزامٌ أن نلقي سؤالاً على القارئ الكريم، وهو: هل تعتقد أن ما ورد في القرآن كان تبعا للسقف المعرفي لما في عصر محمد(ص) ولا يتعداه، أم لا؟ فإذا كان القارئ مسلماً، فستكون إجابته –غالبا– ب: لا. فهو يؤمن بأن ما ورد في القرآن موافقٌ وسابقٌ للسقف المعرفي في عصر محمد، ونافعٌ لكل العصور التالية.

وإذا كان القارئ غير مسلم فستكون إجابته ب: نعم، ما ورد في القرآن لا يتعدى السقف المعرفي لعصر محمد، لأنه من تأليفه –وهناك من المسلمين من يتبنى هذا المنظور، ويبعد القرآن كلية عن القضايا العلمية–. فنقول للرافضين والموافقين: لنفترض أن القرآن من عند الله، وأنه يحتوي علوماً سابقة للعصر الذي أُنزل فيه، فكيف سيصف الله تعالى المعارف، التي لم يتوصل إليها المجتمع الإنساني كله في ذلك العصر؟ هل سيستعمل نفس المصطلحات العلمية، التي نستعملها نحن في زماننا هذا؟ فهل نتوقع مثلا أن يستعمل الله لفظ: الخلية والنواة والكروموسوم؟

قد يعنّ لقارئ أن يقول: ولم لا؟ أليس الله علام الغيوب؟ ألم يكن يعلم أننا سنسميها في يوم من الأيام –باللغة العربية– بهذه الاسماء، فلم لم يُسمها كذلك، حتى يكون السبق جليا أمام كل مجادل؟ نقول: التعريفات (الأسماء) القرآنية هي أسماء بالحق، بمعنى أنها أدق وأصح تسمية للمسمى (الشيء)! لأن من أطلقها هو الرب العليم، أما التسميات المعاصرة فهي في غالب الأحيان تسميات غير دقيقة، لأن من قام بها لا يمتلك الحس اللغوي السليم[4]، لذا لا نتوقع أن يستعمل الرب العلام الخبير نفس

[4] على سبيل المثال: أنا أجزم أن "الخلية" تسمية غير صحيحة لوحدة بناء الأنسجة الحية، ولكن هذا الاسم ظهر وانتشر في فترة الترجمات الأولى عن الغرب في العصر الحديث، وأظن أن من أطلق هذا الاسم شبهها بخلايا النحل المسدسة المتراصة المتصلة، والتي تُعد لوضع العسل! لأن "الخلايا" متلاصقة متراصة في داخل الجسم! والخلية سُميت خلية لأنها تُبنى خالية وتعد لوضع العسل! فالخلية مشتقة من الخلو، وليس هذا هو السمت الرئيس لما يُعرف بالخلية، حتى يُقبل أن تسمى بهذه التسمية، إذن فالتسمية غير دقيقة ولكنها المنتشرة ونحتاج إلى طويل وقت حتى نتقبل استعمال غيرها!

التسميات الخاطئة، وإنما علينا نحن أن نصحح الأسماء تبعا لما ورد في القرآن الكريم!

لذا، إذا وردت أسماء في القرآن لأشياء طبيعية، فعلينا أن ننظر إلى السمت الرئيس للاسم ونسقطه على مقابله في الواقع، بغض النظر عن الاسم الحديث له، وبهذا نكون قد فهمنا اللفظة القرآنية أفضل فهم، ولا نحصر أنفسنا في التصورات التي قالها الأقدمون! ونقول لمن يقول أن القرآن لا يحتوي علوما أعلى من السقف المعرفي لعصر محمد بن عبد الله: من الحيادية أن نفترض أن محمدا كان يعي ما يقول ويقصده، لأنه هو –تبعا لزعمكم– من كان يجهد نفسه في تأليف وتنقيح القرآن، ولا نقول أنه كان يخبط أي خبط! فإذا رأينا أن مدلولات الآيات القرآنية لا تتفق بحال مع التصورات السائدة في ذلك العصر، وإنما تتوافق مع تصوراتنا في عصرنا الحديث، أفلا يكون ذلك داعياً إلى التفكر والتساؤل:

كيف استطاع محمد أن يأتي بمثل هذه التصورات بهذا الإحكام، الذي لا يصدم ظاهره إنسان عصره، والذي يظهر لمتدبره ما يخالف تماما المألوف والمعهود في ذلك العصر؟ أعتقد أن الإجابة ستكون: بالصدفة، فإذا كان الملحد يرى أن الكون كله نشأ صدفة، فما المانع أن يأتي محمد بمثل هذه الآيات صدفة؟! ونحن في هذا الكتاب لا نخاطب من يقول ويؤمن بالصدف، وإنما نخاطب من يتفكر ويبحث عن أسباب لمسبباتها!

وبعد أن ناقشنا السؤال الرئيس المتعلق بالمدلولات، نبدأ باسم الله وعونه في عرض منظورنا.

الباب الأول

نقد نظرية التطور الداروينية

تمهيد

قبل أن نبدأ حديثنا عن العرض القرآني لخلق الإنسان، كان لزاما أن نعرض لتلك النظرية المتهافتة، التي لاقت رواجا كبيرا بين العلميين، وهي نظرية التطور، التي اشتهرت بالنسب إلى داروين! مع أنه ليس أول من قال بها! وعلى الرغم من أن بها ما يضحك الثكالى، وبها من المضحكات المبكيات، إلا أنها قُبلت كبديل لنظرية الخلق التوراتية! لأن نظرية التطور صُبغت بصبغة علمية! ودُعّمت ببعض الدعائم، والتي تفلح في تدعيم أي قول! كما أن النظرية تحمل كذلك بعض جوانب من الحقيقة!

لذا سنقدم للقارئ تعريفا سريعا بتاريخ فكرة التطور وتصوره! وبالإشكاليات العديدة التي تواجهها النظرية! والتي ادعى أنصارها حلّها ويجزم الآخرون ببقاءهم معلقة! كما سنقدم له نماذج للتزييف والبهرجة التي حيكت حول النظرية، وبالمفاصل الكبيرة للنظرية، ثم نفند أهم محاورها عقلا!

وقد يرى القارئ فيما نقول نوعا من المبالغة، فللنظرية أنصارٌ كثيرون، عنها مدافعون، وفي تأييدها وحولها كُتب الكثير من الكتب! فكيف سيُجهز عليها في جزء من كتاب؟ لذا نقول: نحن لا نرمي إلى مناقشة كل كبيرة وصغيرة في النظرية والرد عليها، وإلا سنحتاج إلى مجلدات، وسيتحول الأمر إلى جدل علمي، لا يستطيع القارئ العادي أن يجزم بصحة أحد رأييه!

وإنما نرمي إلى إزالة الهالة الزائفة، التي أحيطت بها النظرية، وتبيان وجوه العور العقلي التي تعتورها، والكافية لإسقاطها كلية، بالإضافة إلى إظهار نقص الأدلة الحاد، التي تعاني منه النظرية!

وإذا أتبعنا كل هذا بنظرية لا عوج عقلي ولا منطقي فيها انهارت النظرية تماما، بخلاف أولئك الذين يفتتون النظرية تفتيتا، مظهرين تهافتها، ثم يتقبلون!! مطمئني الصدر،

نظرية الخلق التوراتية، ويدعون الناس إلى قبولها! على الرغم مما فيها من عور مماثل أو زائد عما في نظرية التطور!

نظرة تاريخية على التطور

إذا أردنا الحديث عن تاريخ هذه النظرية، فخير بيان أن نكِل الأمر إلى أصحاب النظرية نفسها، لنر كيف يعرضونها، وبذلك نضمن حيادية العرض: يقول الأستاذ إسماعيل مظهر، مترجم الطبعة الأولى من كتاب أصل الأنواع في تقديمه للكتاب: "وأقدم ما وصل إلينا، مما عُثر عليه إلى الآن من تراث الأقدمين، هو ما قاله الفيلسوف الإغريقي "أنتكسمندر" (610 ق.م) "أن نشأة الكائنات الحية هو نتيجة تأثير الشمس على الأرض، وتمييز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة، وأن الأرض كانت في البداية طينية ورطبة أكثر مما هي عليه الآن، فلما وقع فعل الشمس، دارت العناصر الرطبة في جوفها، وخرجت منها على شكل فقاقيع، وتولدت الحيوانات الأولى، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة، وكانت مغطاة بقشرة كثيفة تمنعها من الحركة والتناسل وحفظ الذات، فكان لا بد من نشوء مخلوقات جديدة. أو بسبب ازدياد فعل الشمس في الأرض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها، أما الإنسان فإنه ظهر بعد الحيوانات كلها، ولم يخل من التقلبات التي طرأت عليها، فخلق أول الأمر شنيع الصورة ناقص التركيب، وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة[5]" اهـ

وبعد ذلك يواصل الأستاذ إسماعيل المظهر الحديث عن التطور، وكيف أنه ثمت إشارات إليه في كتابات علماء المسلمين السابقين، وسنفرد للحديث عن هذه الإشارات عنصرا مستقلا.

---

[5] تشارلز داروين، أصل الأنواع، تعريب: مجدي محمود المليجي، ص: 52.

فإذا تركنا علماء المسلمين وجدنا أن نظرية التطور ارتبطت بداروين ارتباطا وثيقا، حتى أنها تُسمى أحيانا: بالداروينية، على الرغم من أن تشارلز داروين ليس أول من تكلم عن التطور في العصر الحديث، وإنما سبقه آخرون مثل وليم هربرت، باتريك ماتيو، والسير جوزيف هوكر، وجده إيراسموس داروين وكونت بوفن.[6]

ويعلق الدكتور موريس بوكاي –وهو مسلم شهير مؤمن بنظرية التطور!– على سبق آخرين لداروين في العصر الحديث، فيقول: "وأول من طرح فكرة التطور وجمع خلال حياته براهين لدعم نظريته، هو "لامارك Lamarck" في عام 1801 في "خطابه الافتتاحي" مستبقا بثماني سنوات (كتابه –عمرو–) "الفلسفة الحيوانية" وكان "كوفييه Cuvier" العالم الطبيعي الشهير في القرن التاسع عشر، في كتابه "تاريخ العظام المتحجرة" 1812، قد قارن بين الحيوانات الحاضرة وبين تلك المستحجرة، وبرهن عن وجود أنواع زالت، غير أنه كان لا يعترف بالتطور[7]." اهـ

وتتلخص فكرة لامارك التطورية في "الاستعمال والإهمال"، فالصفات التي يكتسبها الكائن أثناء حياته تنتقل إلى ذريته بالوراثة، وضرب لذلك مثلا بعنق الزرافة، والتي كانت تمد عنقها –فيما مضى– لتصل إلى أوراق الشّجر العالية، ومن ثمّ ازداد طول العنق تدريجياً، وازداد بتوالي الأجيال حتى وصل إلى شكله الحالي!، وعلى الجانب الآخر ضمرت أجنحة بعض الطيور نتيجة عدم استعمالها في الطيران!

ثم جاء دارون، والذي ارتحل لمدة خمس سنوات على متن السفينة "بيجل" في رحلة حول العالم، وبسبب مشاهداته الكثيرة المتنوعة وشغفه بمراقبة الكائنات الحية، وملاحظته وجوه شبه بين الكائنات المختلفة، افترض افتراضية عجيبة، وهي أن كل الأنواع وكل الكائنات الحية انحدرت من كائن واحد، تطور عبر العصور إلى أن ظهرت

---

(6) كان ملخص نظريتي الآخيرين أن وجود نباتات أو حيوانات تحت تأثير وسط معين يكسبها صفات جديدة، وهذه الصفة تنتقل إلى نسليهما فتحدث انقلابات هي عوامل التطور.

(7) موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ص. 28.

كل الكائنات الحية بشكلها الحالي من طيور وحيوانات وحشرات وبشر، وسجل ذلك في كتابه الشهير: أصل الأنواع، والذي ظهر في عام 1859!

ويرجع اختلاف نظرية دارون عن لامارك إلى قوله بمبدأ "الانتقاء الطبيعي"، والذي يقول بأن الحياة قائمة على الصراع بين الكائنات من أجل البقاء، وأن الانتقاء الطبيعي يحتم بقاء الأقوى، الذي استطاع التكيف مع البيئة!

ومن المعلوم أن النظرية ظهرت في مرحلة لا تزال تحمل الكثير من التصورات العلمية! الخاطئة[8]. ومع نهايات القرن التاسع عشر نشر العالم النمساوي جريجور مندل اكتشافاته حول علم الوراثة، مما وجه ضربة قاضية لنظرية التطور الداروينية!

وعلى الرغم من أن العلم الحديث أكّد أن الصفات المكتسبة لا تُورث، وأكّد ثبات الصفات الوراثية بين الأجيال، إلا أن أنصار الداروينية وجدوا لها مخرجا عن طريق القول بفرضية الطفرات الوراثية العشوائية، والتي قال بها عالم النبات الهولندي هوجو دى فريز، في بدايات القرن العشرين، وأنها السبب في تطور الكائنات! وتبنى العلماء هذه النظرية.

ويعتبر "جورج سمبسون وجوليان هكسلي" من أشهر من شاركوا في صياغة هذه النظرية: "النظرية التركيبية الحديثة" وسُميت هذه النظرية بالداروينية الجديدة! وبعد أن لاقت هذه النظرية اعتراضات وانتقادات كثيرة كبيرة، كسابقتها، ولنطق سجل الحفريات بما يخالفها، تفتق ذهن بعض التطوريين في السبعينيات، مثل: Stephen Niles Eldredge Jay Gould عن نظرية جديدة، تسمى ب الـ Punctuated Equilibrium والتي يمكن تعريبها ب "الاتزان المتقطع"، -والذي لا يعرفون له

---

[8] يذكر هارون يحيى نماذج للأفكار الراجئة في ذلك العصر فيقول في كتابه: هدم نظرية التطور في عشرين سؤالا، ص: 89-90: "فكرة نشوء المادة الحية من مادة غير حية هي في الواقع خرافة تعود إلى العصور الوسطى. ففي ذلك الوقت، افترض الناس أن ظهور بعض الكائنات الحية فجأة كان نتيجة "توالد تلقائي"، ووفقا لهذا الاعتقاد، اعتبر الناس أن الإوز نشأ من الشجر، وأن الحملان نشأت من البطيخ، بل حتى أن شراغف الضفادع (صغارها) نشأت من كميات المياة الصغيرة المتكونة في السحب، وسقطت إلى الأرض في شكل مطر. وفي القرن السابع عشر بدأ الناس يعتقدون أن الفئران يمكن أن تولد في مزيج من القمح وقطعة متسخة من القماش، وأن الذباب تكون عند اختلاط الذباب الميت بالعسل." اهـ

آلية!– والتي تقول أن التطور لم يحدث من خلال سلسلة من التغييرات البسيطة المتراكمة عبر العصور، وإنما من خلال تغيرات كبيرة مفاجئة!

وإلى يومنا هذا لا يزال التطوريين يعدلون ويضيفون ويحذفون تبعا للإشكاليات، التي تُكتشف وتعارض ما تقوله النظرية! ولم تعد الداروينية مجرد نظرية لتفسير خلق الإنسان، فلقد تعدته إلى تفسير ظواهر عديدة بل وإلى مجالات أخرى عديدة، فأصبحنا نسمع عن الداروينية الاجتماعية وغيرها من الداروينيات! باختصار أصبحت الداروينية عقيدة جديدة!

وتعتبر نظرية التطور أكثر النظريات العلمية إثارة للجدل، والتي تتراوح الآراء فيها بين تصديق وجزم بأن التطور حقيقة واقعة، وتكذيب يرى أن التطور مجرد "فرضية"، –لا ترقى بحال إلى درجة النظرية! بله أن تكون حقيقة علمية– ينقضها ويهدمها الكثير من الاعتراضات العقلية والمنطقية.

ويقدم أرباب كل توجه أدلةً كثيرة على صحة توجهه وتهافت التوجه الآخر، ويتحجر أتباع كل رأي على موقفه، رافضا التزحزح خطوات تجاه الفريق الآخر! وسيرى القارئ الكريم أن الصواب –بإذن الله– هو في منطقة وسط بين الرأيين، لذا أصاب كلٌ منهما الصواب وجانبه في عين الوقت!

التطور في كتابات المسلمين الأوائل

يستدل التطوريون المسلمون على أن نظرية التطور لا تعارض الدين، ببعض كتابات لعلماء مسلمين سابقين، تكلموا عن التطور وسبقوا به داروين ومن ماثله من علماء الغرب، وبهذا يكون السبق للمسلمين في اكتشاف نظرية التطور! ومن ذلك ما أورده الإمام زكريا القزويني (600–682هـ) في كتابه: "عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات"، حيث قال: "فأول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس

ملكية طاهرة، فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات، والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان، والنفوس الإنسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية، والله تعالى أعلم بالصواب" اهـ

كما يستدلون ببعض ما جاء في رسائل إخوان الصفا[9]، وتحديدا ما جاء في الرسالة الرابعة والثلاثين، حيث ذكروا نفس التقسيم الذي ذكره الإمام القزويني ثم بدأوا التمثيل على ذلك، فمما قالوا: "والنخل نبات حيواني: وأمّا النخل فهو آخر مرتبة النباتية مما يلي الحيوانية، وذلك أن النخل نبات حيواني، لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال الحيوان وإن كان جسمه نباتا، بيان ذلك أن القوة الفاعلة فيه منفصلة من القوة المنفعلة، والدليل على ذلك أن أشخاص الفحولة منه مباينة لأشخاص الإناث (...) إن أدنى الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسّة واحدة وهو الحلزون، وهو دودة في جوف أنبوبة، نبتت في تلك الصخور، التي تكون في سواحل البحار وشطوط الأنهار، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلا اللمس فحسب، وهكذا أكثر الديدان التي تتكون في الطين في قعور البحار وأعماق الأنهار، ليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق، لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضو لا يحتاج إليه في جَرِّ المنفعة أو دفع المضرّة، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج إليه كان وبالا عليها في حفظها لبقائها. فهذا حيوان نباتي، لأنه ينبت جسمه كما ينبت بعض النبات، ويقوم على ساقه، وهو من أجل أنه يحركه حركة اختيارية، حيواني، ومن أجل أنه ليست له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة في الحيوانية." اهـ

[9] إخوان الصفا وخلان الوفا هم جماعة من فلاسفة المسلمين العرب، من أهل القرن الثالث الهجري والعاشر الميلادي بالبصرة، اتحدوا على أن يوفقوا بين العقائد الإسلامية والحقائق الفلسفية المعروفة في ذلك العهد فكتبوا في ذلك خمسين مقالة سموها"تحف إخوان الصفا". وهنالك كتاب آخر ألفه الحكيم المجريطي القرطبي المتوفى سنة 395هـ وضعه على نمط تحفة إخوان الصفا وسماه "رسائل إخوان الصفا". إنبثقت جماعة إخوان الصفا تحت تأثير الفكر الإسماعيلي في البصرة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكانت إهتمامات هذه الجماعة متنوعة وتمتد من الرياضيات إلى الفلك. ومن الأسماء المشهورة في هذه الحركة كانت أبو سليمان محمد بن مشير البستي المشهور بالمقدسي، وأبو الحسن علي ابن هارون الزنجاني.

وليس في قولهم ما يشير إلى أنهم يقولون بالتطور، فهم يتحدثون عن ترتيب الوجود والنشأة، يدل على هذا العنوان المذكور لمقالهم وهو: "فصلٌ في نظام الوجود والبقاء"!

ويؤكد هذا ما ذكروه في الرسالة الثامنة: "في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها: فصل أن النبات متقدم الكون والوجود"، حيث قالوا: "واعلم يا أخي بأن الحيوانات التامة الخلقة كلها كان بدء كونها من الطين أولاً من ذكر وأنثى توالدت وتناسلت وانتشرت في الأرض سهلاً وجبلاً، وبرا وبحرا، من تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار متساويين، والزمان أبداً معتدلا هناك بين الحر والبرد، والمواد المتهيئة لقبول الصورة موجودة دائما. وهناك تكوّن أبونا آدم أبو البشر وزوجته، ثم توالدا، وتناسلت أولادهما، وامتلأت الأرض منهم سهلا وجبلا، وبراً وبحراً إلى يومنا هذا. ثم اعلم يا أخي بأن الحيوانات كلها متقدمة الوجود على الإنسان بالزمان، لأنها له ولأجله، وكل شيء هو من أجل شيء آخر فهو متقدم الوجود عليه. هذه الحكمة في أولية العقل لا تحتاج إلى دليل من المقدمات ونتائجها، لأنه لو لم يتقدم وجود هذه الحيوانات على وجود الإنسان لما كان للإنسان عيش هنيء ولا مروءة كاملة، ولا نعمة سائغة ..." اهـ

فهذا ما يقول به إخوان الصفا، خلقٌ مباشر، وكل حديثهم عن تقارب المراتب بين الأجناس المختلفة وعن أسبقية الوجود، لا أن هذا خرج من ذاك! ونلحظ أن إخوان الصفا يتحدثون عن "تكون" آدم وزوجه! أي أنهم كانوا يرون أنه خُلق على الأرض بشكل سُنّي (طبيعي) في منطقة استوائية، وليس للمسألة أي علاقة بالسماء ولا بجنة الخلد! وبالتالي تكون جنته في الأرض، فتكون حديقة كثيفة الأشجار! وسنفصل هذه المسألة عند كلامنا عن جنة آدم!

كما يستدلون بما ذكره ابن مسكويه[10] في كتابه "الفوز الأصغر"، والذي تحدث فيه عن المراتب المختلفة للكائنات وتقاربها وقبولها لصفات الأجناس الأخرى[11]، بتقسيم مقارب لما ذكره إخوان الصفا، وكذلك بما ذكره في كتابه: "تهذيب الأخلاق"، والذي تحدث فيه عن قابلية الحيوانات لاكتساب المعارف والعلوم، واقترابها بذلك من مرتبة الإنسان، حيث قال: "ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد في الحيوان حتى يقرب من أفق الإنسان، فحينئذ يقبل التأديب ويصير بقبوله للأدب ذا فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات. ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوانات حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبازي المعلم. ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان، الذي يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه، ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها، ويبلغ من ذكائها أن تستكفي في التأدب بأن ترى الإنسان يعمل عملا فتعمل مثله، من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ورياضة لها، وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار في أفق الإنسان، الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها. فإذا بلغ هذه الرتبة تحرك إلى المعارف واشتاق إلى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل، يقتدر بها على الترقي والإمعان في هذه الرتبة كما كان ذلك في المراتب الأخرى التي ذكرناها. وأول هذه المراتب من الأفق الإنساني المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني مراتب الناس الذين يسكنون في أقاصي المعمورة من الشمال والجنوب، كأواخر الترك من بلاد يأجوج ومأجوج وأواخر الزنج وأشباههم من الأمم التي لا تميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة[12]. ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم، فيحدث

---

[10] أبو علي الخازن هو أحمد بن محمد بن يعقوب (320–421 هـ) المشهور بلقب ابن مسكويه، ولقبه مسكويه نسبة إلى المسك.. ولد في مدينة الري في بلاد فارس، وطلب العلم بهمة عالية، وكان شديد التأثر بفلاسفة اليونان مثل أفلاطون وأرسطو وبروسن وجالينوس وحاول في كتاباته الجمع والتوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية.

[11] كانت مخطوطات هذا الكتاب موجودة في المكتبات الأوروبية، ويقال أن داروين اطلع على الأفكار الموجودة فيها! فكان لها أثر كبير في قوله بالتطور!

[12] في قول ابن مسكوية، والذي عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إشارة إلى المستوى المعيشي والفكري، الذي كان عليه الأوروبيون في ذلك الوقت والمماثل للزنوج في مجاهل أفريقيا، والذي كان لا يرقى عن القرود إلا بالنذر اليسير!! وبيان بالفضل العظيم للمسلمين على كل سكان العالم، فلولاهم لظلوا في غياهب الجهل!

فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل، وإلى هذا الموضع ينتهي فعل الطبيعة التي وكّلها الله عز وجل بالمحسوسات." اهـ

ولا يزيد مرام ابن مسكويه عن القول بمزية المعارف وبقبول الحيوانات للتعلم، وكيف أنها ترتقي بذلك إلى درجات أعلى، وأن هجره مُنزلُ الإنسان منزلة الحيوان! وأرجو أن يتذكر القارئ ما قاله ابن مسكويه عند حديثنا عن معنى "استخلاف" الإنسان!

كما يستدلون بما ذكره الإمام بن خلدون في مقدمته، والذي ذكر فيها كلاماً مشابها لما ذكره إخوان الصفا، حيث قال: "ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وانتهى في تدريج التكوين الى الإنسان[13]." اهـ

إذن وكما رأينا، لم يقل علماء المسلمين السابقون بالتطور، وإنما انتبهوا إلى التشابه والتقارب بين المخلوقات، وأرجعوا هذا إلى وحدة الخالق، وإلى سبق الأبسط للأكثر تعقيدا في الوجود، كما صرّح بذلك إخوان الصفا في الرسالة الثامنة بعد حديثهم عن اتصال الأجناس ببعضها: "... ليكون في ذلك بيانٌ ودليلٌ، لمن كان له قلب صافٍ ونفس زكية وعقل راجح، على كيفية ترتيب الموجودات ونظام الكائنات عن علة واحدة ومُبدأ واحد، وأنها كترتيب العدد عن الواحد الذي قبل الاثنين" اهـ

وقد يتخذ التطوريون قول علمائنا بسبق الأبسط للأعقد في الوجود دليلا على التطور! لذا ينبغي التنبيه إلى أنهم كانوا يقصدون بذلك الأجناس لا الأفراد! بمعنى أن الجمادات كانت أولا، ثم خُلقت النباتات كما هي بمختلف أنواعها، ثم خُلقت الحيوانات ثم خُلق الإنسان.

[13] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص: 68.

ولقد بيّن إخوان الصفا الحكمة من هذا بأن ما هو لشيء لا بد أن يكون سابق له! فلو نشأ الحيوان قبل النبات لهلك! لأنه لن يجد ما يتغذى به! ومن المستحيل أن ينشأ النبات قبل أن تتهيأ الأرض وينصلح حالها! ولو نشأ الإنسان فلم يجد نباتا ولا حيوانا لهلك هو الآخر! لهذا كانت المرحلية في الخلق، لإعداد البيئة المناسبة لكل نوع، لا لكي يتطور النوع عن السابق له! وسيرى القارئ أن آلية الخلق التي نقول بها لا تجعل تقدم النبات شرطا لوجود الحيوان، فقد كان من الممكن أن يُخلق الحيوان قبل النبات، ولكن كان الخلق بهذا الشكل، تبعا لحكمة الله العليم.

والخلق بشكل عام قائم على سنة "الأطوار" والتي جعلها الله سنة الحياة! وسيظهر للقارئ الكريم الفارق بين القول بالتطور الصدفوي، الذي يقول به الداروينيون وبين معنى سنة الأطوار أو الطورية، الذي نقول به.

تصور التطور

على الرغم من أن داروين لم يكن ملحدا ولا يهوديا، وإنما كان مسيحيا (أعلن كفره بالمسيحية في آخر حياته، وإن ظل على الإيمان بوجود الخالق) إلا أنه نسى وجود الخالق تماما عند وضعه لنظرية التطور[14]، فلكي تكون النظرية مقبولة علميا —في أوروبا في ذلك العصر– كان لزاما ألا يُشار إلى الإله أو إلى أي عنصر غيبي في النظرية، وإنما يجب حصر عناصرها في الطبيعة!

وبهذا تكون النظرية نظرية مقبولة علميا! كأن عدم وجود الإله أصبح من المسلّمات البدهية! لذا اضطر دارون ومن جاء بعده إلى القول بالصدفوية في نشأة الكائنات، مما أدى إلى وجود مطعن كبير وعنصر رفض منطقي لها!

---

[14] تصور الإله عند كثير من الأوروبيين، حتى الملاحدة منهم، متأثرٌ بالصورة المذكورة في الكتاب المقدس، لذا يشوب تصور الإله عندهم نقصٌ كبير وتشابه بالبشر في السلوك! بخلاف التصور الإسلامي للإله، والذي يرتكز على جماع الكمال: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويمكن تلخيص فكرة التطور في التالي: تقوم آلية التطور على القول بوجود سلف مشترك لجميع الكائنات! حيث نشأ ذلك السلف البسيط (خلية أولية) من تحورات مختلفة لبعض عناصر الأرض، بالصدفة، وبمرور الزمن أخذ هذا السلف المشترك في الترقي إلى كائنات مختلفة متنوعة، أعلى وأرقى وأكثر تعقيدا. وبمرور العصور يحدث تغير دائم في هذه الكائنات، بالصدفة!، في شكل وتركيبات ووظائف الكائنات الحية.

وبغض النظر عن كون هذا التغيير طفيف وتدريجي أو كبير وفُجاءي، فإن هذه التغييرات تتراكم، ويؤدي تراكم هذه التغييرات في فترات طويلة جديدة، تُقدر بملايين السنيين، أو قصيرة جدة، تُقدر ببعض أجيال، تؤدي إلى اختلافات كبيرة، وتنوعات هائلة، وتؤدي هذه الاختلافات إلى نشوء أنواع جديدة من الكائنات الحياة! وهكذا تستمر الكائنات في التطور والرقي، صدفة، بما يتناسب مع أحوال واحتياجات الكائنات!

ويبين الأستاذ حاتم ناصر الشرباتي الأسس التي ترتكز عليها النظرية: "ونظرية التّطور ترتكز على ثلاث قواعد رئيسية كما حددتها "الموسوعة العالمية": إنّ الكائنات الحيّة تتبدل أشكالها جيلاً بعد جيل تبدلاً بطيئاً، وتنتج في النهاية أنسالاً تتمتع بصفات غير صفات أسلافها. إن هذا التّطور قديم وُجد يوم وُجدت الكائنات، وهو السّبب في وجود كلّ الكائنات الحيّة من حيوان ونبات في هذا الكون وتلك التي انقرضت، وهذا هو "التناسخ" Reincarnation الذي تقول به بعض الديانات. إنّ جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات مرتبطٌ بعضه ببعض ارتباط صلة وقرابة، وكلها تجتمع عند الجد الأعلى للكائنات جميعا[15]." اهـ

وتعتمد آلية التغير على الصراع من أجل البقاء، فهناك صراع بين الأفراد نفسها، من أجل التنافس على الغذاء وما شابه من الممتلكات (الأنثى، مناطق نفوذ ... إلخ) وهناك جهاد من أجل التكيف مع البيئة! وأثناء هذا الصراع الصدفوي! فإن الأفراد الضعيفة

[15] حاتم ناصر الشرباتي، الخلق والنشوء بين ضلال النظريات وحقائق الإسلام.

غير الملائمة للظروف البيئية تهلك وتنقرض، بينما تظل الأفراد القوية، (البقاء للأصلح[16])، التي استطاعت التلائم والتكيف مع البيئة، ومن ثم تورث صفاتها لنسلها، وهكذا تنشأ أجيال قوية ذات صفات معدلة، أكثر قدرة على البقاء والتكيف مع الطبيعة العمياء، التي تخبط خبط عشواء!!

وفي أثناء مراحل التطور هذه حصلت تغيرات كبيرة للكائنات، فأصبحت بعض الكائنات البرية بحرية –لأن وجودها على البر كان، فيما يبدو، خطأ من أخطاء الطبيعة، التي لا تعرف ماذا تفعل!– وأصبحت بعض الكائنات البحرية برية، –لأن البحر فيما يبدو لم يكن مناسبا لها، أو أن الغذاء نفد منه!– وانتكست بعض الكائنات فأصبحت بعض ذوات الأرجل زواحف! وأصبحت بعض الدواب طيورا، حتى أن الديناصور قد طار أثناء جريه وراء الذباب!

هل قال داروين بالأصل القردي للإنسان؟

يعترض بعض مؤيدي نظرية التطور العرب على من يقول أن داروين قال أن الإنسان أصله قرد! ويرون أن هذا ظلم لدارون وللنظرية، فهو لم يقل هذا الكلام ولم يقصده، والمقولة لا تزيد عن كونها من الدعايات المغرضة المهاجمة للنظرية، بدون تدبر أو فهم لما تقصده!

والحق يقال أن دارون لم يقل أن الإنسان أصله قرد! ولكن هذا لا يقدم ولا يؤخر، فلقد قال أن الإنسان والقرد ينتميان إلى أصل واحد[17]، وهذا الأصل هو الحلقة

[16] هربرت سبنسر (27 ابريل 1820–8 ديسمبر 1903). فيلسوف بريطاني، هو الذي أوجد مصطلح "البقاء للأصلح "، وإن كان يُنسب عادة لداروين (لأنه استعاره وأضافه إلى كتابه: أصل الأنواع، في الطبعة الثانية!) وقد ساهم سبنسر في ترسيخ مفهوم الارتقاء، وأعطاه أبعادا اجتماعية، فيما عُرف لاحقا بالداروينية الاجتماعية.

[17] من الأقوال اللاذعة للفيلسوف الإيرلندي الساخر برنارد شو حول نظرية داروين، قوله: "لقد حزن اللصوص عندما أدان ماركس البرجوازية بالسرقة، كما حزنت القرود عندما أثبت داروين أنهم أبناء عمومتنا"!

المفقودة، –ذلك الجنس الذي سماه الأستاذ يوسف كرم، الفيلسوف العربي الكبير الراحل: القرسان–. لقد قال دارون في كتابه: Descent of Man "نشأة الإنسان"، والذي صدر بعد كتابه: أصل الأنواع، أن السلف الأعلى للإنسان كان مخلوقا شبيها بالقرد (Ape–Like)، وشبيه القرد هذا جاء من الغوريلا، والتي ليست بقرد، على أي حال! ونقدم للقارئ الكريم، الصورة التي قدمها التطوريون لذلك المخلوق شبيه القرد، وليحكم بنفسه هل هناك اختلاف بين إثبات أو نفي قول داروين بقردية الإنسان:



والجدال حول هذه المسألة جدال عقيم، فنظرية التطور مليئة بالمضحكات[18] المبكيات، فإذا كان قد قال أن الحوت أصله دب! وأن الزرافة أصلها غزالة! وأن هناك بعض الأسماك تحولت إلى طيور، فلم التحجر ورفض أن يقول أن الإنسان أصله قرد! وسواء قال أم لم يقل، فالمتفق عليه أنه قدم في نظريته نشأة حيوانية صرفة للإنسان، بعيدا عن التوجيه والعناية الإلهية، التي يُفترض فيها مصاحبة الإنسان منذ أول يوم نشأ فيه!

[18] نحن لا نقول هذا مبالغة ولا من باب التجني، فهذا هو الوصف مناسب تماما لمثل الأقوال التالية: "تطورت الثدييات قبل 60 مليون سنة إلى حيتان حين غامر بعضها بالنزول إلى المـاء! بحثا عن الطعام فبدأت الأرجل الخلفية تختفي مع الوقت، كما تحولت الأرجل الأمامية إلى زعانف، وتغير شكل الأنف واختفى الشعر وتحول إلى جلد!!" "أصل الثدييات هو الزواحف، ففي عصر من العصور الغابرة، قامت بعض الزواحف *بتطوير* أُسلوب للحفاظ على حرارة جسمها، حيث تحولت القشور إلى فرو!! وبينما يلعق بعض صغار الزواحف أمهاتها –بالصدفة– بدأت تلعق عرق الأُم لتلطيف جسمها، فبدأت بعض غُدد الأمهات في إفراز عرق أكثر كثافة، ثم تحول هذا العرق في النهاية إلى لبن!!" "جرفت الكتل الجليدية الأشجار التي كانت تسكنها القرود، مما أجبرها على النزول إلى الأرض والتحول إلى إنسان!" فالحمد لله على نعمة الجليد وكفى بها نعمة!!!

أدلة التطوريين

يستدل التطوريون على نظريتهم بأدلة يرونها قاطعة مانعة، وأنها أوصلت النظرية إلى درجة الحقيقة العلمية، لذا لا يبغون عنها حِولا! ولأننا نعرض للنظرية من جانب عقلي وليس عرضا تفصيليا، فإننا سنكتفي بالأدلة الإجمالية التي يستدلون بها، –وبالمثل سيكون حديثنا عن الاعتراضات حول النظرية باعتراضات كلية وعقلية–. وأبرز الأدلة العلمية التي يستدل بها التطوريون على التطور –لأنه لا دليل عقلي لها!–، هي:

1– السجل الأحفوري[19]، والذي يظهر عملية التطور من الكائنات وحيدة الخلية إلى عديدات الخلية، حتى وصلت إلى الثدييات العليا. فتاريخ ظهور أول كائن حي أولي يسبق بكثير تاريخ ظهور الحيوانات، وتاريخ ظهور الحيوانات الفقرية يسبق تاريخ ظهور الثدييات! فيكون هذا دليلا على أن الأعقد تطور من الأبسط[20]!

2– النظام الموحد أو التشابه التشريحي والبيولوجي، في عائلات الكائنات ذات الأصل المشترك، فالهيكل العظمي للإنسان يتشابه مع الضفدعة والسمكة والبطة، على الرغم من اختلاف طريقة حياة كل منها، فما هو مبرر هذا التطابق إن لم يكونوا قد انحدروا من أصل واحد[21]!

3– التوزيع الجغرافي، ففي كل قارة من قارات العالم حيواناتها ونباتاتها الخاصة، والتي لا توجد في قارة أخرى في نفس خط العرض وفي بيئة مشابهة، فالناظر يرى استحالة وجود حفرية حيوان نشأ وانفصل عن جده (المفترض) في مكان آخر لم يعش فيه جده

[19] الحفريات هي بقايا الكائنات الحية التي عاشت منذ زمن طويل، وبعد موتها تحللت أجسادها وبقي بعضها أو بقيت كلها في طبقات الأرض التي تحجرت، مما ساعد على الحفاظ على شكل الكائن الحي، أو على بقاياه.

[20] ولله الحمد أغنانا ما ذكرناه من رسائل إخوان الصفا عن الرد على هذا الدليل.

[21] وحدة الخالق هي المبرر: وفي كل شيء له آية *** تدل على أنه واحد!

التطوري! فلو أن هذا الحيوان خلق خلقا منفصلا لتوزع بعشوائية وبدون أن يرتبط بمكان تواجد سلفه الأسبق[22]!!

4- البيولوجيا الجزيئية[23]، والتي أثبتت وجود تشابه كبير جدا في الجزيئيات وفي طريقة عملها عند كل أشكال الحياة من أصغر بكتيريا إلى الإنسان، فلكل الكائنات الحية نفس تركيبة الحمض النووي (دي إن ايه)، مما يدل على الأصل الواحد.

وتعد هذه الأدلة الأربعة أشهر أدلة يستدل بها التطوريون على صحة النظرية، وكان هناك بعض الأدلة الأخرى يستدلون بها، إلا أنهم تراجعوا عنها، بعد اكتشافهم عدم صحة الاستدلال بها، مثل قولهم بوجود أعضاء زائدة لا وظيفية[24]، فيكون مبرر وجودها الوحيد هو رجوع كل الكائنات إلى أصل واحد، وكذلك بعد اكتشافهم تزييفها، مثل قولهم بأن مراحل الجنين تلخص المراحل التي مرت بها الكائنات الحية، فزعموا أن جنين الانسان في فترة معينة يكون له خياشيم مكان رئته، كما ينمو له ذيل في

---

[22] بغض النظر عن عدم إثبات وجود *الجد* المختلف، فإن الجملة الأخيرة دليل مبطل لما يقولون به، وتدل في عين الوقت على أن من كتبها –وهو أوروبي– أحمق كبير، ولا يفهم إلا أن الخلق المستقل سيكون كذلك من خبط الطبيعة وليس من خلق إله عليم!!

[23] لم يكن هذا العلم موجودا في زمن داروين، فهو من العلوم الحديثة! والبيولوجيا الجزيئية هي دراسة الوراثة على المستوى الجزئي، تهتم البيولوجيا الجزيئية بدراسة مختلف العلاقات المتبادلة بين جميع الأنظمة الخلوية وخاصة العلاقات بين الأحماض النووية DNA. RNA وعملية تصنيع البروتينات بالاضافة إلى آليات تنظيم هذه العملية وكافة العمليات الحيوية. ويرد على هذا الدليل بنفس بيت الشعر المذكور تعليقا على الدليل الثاني!

[24] مسألة وجود أعضاء لاوظيفية قولٌ راجع إلى قلة علم الإنسان، فلا يعني عدم معرفة الإنسان بوظيفة الشيء أنه لا وظيفة له، فكلما يتقدم العلم يكتشف الإنسان ما لم يكن يعلم، والجهل بالشيء لا يعد دليل إثبات!

ويذكر هارون يحيى في كتابه: خديعة التطور، ص: 160، نماذج للأعضاء التي ادعوا أنها لا وظيفية فيقول: "تضمنت قائمة الأعضاء الضامرة التي أعلنها عام 1895 العالم الألماني فيدرشاين (المتخصص في علم التشريح) نحو مئة عضو(!!!)، بما فيها الزائدة الدودية وعظم عجب الذنب، ولكن مع تقدم العلم ثبت أن لكل الأعضاء الواردة في قائمة فيدرشاين وظائف هامة. فعلى سبيل المثال: ثبت أن الزائدة الدودية التي وردت باعتبارها من الأعضاء اللاوظيفية هي عضو لمفاوي يحارب إصابات الجسم بالجراثيم. وقد وضحت هذه الحقيقة عام 1997. تعد أعضاء وأنسجة الجسم الأخرى مثل غدة الثيموس والكبد والطحال والزائدة الدودية ونخاع العظم ومجموعات الأنسجة اللمفاوية الصغيرة (مثل اللوزتين في الحلق ورقع باير في الأمعاء الدقيقة) جزءا هاما من الجهاز اللمفاوي، فهذه الأعضاء تساعد الجسم على مقاومة العدوى. واكتشف أيضا أن اللوزتين (اللتين وردتا في قائمة الأعضاء اللاوظيفية المذكورة) تلعبان دورا هاما في حماية الحلق من العدوى. خاصة حتى سن المراهقة. أما عظم عجب الذنب (وهو آخر عظيم في العمود الفقري)، فقد ثبت أنه يساعد العظام المحيطة بالحوض على التماسك. ..." اهـ

الأسبوع الرابع، ويصل لأقصى طول له في الأسبوع السادس، ثم يصغر إلى أن يتحول إلى الفقارات العصعصية، ... وسنعرض لهذه النقطة بتفصيل أكبر عند حديثنا عن تزييفات الداروينيين.

إشكاليات النظرية

تواجه نظرية التطور العديد والعديد من الإشكاليات العلمية، بالإضافة إلى العقلية المنطقية، منها ما لاحظها دارون نفسه، وقدّم لحلها بعض الاحتمالات، ومنها ما اكتشفه أنصارها بعد دارون، ومنها ما قال به معارضو النظرية، وسنذكر أهم هذه الإشكاليات أو الصعوبات –كما سماها داروين–، والتي لم يستطع دارون ولا من بعده أن يقدموا لها حلولا مستندة إلى أدلة، وإنما قدّموا احتمالات وتخمينات، ونبدأ بما ذكره دارون نفسه في كتابه أصل الأنواع، حيث قال: "ومن الممكن تبويب هذه الصعوبات والاعتراضات تحت هذه العناوين:

أولا: إذا كانت الأنواع قد نشأت وانحدرت من أنواع أخرى عن طريق تدرجات دقيقة، فلماذا لا نستطيع أن نرى في كل مكان عددا لا حصر له من الأشكال الانتقالية؟ ولماذا لا تكون الطبيعة كلها في حالة من الفوضى، بدلا مما نراه من كون الأنواع محددة بدقة؟

ثانيا: هل من الممكن لحيوان ما لديه مثلا التركيب والسلوكيات الخاصة بالخفاش، أن يكون قد تم تكوينه عن طريق التعديل لحيوان آخر لديه سلوكيات وتركيب مختلفة تماما؟ هل نستطيع أن نصدق أن الانتقاء الطبيعي يمكنه أن ينتج، من أحد الجوانب، عضوا ذا أهمية تافهة مثل الذيل الخاص بالزرافة، الذي يستخدم كمضرب ذباب، وعلى الجانب الآخر عضوا غاية في الروعة مثل العين؟

ثالثا: هل من الممكن أن تُكتسب الغرائز وأن تتعدل من خلال الانتقاء الطبيعي؟ وماذا يمكن أن نقول عن الغريزة التي تقود النحل إلى أن يصنع خلايا، وهي التي سبقت بالفعل الاكتشافات الخاصة بعلماء الرياضيات عميقي التفكير؟

رابعا: كيف نستطيع أن نجد تفسيرا للأنواع، التي عند تهجينها تكون عقيمة، وتنتج ذرية عقيمة، بينما عندما تتهاجن الضروب فإن خصوبتها لا تختل[25]؟" اهـ

ولقد حاول دارون أن يقدم تفسيرا لها في كتابه، إلا أن ما قدمه كان تخمينات واحتمالات ليس أكثر، ونطلب إلى القارئ أن يقرأ ما كتبه دارون في كتابه ويحكم عليه بنفسه!

1- إشكالية عدم تطور الأجسام البسيطة

وليست هذه هي الإشكاليات الوحيدة التي انتبه إليها دارون، فلقد انتبه إلى إشكاليات أخرى، منها ما حكاه الدكتور موريس بوكاي –المؤمن بالتطور!- وقدم له ردا غير مدعم بالأدلة، ناقلا قول داروين في رسالة إلى آزا غراي: "إن النقص الأهم في كتابي، باعتقادي، كان في عدم تفسير كيف يحصل بأن كل الأشكال لا تتطور بالضرورة، وبوسع الأجسام البسيطة الاستمرار في الوجود[26]" اهـ

وهذا إشكالية كبرى صحيحة، فإذا كان التطور قانون صدفوي واقع على كل الكائنات، فلماذا بقيت بعض الكائنات البسيطة، مثل الكائنات وحيدة الخلية، ولم –ولن- تتطور؟! ولكي يكون هناك رد علمي على هذه الإشكالية، يفترض في أنصار التطور أن يظهروا لنا فروقاً تركيبية بين هذه الكائنات وغيرها، أدت إلى تعطل التطور عند هذه الكائنات وسمحت به عند الأخرى!

---

[25] تشارلز داروين، أصل الأنواع، تعريب: مجدي محمود المليجي، ص. 276.

[26] موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، تعريب: فوزي شعبان، ص. 43.

2- إشكالية عدم وجود أشكال انتقالية

انتبه دارون إلى هذه الإشكالية العظمى، فإذا كانت الحيوانات تطورت عن غيرها فمن المفترض أن يوجد كثير من الأشكال الانتقالية، أي أن نجد مثلا كائنا نصفه سمكة ونصفه حيوان، أو نصفه حيوان ونصفه طائر! ويفترض أن تكون هذه الأشكال الانتقالية من الوفرة بمكان، حتى أنه يجب أن تزيد بكثير عن الأشكال الموجودة، لأنه من المفترض أن الكائن قد مر بمراحل كثيرة حتى تحول من شكل إلى آخر!!

وكان داروين يُعول على أن يكتشف من يأتي بعده حفريات تؤيد نظريته! وها قد مر مائة وخمسون عاما على صدور كتابه أصل الأنواع، ولم يكتشف العلماء شكلا انتقاليا واحدا صريحا!

وعلى الرغم من بقاء العقبة إلا أنها تُجووزت من أنصار الداروينية، ويعلق هارون يحيى على هذه النقطة، فيقول: "نتيجة إيمان دعاة التطور بنبوءة دارون، ما زالوا يفتشون عن المتحجرات، ويحفرون في كل بقاع الأرض منذ منتصف القرن التاسع عشر، باحثين عن الحلقات المفقودة. وعلى الرغم من جهودهم الحثيثة، لم تُكتشف حتى الآن أية أشكال انتقالية. وقد أثبتت كل المتحجرات المكتشفة أثناء الحفر أنه -على عكس ما يعتقد دعاة التطور- فإن الحياة قد ظهرت على الأرض فجأة في تكوين كامل. وبينما كان دعاة التطور يحاولون أن يثبتوا نظريتهم، تسببوا -دون قصد- في انهيارها!

وقد اعترف عالم المتحجرات الإنكليزي المشهور، ديريك آجر، بهذه الحقيقة على الرغم من كونه من دعاة التطور، قائلا: "تتمثل نقطة الخلاف في أننا إذا فحصنا سجل المتحجرات بالتفصيل، سواء على مستوى الترتيب أو الأنواع، فسنكتشف -مرارا وتكرارا- عدم وجود تطور تدريجي، بل انفجار فجائي لمجموعة واحدة على حساب الأخرى[27]." اهـ

[27] هارون يحيى، خديعة التطور، ص. 46.

3– إشكالية الظهور المفاجئ لحيوانات كاملة التركيب

طبقا لنظرية التطور، يُفترض أن توجد الكائنات الحية بالتوالي من الأبسط إلى الأعقد والأرقى، لأنها مما ينشأ عن بعض، فلا يمكن أن توجد كائنات معقدة بالتوازي مع كائنات أخرى بسيطة أو أقل رقيا في نفس الحقبة الزمنية. ونوضح للقارئ فنقول: يقسم علماء الأحياء الكائنات إلى مجموعات رئيسية مثل الحيوانات والنباتات والفطريات ... إلخ.

وتبعا للداروينية فينبغي أن تكون ظهور الكائنات مثل بناء البيت، الذي يبدأ بقاعدة مشتركة، ثم بعد ذلك أعمدة وجدران، تحمل الأدوار التالية لها، ومن غير المقبول أن تُبنى الأدوار العلوية بالتوازي مع بناء القواعد! والسجل الأحفوري لا يقول بهذا التدرج، وإنما يشهد أن الكائنات ظهرت فجأة كاملة التركيب في فترة قصيرة في العصر الكمبري، فيما يعرف بالانفجار الكمبري[28]. ويرجح بعض العلماء أن يكون ذلك الظهور قد استغرق ما لا يزيد عن خمسة ملايين سنة من ذلك العصر الذي استغرق قرابة السبعين مليون عام.

---

[28] ويذكر هارون يحيى في كتابه: كان ذات مرة ... داروينية! (والذي عُرب تحت عنوان: الداروينية في الزمن القديم)، – والكتاب موجود على موقعه الشخصي على الانترنت– عن بداية هذا الاكتشاف وكيف تأخر في الظهور فيقول: "علينا أن نعود إلى بدايات القرن العشرين وإلى عام **1909** على وجه التحديد. ففي ذلك العام قام أحد علماء الحفريّات ويدعى تشارلز د. ولكوت بإجراء أبحاث في منطقة الجبال الصخرية الموجودة في كندا. وفي منطقة تسمى بُورجيس باص صادف ولكوت طبقات من الصخور محمية بدرجة كبيرة للغاية، أو كما يطلقون عليها بالإنجليزية اسم .(**shale**) ولاحظ وجود عدد كبير من الحفريات في مرتفع منطقة بورجيس، ولم يكن من الصعب عليه معرفة أنها تعود إلى العصر الكمبري. بعد ذلك قام بالاهتمام طوال **4** سنوات بجمع ما بين **60** إلى **80** ألف حفرية من منطقة **shale** و دوّن جميع تفاصيل عمله هذا. (...) لقد شعر "ولكوت" بدهشة عارمة عندما فهم العائلات التي تنتمي إليها الحفريات التي قام بجمعها، لأن طبقة الحفرية التي وجدها كانت قديمة للغاية، كما أن أحداً لم يصادف وجود حياة جديرة بالتسجيل والتدوين في الطبقات الأقدم من تلك التي وجدها هو. (...) كان يجب الانتظار لمدة **70** عاماً أخرى حتى تظهر هذه الضربة الكبيرة الموجهة إلى النظرية. والسبب في هذا أن "ولكوت" اتخذ القرار بأن يخفي نتيجة الدراسة التي قام بها بدقة شديدة طوال **4** سنوات بدلا من يعرض الحفريات التي تناولها بالبحث على دنيا العلم. لقد كان "ولكوت" يعمل مديراً لمتحف سميثسونيان (**Smithsonian**) الشهير الموجود في واشنطن، وكان دارونياً متحمساً. لما رأى أن الحفريات التي تناولها بالبحث قد تمثل مشكلة كبيرة بالنسبة إلى نظرية التطور، فضّل أن يضع تلك الحفريات في الأرشيف بدلا من إظهارها وإظهار ما توصل إليه بشأنها. ويرجع الفضل في ظهور تلك الحفريات إلى النور إلى إعادة تحقيق وبحث أرشيف المتحف في عام **1985**." اهـ

وهذا الانفجار يهدم القول بالتطور، إلا أن أنصار النظرية يتعامون عنه، وعلقت "المجلة العلمية الأمريكية" في عدد أغسطس 1964 على هذه المسألة، قائلة: "إن علماء الأحياء يمرون، أحيانا، ساكتين عن ذكر الظهور المفاجئ والتركيب الكامل لحياة الحيوان، بينما هما الصفتان المميزتان للفترة الكامبريانية، كما أن الأبحاث الأخيرة التي تمت عن طريق المستحاثات قد دلت على أنه من الصعب التغاضي عن اللغز، الذي يطرحه الظهور المفاجئ للكائنات الحية كثيرة الخلايا .. ولم تكن هذه الكائنات بدائية ولا بسيطة التركيب، بل كانت كائنات معقدة التركيب تعود في ظاهرها إلى الأنواع الكبيرة المعروفة في عالم الحيوان، وهي مختلفة بعضها عن البعض الآخر ومصنفة في أيامنا هذه في عداد كثيرة الخلايا، (...) ويمكن بكل جدية، وصف ظهور الحيوانات الإقليمية لفترة الكامبرينية الدنيا بأنه ظهور مفاجئ[29]" اهـ

4- إشكالية توقف التطور

الناظر في الكائنات الحية الموجودة على سطح البرية يجد ملايين الثدييات والطيور والأسماك والبرمائيات والزواحف والحشرات. ومن المفترض أن هذه الكائنات تطورت من بعضها البعض عبر مئات ملايين السنين. أي أن عملية ظهور الكائنات الحية، أو انتقالها من شكل لآخر عملية مستمرة، بمتوسط ظهور كائن حي أو تحوره كل بضعة أشهر –وفي هذا تسامح كبير، فمن المفترض أن تكون كل بضعة ساعات، ولكنا نتسامح حتى لا نعطي المعارضين فرصة للجدال–، وهذا لا يحدث لا الآن ولا منذ ما يزيد عن ألفي سنة!

فلماذا توقف التطور؟! هل وضعت الطبيعة العمياء حداً للتطور ينتهي عنده، وهو مع أو قرب اكتشاف نظرية التطور؟! ولا يقدم التطوريون أي رد علمي على مسألة توقف

[29] خلق لا تطور، تأليف فريق من العلماء، تعريب: إحسان حقي. ص: 52

التطور هذه، وإنما يقدمون احتمالات وتخمينات! لذلك وجدنا أن بعض التطوريين قالوا أن التطور قد توقف في زماننا هذا!

ولا عزاء لداروين!

5- إشكالية التطور وظهور الحياة

إن أكبر إشكالية يواجهها التطور، هو وقوع التطور نفسه! فإذا كانت آلية التطور صدفوية بدون "تصميم ذكي"، فمن المستحيل عقلاً وفيزيائيا أن تنتج الصدفة أو الطفرة شيئا نافعا، فمن المعلوم أن الزمن عامل هدم لا بناء، فلم يحدث أبدا –ولن يحدث– أن تحسن شيء مهجور، وإنما يزداد سوء واضمحلالا! وانظر في كل ما حولك تجد هذه القاعدة صادقة، تصدق على الطبيعة كما تصدق على الجمادات! فلماذا نقبل حدوثها في الماضي البعيد؟!

فإذا تركنا قطعة لحم أو فاكهة فسرعان ما يدب فيها العطن، ولو تركنا كرسيا أو مائدة بدون عناية لمدة بعض سنوات، فستتراكم الأتربة على هذه المائدة وقد تتفسخ وتتشقق! ولن يحدث أبدا أن تنتج هذا المائدة لوحا زجاجيا يحميها من حرارة الشمس! ولن تنتج يوما "مفرشا" تزين به نفسها!

إن حدوث تطور بالصدفة، يؤدي دوما إلى التحسن، مستحيلٌ فيزيائيا! ويعلق أورخان محمد علي على هذه المسألة، فيقول: "نحن نقول بأن الأمور التلقائية تسير نحو التدهور ونحو التحلل والتفكك، ولا نقصد الأمور التي يتدخل فيها الذكاء والتدبير والإرادة الواعية. فالماء يجري نحو الأسفل بشكل تلقائي على الدوام، ولا يمكن صعوده تلقائيا نحو الأعلى. ولكننا نستطيع دفع الماء إلى أعلى، إن استخدمنا تدابير معينة (كاستخدام مضخة مثلا). هنا لم تعد العملية عملية تلقائية، بل عملية تدخل فيها الذكاء الإنساني والإرادة الإنسانية من أجل تحقيق هدف معين. كذلك يستطيع

الإنسان أن ينشىء من الرمل والحصى والسمنت والخشب والحديد والألمنيوم بناية جميلة ... هذا ممكن، ولكن يستحيل أن يتمكن الحصى والرمل والخشب والألمنيوم أن يتجمع تلقائيا فتنشأ من تجمع هذه المواد بناية بشكل تلقائي أو عن طريق المصادفات العشوائية. وعملية نمو النباتات والأشجار ترينا الشيء نفسه، إذ ما كان لهذه العملية أن تتم لولا وجود جهاز معقد جدا، وهو البرمجة المعقدة والراقية جدا الموجودة في البذرة. وفي غياب هذه البرمجة المعقدة والدقيقة لا يمكن أن ينبت أي نبات، فنمو النباتات ليس شيئا عشوائيا ولا أمرا تلقائيا. وهذه البرمجة المعقدة والموضوعة لتحقيق هدف معين لم ينشأ ولا يمكن أن ينشأ تلقائيا أو عشوائيا حسب هذا القانون نفسه (أي حسب القانون الثاني للديناميكا الحرارية) لأن هذا القانون يقول باستحالة تحول الفوضى إلى نظام. وقس على ذلك جميع الحوادث التي يظهر فيها ازدياد النظام[30]" اهـ

وعلى الرغم من تهافت القول بالصدفوية، إلا أن أنصار التطور يصرون على أن الصدفة والطفرات، كانت تتجه إلى التحسين، وتكمل ما حورته الصدفة أو الطفرات السابقة، وهكذا استمرت الصدف والطفرات في طريق معلوم للطبيعة العمياء! إلى أن وصلت إلى شكل مقبول فقررت الطبيعة بالصدفة التوقف عن التطوير والتحوير!

ولأن الحديث حول وقوع هذا التطور بالصدفة يُعد من العبث عقلا ومنطقا، لذا فإننا لن ندخل ذلك الجدال حول إمكانية تكون جزيء بروتين واحد، ناهيك عن تكون خلية بالصدفة من مكونات الأرض! ففي هذا إهانة للعقل والمنطق! ولأنك إذا خاطبت الملاحدة العباقرة وقلت أن نسبة وقوع هذا الأمر واحد إلى رقم تضع أمامه أصفار إلى نهاية العمر، فسيقول لك: ولكنه وقع وحدث فعلا! لذا فإننا سنعرض لنقطة واحدة تغلق مسألة تكون الكائنات بالصدفة، بعيدا عن الحسابات الرياضية، التي قد لا يستطيع كثيرون تصورها: أيهما نشأ أولا: الخلية أم الحمض؟

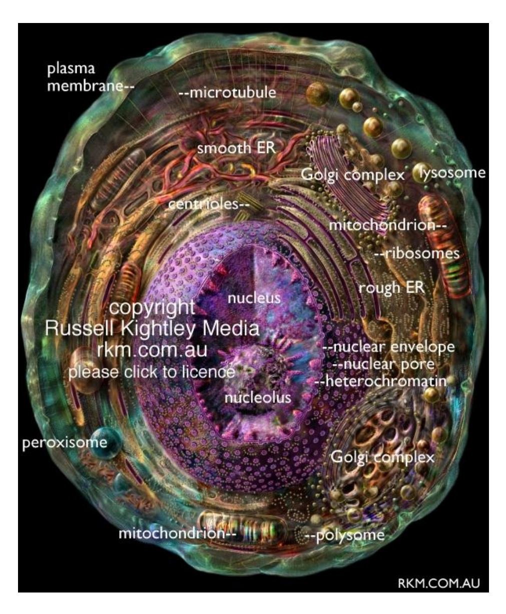
---

(30) أورخان محمد علي، مناقضة علم الفيزياء لفرضية التطور، ص. 42.

والقانون الثاني للديناميكا الحرارية هو مبدأ الإنتروبية أو ازدياد التبعثر والفوضى، أي أن الجملة المادية تنتقل من حالة الانتظام إلى حالة أكثر تشتتاً وبعثرة ولا يمكن أن يحدث العكس.

ونوضح فنقول: من المعلوم أن الكائنات الحية تتكون جميعها من وحدة بناء تُسمى الخلية، ونحن نعلم أن الخلية تحتوي دي إن إيه و آر إن إيه، والتطوريون يقولون أن الأحماض الأمينية، والتي تمثل الجزيئات الرئيسة ل دي إن ايه[31] و آر إن إيه، تكونت أولا! والسؤال هو: هل قامت الأحماض الأمينية بتكوين ال آر إن إيه أولا ثم تكونت الخلية حولها، أم أن الأحماض الأمينية كونت الخلية أولا، ثم تكونت ال دي إن إيه و آر إن إيه بعد ذلك داخل الخلية؟!

لو قبلنا الاحتمال الآول فإن هذا يعني أن آر إن إيه كان في الطبيعة من غير أن يكون محتَويا داخل شيء! وهنا تظهر إشكالية كبرى، وهي كيف انتقلت الأوامر من الأحماض النووية لتكوين مواد الخلية حولها؟ هل انتقلت الأوامر بلا وسائط في الهواء! فاستقبلتها عناصر الطبيعة، فكونت البروتينات وغيرها حولها، لتكون خلية؟!! وإذا قبلنا بالاحتمال الثاني، فكيف تكونت الخلية الشديدة التعقيد بدون توجيه أو تنظيم؟!



صورة للخلية التي يفترض أنها نشأت بالصدفة!

[31] **DNA** هو حمض نووي يحتوي على التعليمات الجينية التي تصف التطور البيولوجي للكائنات الحية ومعظم الفيروسات. ووظيفة الدنا هي خزن المعلومات الضرورية لبناء جزيئات البروتين الضرورية لانقسام ونمو الخلية.

إشكاليات أخرى

بخلاف تلك الإشكاليات المطروحة، فهناك الكثير والكثير من الإشكاليات، التي لو فصّلنا الحديث فيها، فسنحتاج إلى تسويد كثير من الصفحات، لذا سنذكرها في عجالة إجمالا، ليعرف القارئ كم هي كثيرة وقوية تلك الإشكاليات:

1- إشكالية ظهور الحشرات والقوارض:

تقوم نظرية التطور على خروج الأجناس من أجناس سابقة لها أقل تطورا، وهكذا رجوعا إلى الخلية الأولى. فما هو الجنس السابق للحشرات، والذي خرجت منه؟ لا يجدون حتى الآن جنسا ينسبون الحشرات إليه في سلم التطور؟ على الرغم من أن الحشرات تمثل ما يزيد عن ثلاثة أرباع الحيوانات؟ لذا فهم يقولون أن الحشرات ظهرت فجأة في عالم الحيوان!!

وكما قابلتهم إشكالية مع الحشرات قابلتهم مع القوارض، فلم يقدموا شجرة تطور القوارض، على الرغم من أن أعدادها أكثر من أعداد الثدييات الأخرى.

2- إشكالية الطيران:

من المعلوم أن هناك ثلاثة أصناف من الحيوانات الطائرة: الطيور، الحشرات، بعض اللبائن مثل الخفاش، ولا تقدم نظرية التطور إجابة لكيفية ظهور الطيران، اللهم إلا إذا عددنا قولهم بأن الديناصور نبت له أجنحة أثناء جريه خلف الذباب، قولا معقولا!!

ولست أدري خلف ماذا كان يعدو الذباب حتى نبت له أجنحة؟!

3- إشكالية ثبات الصفات الوراثية:

الناظر في البشر يجد أن هناك أربعة أعراق رئيسة، هي: الأبيض والأصفر والأحمر والأسود، (قد ينشأ من التزواج بين الأعراق هجين، ولكن هذا الهجين ليس أصلا)،

ولا دور للبيئة في هذه الألوان، فعلى الرغم من مرور أكثر من مائتي عام على إقامة عدة أعراق في الولايات المتحدة الأمريكية، من زنوج وصينين ويابنيين وغيرهم، لم تتغير صفات هذه الأجيال، وبقيت الأجيال تنقل نفس الصفات، فيولد الزنجي مثلا بأنف كبيرة وبشرة سوداء، على الرغم من عدم احتياجه إليهما في الطقس البارد للولايات المتحدة أو أوروبا!

وكذلك استمرت صفات الجنس الأصفر كما هي بدون أي تغير! فلماذا لا تتغير الصفات لتتوافق مع البيئة الجديدة؟!

4- إشكالية عدم معرفة آلية التطور:

قدّم التطوريون آليات عديدة للتطور، وكلما تكثر الانتقادات وتعظم نقاط الضعف، يتحولون إلى غيرها، والتي يقولون بها تخمينا وليس استنادا إلى دليل! فقديما قالوا أن الصفات المكتسبة تُورث! ولم يحدث أن رأينا يهوديا يولد مختونا[32]! ثم قالوا بالانتخاب الطبيعي، على الرغم من أن الانتخاب الطبيعي ينتقي من الخصائص الموجودة، لا أنه ينشأ صفات جديدة! ثم قالوا بالطفرات، على الرغم من أن الطفرات لا تبني، وإنما تدمر وتهدم وتشوه، وهكذا يتم التنقل من آلية إلى أخرى، فالمهم هو الحفاظ على النظرية، فإذا سقطت آلية اختُرعت أخرى!

تزييفات التطوريين

نظراً للنقص الحاد في الأدلة التي تدعم النظرية، ولأنها قامت على تصورات وتخمينات، ولأن عامة المؤمنين بها وقعوا بين المطرقة والسندان، فإما أن يثبتوها أو يكون عليهم الاعتراف بالتصور التوراتي!! -وهم يرفضون الإيمان أصلا- ولأن

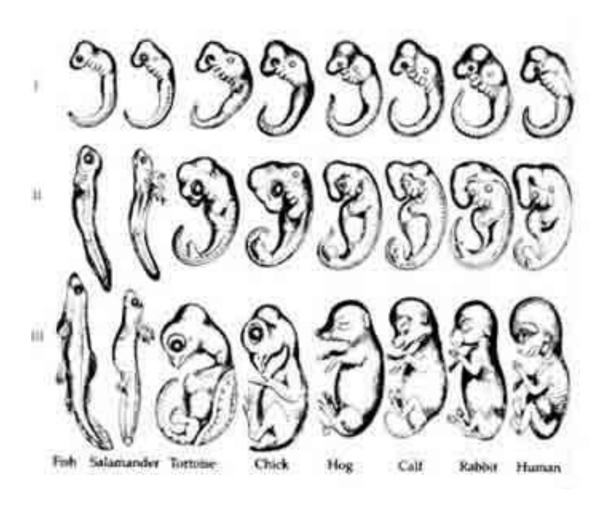
[32] اليهود أكثر الأجناس انغلاقا، وتمسكا بالعادات، وهم يختنون منذ آلاف السنين، -حتى لا يدعي أنصار التطور أن مئات السنين غير كافية-، وعلى الرغم من ذلك يولدون مثل كل البشر بقلفات!

الأخلاق عند غير المؤمن نسبية وليست ثابتة! وجدنا الكثير والكثير من التزييفات والرسومات المتخيلة، التي لا تعتمد على أصل سليم، من أجل تدعيم هذه النظرية، وإظهارها بمظهر الحقيقة العلمية!

وبفضل هذه الرسومات والتزييفات صدّق كثيرٌ من العوام الغربيين بهذه النظرية! وأصبح المجادل فيها مجادل بالباطل! لذا سنقدم للقارئ الكريم نماذج قليلة من هذه التزييفات، ليعرف كيف تُصبغ النظريات بصبغة الحقيقة، وهي أبعد ما يكون عن ذلك.

1- تزييفات صور الأجنة

كان من أهم أدلة أنصار التطور في بدايات القرن العشرين تلك النظرية التي قدمها العالم الألماني إرنست هيجل (1824–1919) وسمّاها القانون البيوجيني، والتي اشتهرت ب (نظرية التلخيص Recapitulation Theory)، والتي ملخصها أن التشابه الظاهري الموجود في المراحل الجنينية لبعض الحيوانات يشير إلى كون هذه الحيوانات من أصل واحد، وأن هذه المراحل الجنينية تُلخص تاريخ تطوري الكائنات بما فيها الإنسان. ولقد قدم هيجل رسومات لأجنة مختلفة في ثلاثة مراحل، لكي يثبت ذلك التشابه الواضح بين أجنة كل الحيوانات في تلك المراحل:



فرسم مراحل التطور لتسعة أنواع –من بينها الإنسان– في ثلاثة مراحل جنينية، ليقول أن الأجنة الحية تعيد معايشة العملية التطورية التي مر بها أسلافها. وتقول نظريته أن الأجنّة أثناء نموها في الأرحام تُظهر أولاً صفات الأسماك، ثم صفات الزواحف، ثم في النهاية صفات البشر. وقد نشأ عن هذه الفرضية الادعاء بأنه تنمو للجنين "خياشيم" أثناء نموه في رحم أمه!

وقد بيّنت الدراسات العلمية اللاحقة أن مبدأ التلخيص ليس له مستند، إلا خيالات أنصار التطور والتحريفات المتعمدة للحقائق، فمن المعروف الآن أن "الخياشيم" التي يُفترض أنها تظهر في المراحل المبكرة من نمو الجنين البشري هي في الواقع المراحل الأولية لتكوُّن قناة الأذن الوسطى، والغدة جَنْب الدرقية، وأمّا الجزء الذي عرَّفه هيجل وأتباعه على أنه "ذيل" فهو في الواقع العمود الفقري، الذي يشبه الذيل لا لشيء إلا لأنه يتشكل قبل الأرجل!

ولقد اكتشف الدكتور (بر آس) هذا التزوير، وكتب مقالة في جريدة، متحديًا "أرنست هيجل" وداعيًا له للاعتراف بما قام به من تزوير. وانتظرت الأوساط العلمية رد هيجل. وبعد قرابة الشهر كتب هيجل بتاريخ **1908/12/14**م مقالة تحت عنوان (تزوير صور الأجنة) اعترف فيها بعملية التزوير التي قام بها، حيث قال: "إنني أعترف رسميًّا – حسمًا للجدال في هذه المسألة– أن عددًا قليلاً من صور الأجنة نحو ستة في المائة أو ثمانية موضوع أو مزور!" ثم قال: كان علي بعد الاعتراف بهذا التزوير أن أعد نفسي مداناً ومنتهيا، لولا أنني أجد العزاء في أن أرى إلى جانبي في قفص الاتهام مئات من الجناة، بينهم كثيرٌ من الباحثين، الذين يحظون بأكبر قدر من الثقة وعلماء الأحياء المرموقين. وإذ ذاك، فإن الغالبية العظمى من الرسوم الموجودة في أفضل مراجع علم الأحياء وأبحاثه ومجلاته ستكون مستحقة أن تتهم بالتزوير بنفس القدر، إذ أنها جميعا غير دقيقة وتم تعديلها بصور أو أخرى". اهـ

وهذا الاعتراف قاصمة ظهر للتطوريين، فالرجل من كبارهم ويعرف خباياهم، وكيف أنهم كانوا يوجهون الرسومات من أجل تأييد نظريتهم! وليس الأمر مقتصراً على هيجل، فلقد اعترف بعض كبار الداروينيين بهذا التزييف، مثل جورج جايلورد سمبسون، أحد أهم مؤسسي الداروينية الجديدة!

ولقد لاحظ بعض الباحثين في النصف الثاني من التسعينيات أن تزييف هيجل لم يقتصر على إضافة أو حذف سمات، وإنما تلاعب أيضا في المقاييس ليضخم أوجه التشابه بين الأنواع، حتى وإن بلغت الاختلافات في الحجم 10 أضعاف. كما عمل على إهمال تسمية الأنواع في معظم الحالات، حتى يبدو الأمر وكأن حيوانا واحدا يمثل بدقة مجموعة الحيوانات بأكملها.

وعلى الرغم من أن الأوساط العلمية قد نبذت هذه النظرية منذ سنوات عديدة، إلا أن هناك في عالمنا العربي من لا يزال يقدمها –غالباً، عن جهل بسقوطها!– كدليل على التطور!

2– تزييف إنسان نبراسكا

من التزييفات الكبرى التي قُدمت كدليل على التطور إنسان نبراسكا، والذي صار فضيحة كبرى، ويحكي لنا هارون يحيى قصة هذا الإنسان، فيقول: "في سنة 1922 أعلن هنري فيرفيلد أوسبرن، مدير المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي عن عثوره على ضرس متحجرة في غرب نبراسكا، بالقرب من سنيك بروك، يعود إلى العصر البليوسيني.

وزعم البعض أن هذا الضرس يحمل صفاتا مشتركة بين كل من الإنسان والقرد، وبدأت مناقشات علمية عميقة فسّر فيها البعض هذا الضرس على أنه يعود إلى إنسان جاوة منتصب القامة (Pithecanthropus erectus)، في حين ادعى البعض الآخر أنه

أقرب إلى أضراس الإنسان. وقد أُطلق على هذه الحفرية، التي أحدثت جدالاً مكثفاً، اسم إنسان نبراسكا، كما أُعطيت –في الحال– اسماً علمياً هو: هسبيروبايثيكوس هارولدكوك (Hesperopithecus haroldcooki) وأبدى العديد من الخبراء تأييدهم لأوسبرن.

واستناداً إلى هذا الضرس الأوحد رُسمت إعادة بناء لرأس إنسان نبراسكا وجسده. وأكثر من هذا، فقد تم حتى رسم إنسان نبراسكا مع زوجته وأطفاله في شكل عائلة كاملة في محيط طبيعي! وقد وُضعت كل هذه السيناريوهات من ضرس واحد فقط!

وأجازت الأوساط التطورية هذا الإنسان الشبح، لدرجة أنه عندما قام باحث يدعى ويأتيام بريان بالاعتراض على هذه القرارات المتحيزة، القائمة على ضرس أوحد، تعرض لانتقاد شديد! وفي سنة 1927 عُثر على أجزاء أخرى من الهيكل العظمي لإنسان نبراسكا. ووفقاً لهذه الأجزاء المكتشفة حديثاً، لم يكن الضرس يخص لا إنساناً ولا قرداً. وأدرك الجميع أنه يخص نوعاً منقرضاً من الخنازير الأمريكية البرية يسمى (prosthennops)[33]"اهـ



الصورة الموضحة هنا تم رسمها بناء على سن واحدة ونشرت في مجلة أخبار لندن للصورة (Illustrated London News) في 24 يوليو 1922 . ولكن خاب ظن دعاة التطور إلى أقصى حد عندما تم الكشف عن أن تلك السن لا تنتمي إلى مخلوق شبيه بالقرد ولا إلى إنسان، بل تنتمي -بالأحرى- إلى نوع منقرض من الخنازير!

(33) هارون يحيى، خديعة التطور، ص. 72، 73.

4- تزييف إنسان بلتداون.

في عام 1912م قدِم تشالز دافسون، أحد هواة التنقيب عن الآثار إلى المتحف البريطاني، وقدّم قطعًا من جمجمة، قال إنه اكتشفها عام 1908م في إحدى الحفريات في "بلتداون" قرب مدينة: "سوساك". وكانت الجمجمة تبدو غريبة جدا؛ فالقحف يبدو وكأنه يعود لجمجمة إنسان، أما الفك فيشبه فك قرد أورانجتون، أما الأسنان فكانت شبيهة بأسنان إنسان. ومع أن مكان اتصال الفك بالقحف كان مكسورًا، وبالتالي فمن غير المعلوم إذا ما كان هذا الفك يعود لهذه الجمجمة أم لا! إلا أن التطوريين أصروا على كونه يعود إليها، وأطلقوا عليها اسم رجل بلتداون (Piltdown Man).

ولم يلتفت أحدٌ إلى الاحتمال الذي طُرح في اجتماع الجيولوجيين المنعقد في لندن في عام 1912م، والذي قال باحتمالية كون هذه العظام عائدة إلى مخلوقات عديدة وليس إلى مخلوق واحد.

وسُيج هذا الاكتشاف بسياج من الإرهاب الفكري، حتى أن اعتراض عالم التشريح الألماني الشهير "فرانز فيدنريش (1873 – 1948) بعد ثمان وعشرين سنة (عام 1940)، والذي قال فيه: (يجب حذف "إنسان بلتداون" من سجل المتحجرات؛ لأنه ليس إلا عبارة عن تركيب اصطناعي بين جمجمة إنسان وفك قرد الأورانج ووضع أسنان في هذا الفك بشكل اصطناعي)، لم يُلتفت إليه وقوبل بانتقادات عديدة!

واستمر هذا التزييف بدون انكشاف حتى كشفه ""كنيث أوكلي" في عام 1949، عندما أجرى اختبار الفلور على الجمجمة لتحديد عمرها، وكانت النتيجة المذهلة أنها ليست قديمة بالدرجة المذكورة. ثم أجريت تجارب أكثر دقة فيما بعد، بيّنت نتائجها أن العظام تعود لعصرنا الحالي!

وعندما وُضعت العظام في محلول حامض اختفت البقع الموجودة عليها، وظهر أنها لم تكن نتيجة بقائها تحت التراب لمدة طويلة، وإنما أُحدثت اصطناعيًّا للإيهام بأنها قديمة. وعندما فُحص الفك والأسنان بالمجهر رأوا أن الأسنان ما هي إلا أسنان إنسانية غُرست في الفك وبردت بالمبرد.

وفي عام 1953 أُعلن التزوير رسميا، بأنها عملية تزوير لم تكن بالمهارة الكافية، وعلى الرغم من ذلك لم يكتشفها العلماء حينها!!

وبخلاف هذه التزييفات المذكورة، وقع الكثير والكثير من التزييفات، منها ما اكتُشف ومنها ما لمّا يُكتشف، ونذكر للقارئ بعض عناوين للتزييفات، والتي يستطيع الوصول إليها بسهول عبر الشبكة المعلوماتية: إنسان جاوا! فضيحة سمكة Coelacanth، فضيحة الديناصور الطائر، إنسان "النياندرتال Neanderthal man"، أكذوبة لوسي! وستقوده هذه العناوين إلى فضائح وتزييفات أخرى!

ومن ضمن التزييفات التي قام بها التطوريون تلك الهالة من القداسة التي أنشأوها حول النظرية، فجعلوها مقدسا مثل المقدسات الدينية، بل أعلى لأن الأديان خرافة! وعلى كل عالم يرغب في الوصول أن يعترف ويقر بالنظرية، وإلا فإنه ليس بصاحب تفكير علمي!

وهكذا يضطر كثيرون للمجاراة ولا يجدون الإمكانية متاحة لإظهار ما تُكن صدورهم! فيظهر للإنسان العادي أن النظرية أصبحت من المسلّمات! ويعلق عدنان أوكتار على هذه الهالة المزيفة والدعاية الكاذبة، فيقول: "إن الدعاية الخاصة بنظرية التطور التي نراها باستمرار في الوسائل الإعلامية الغربية المشهورة وفي المجلات العلمية العريقة، ما هي إلا ثمرة لهذه الضرورة الأيدلوجية، فحيث إن التطور أصبح يُعد من الأشياء التي لا يمكن التخلي عنها، فقد حولته الدوائر التي تقرر مقاييس العلم إلى أحد المقدسات التي لا يجوز مناقشتها. هناك علماء يجدون أنفسهم مضطرين للدفاع عن هذه النظرية البالغة الغرابة، أو على الأقل يتحاشون التفوه بكلمات ضدها، للحفاظ على مركزهم

العلمي. إن الأكاديميين في الدول الغربية مضطرون لنشر مقالاتهم في مجلات علمية معينة للحصول على درجة الأستاذية، والمجلات التي تُعنى بعلم الأحياء كلها تحت سيطرة حماة التطور، الذين لا يسمحون بنشر مقال واحد معارض لنظرية التطور في مجلاتهم، ومن ثم فكل عالم أحياء عليه أن يقوم بدراساته تحت هيمنة هذه النظرية[34]." اهـ

فليس جو الإرهاب الفكري واضطهاد المخالف مما تفرد به العرب أو بعض الإسلاميين، وإنما هي ظاهرة عامة عند كل من يجد في منظومته ضعفا وعورا، ولا يجد القدرة على الدفاع إلا بمحاصرة أفكار المخالفين ورميهم بكذا وكذا وتضليلهم، ودعوة الناس إلى عدم سماعهم، ظناً منه بذلك أنه يُسدي إلى الناس خيرا ويدافع عن الحق!

4- الرسومات المتخيلة

من أهم العوامل التي ساعدت على ترسيخ نظرية التطور في الغرب عند العوام وبكل أسف، مجموعة من الرسومات المتخيلة! رسومات وضعها التطوريون ليؤكدوا بها تصوراتهم! وقُدمت هذه الرسومات بغزارة وامتلأت الكتب والمجلات العلمية بها، حتى أن كثيرا من غير المتخصصين يظنون أن هذه الرسومات ما هي إلا إسقاط للواقع رسما على صفحات! فهم يرسمون ما وجدته البعثات العلمية المنقبة!

ويجهل عامة القراء أن هذه الأكثرية الساحقة من هذه الرسومات متخيلة، ومستند الراسمين فيها بسيط، قد يكون سن أو فك أو عظمة! وعلى أساس هذا الأثر البسيط، تُرسم الرسومات المؤكدة للتطور! ولو قارنا الأعداد الهائلة من الرسومات المقدمة بالحفريات المكتشفة، لاتضح الفارق الهائل بينهما، وأن العلماء يرسمون لتأكيد ما اعتقدوا صحته مسبقا.

---

[34] عدنان أوكتار، أطلس الخلق، ص. 734.

فإذا علمنا أن عالم الأنتروبولوجيا الشهير "ريتشارد ليكي" قال في إحدى المرات: "إذا جمعنا في غرفة واحدة كل المستحاثات والبقايا المتحجّرة، التي تم اكتشافها حتى الآن حول أسلافنا (وأقربائهم البيواوجية)، الذين عاشوا في الماضي البعيد، لنفترض، بين 5 مليون وواحد مليون سنة مضت، فسوف لا نحتاج أكثر من طاولتين لتحويها جميعاً.. معظم المستحاثات شبه البشرية هي عبارة عن كسرات من الأسنان وأجزاء من الجماجم ..." اهـ

ويعلق هارون يحيى على هذه المسألة، فيقول: "قبل أن نخوض في تفاصيل خرافة تطور الإنسان، يجدر بنا التذكير بالأسلوب الدعائي الذي أقنع العامة بفكرة أن كائنات نصفها قرد ونصفها إنسان قد عاشت في الماضي. ويعمد هذا الأسلوب الدعائي إلى استخدام إعادة البناء فيما ينسبه إلى المتحجرات. ويمكن أن نشرح إعادة البناء على أنها رسم صورة لكائن حي أو بناء نموذج له استنادا إلى عظمة واحدة (وفي بعض الأحيان إلى جزء من عظمة) تم استخراجها من باطن الأرض.

ويعتبر كل الرجال القردة الذين نشاهدهم في الصحف والمجلات والأفلام مجرد أمثلة على إعادة البناء. وبما أن المتحجرات عادة ما تكون ناقصة وفي حالة من الفوضى، فإن أي تصور يستند إليها يرجح أن يكون تخمينا محضا. وفي الواقع، يقوم دعاة التطور بتجهيز إعادات البناء (الرسوم أو النماذج) استنادا إلى بقايا المتحجرات باستخدام التخمين، وذلك فقط من أجل إثبات فرضية التطور.

ويؤكد أحد علماء الأنثروبولوجيا من جامعة هارفارد، "ديفيد بيلبيم"، هذه الحقيقة بقوله: على الأقل في علم المتحجرات الذي هو ساحتي واختصاصي، فإن النظرية – أي نظرية التطور– وُضعت على أساس تأويلات معينة أكثر من وضعها على أساس من المعطيات والأدلة الفعلية، وبما أن الناس يتأثرون بشدة بالمعلومات المرئية، فإن

إعادات البناء هذه تخدم على أكمل وجه غرض دعاة التطور المتمثل في إقناع الناس، بأن هذه المخلوقات المعاد بناؤها قد عاشت فعليا في الماضي[35]." اهـ

لهذا ينبغي على القارئ أن يعي جيدا أن نسبة كبيرة من إعادة البناء التي يقوم بها التطوريون هي متخيلة ولا أثر لها في الحفريات! فالشعر الكثيف الذي يتعمدون إضافته إلى التركيبات لا أثر له في الحفريات، ولكن لا بد من إضافته حتى يبدو الإنسان القديم أقرب إلى القرد! كما يعملون على رسم الأنف والشفاة والحواجب بشكل مخالف، حتى يدعم نظرية التطور، والواقع يقول أن هذه الرسومات كلها تخيلات! ومما يدلل على ذلك، هو الصورة القادمة، والتي سيرى القارئ فيها إعادات لتركيب نفس الجمجمة، ليعرف إلى أي حد يتخيل التطوريون!

ثلاث إعادات تركيب لنفس الجمجمة



بل قد يصل الخيال بالتطوريين إلى إعادة بناء كامل للإنسان عن طريق سن واحدة، – وما إنسان نبراسكا ببعيد– أو عظمة! وعلى أساس هذه العظمة يُرسم الإنسان، ويُتخيل له بيئة يعيش فيها! وكل هذا من عظمة واحدة!

كم هم عباقرة وألمعيون هؤلاء التطوريون!

وسيرى القارئ الكريم في الصورة القادمة نموذجا لما نقول به، حيث رسم أنصار التطور صورة لإنسان وزوجه والبيئة، التي يعيش فيها، من خلال عظمتي فك فقط!

---

[35] هارون يحيى، خديعة التطور، 67،68.

ولست أدري حقا لم لا يتجه الداروينيون إلى كتابة أفلام الخبال العلمي! وكلي ثقة أن أفلامهم ستلاقي نجاحا فائقا!



في المتحجرة الأولى لـ راماباپيثيكس تم العثور على فك مفقود مكون من جزأين (كما يظهر في طرف الصورة). وقد قام دعاة التطور –بكل جرأة– بتصوير الراماباپيثيكس، وعائلته، والبيئة التي عاشوا فيها، بالاعتماد فقط على عظمتي الفك هاتين!

كما قام التطوريون بسد الثغرات الموجودة في النظرية بواسطة الرسومات المتخيلة، فقاموا بتقديم بعض الرسومات التي تصور خروج بعض الأسماك إلى اليابسة!! ورسومات أخرى تظهر نزول بعض الحيوانات البرية إلى الماء!! كما قدموا الكثير والكثير من الرسومات الافتراضية، التي تبين هيئة الأشكال الانتقالية!

وسيرى القارئ الكريم في الصورة القادمة عينة من الرسومات المتخيلة، والتي قدّموا فيها تصورا للمراحل الانتقالية، التي أخذتها نجمة البحر حتى تحولت إلى سمكة!



في الرسم أعلاه يظهر ما يطلق عليه تحول نجمة البحر إلى سمكة وهو تلفيق محض. هناك العديد من متحجرات نجم البحر والأسماك بأشكالها التي تظهر في المخطط أعلاه، في حين أن الشكل الذي يُظهر المخلوق الخيالي نصف سمكة ونصف نجمة بحر، هو رسم فحسب. هذه الرسومات التي تظهر الأشكال الانتقالية المفقودة لم يظهر عليها أي دليل في سجل المتحجرات.

وهكذا أصبحت الرسومات المتخيلة، والتي لا تكلف شيئا، ولا رقيب عليها، ولا يمكن وصفها ولا وصف صاحبها بالتزوير، -لأن الكل يقر أنها متخيلة، ولكلٍ أن يريه خياله ما يحب، فإذا انتُقدت عُدلت!- أصبحت أفضل أداة لنشر النظرية بين العوام، ولا تكلف التطوريين إلا قليلا من الحبر، يُسوَّد به صفحات الكتب والمجلات، وعلى القارئ أن يتقبل، فليس لديه بديل إلا التصور التوراتي العجيب!

لماذا نرفض نظرية التطور؟

تقبّل بعض المسلمين نظرية التطور، ولم ير فيها تعارضا مع القرآن، بل ورأى بعضهم أن القرآن أشار إلى التطور وأيده!! والحق يقال أن القرآن أشار إلى الأطوار ولم يتحدث عن تطور! وسيرى القارئ الفارق الكبير بين التصورين، اللذين يتشابهان في المبنى!

فإذا غضضنا الطرف عن تعارضها مع القرآن الكريم، فإن بناء النظرية يحمل في طياتها ما يحمل الإنسان المفكر على رفضها والجزم بخللها! فبغض النظر عن الشطحات الكثيرة اللامنطقية الموجودة في النظرية، فإن المرء يجد بعض المواطن، التي تدفعه للشك في عقول هؤلاء المؤمنين بها، والجزم بأنهم مجموعة من البلهاء، وبتقدير: "أبله جدا مع مرتبة الشرف"!

وحتى لا يظن بعض القراء أننا نبالغ أو نسم هؤلاء العلماء!!! بوسم شديد، نذكر عينة بسيطة مما هو موجود في هذه النظرية: يقول التطوريون أن الحياة بدأت في البحر، ثم شعرت بعض الأسماك بحاجتها إلى الانتقال من الماء إلى اليابسة! وهكذا أصبحت برمائيات! ثم تحولت البرمائيات إلى زواحف!

ويحك المرء رأسه حيرة من بلاهة هؤلاء الأشخاص! فبغض النظر عن أن لكل حيوان غريزة (برنامج ثابت) وأنه لا يستطيع التفكير ولا مخالفة غرائزه، فإن السؤال الذي

يجب أن يطرحه أي إنسان شبه مفكر: كيف خرجت الأسماك من البحر ولم تهلك، ثم انتقلت هذه السمات إلى الأجيال التالية لها؟! من المعلوم –بداهة– أنه لو ظلت الأسماك تخرج لمليارات السنين من البحر فإنها ستهلك! ولن يحدث أبدا أن تعيش بعض الأسماك لكي تتناسل وتنقل صفاتها لما بعدها!!

والقارئ يرى بعينه أنه إذا أخرج أي سمكة من الماء، وكان الماء بالقرب منها فإنها تعاني، محاولةً الرجوعِ إلى الماء! فماذا حدث لأسماك ذلك الجيل حتى قررت الخروجِ من الماء؟! وكيف ظلت حية تسعى! وكيف تناسلت على البر؟!

وبمثل هذه البلاهة نجدهم يقولون أن بعض الحيوانات قررت الانتقال للعيش في الماء، ومع مرور الأجيال تحولت إلى حيوانات بحرية! ومن المعلوم أن الكائن البري لو ظل ينزل الماء طيلة عمره ليصطاد من الماء فلن يستطيع أبدا أن يظل تحت الماء وإلا هلك! فكيف استطاع جيل من الحيوانات أن يكتسب تلك الصفات ثم ينقلها إلى ما بعده؟!

إن المشاهَد، والذي سجله التاريخ البشري منذ آلاف السنين، يبين أن الطباع الحيوانية كما هي لم ولن تتغير! فسيظل النمر يأكل الغزالة كحيوان لاحم، وسيظل الفيل حيوانا عاشب! ولن يحدث أبدا أن تغير حيوانات طباعها ولا غرائزها! إلا أن الداروينيون يصرون وبكل عجب أن هذا حدث مرة واحدة في الزمن الغابر ولن تتكرر، وبشكلٍ –المادة!!– وحدها أعلم به، .. وعجبي!!

فإذا غضضنا الطرف عن الشطح الذي يصل إلى درجة البله في النظرية، وجدنا أن النظرية قائمة على محور رئيس وهو رفض الميتافزيقي (ما وراء الطبيعة) أي أنها نظرية مادية صرفة، تفضل القول بالصدفة، المصادمة للعقل وللمنطق وللفيزياء والرياضيات، على الاعتراف بخالق مدبر!

ويصل الأمر إلى افتراض شطحات بلهاء لقبول النظرية، فمن ذلك، أنه لما واجهت التطوريين إشكاليةُ ظهور الحياة في الجمادات، وكيف أنه من غير المقبول أن تتطور الجمادات إلى أن تنشأ فيها الحياة، افترض أحدهم افتراضا غريباً جدا –لم يحل الإشكال–، ويحكي البروفيسور باول لوث هذا الاقتراح: "أليس من الجائز أن يكون كل شيء قد حدث خلافا لذلك؟ هل يشترط أن تكون الحياة قد نشأت على الأرض بالذات؟ ربما كان على المرء أن يفكر، كيف أن كثيرا من الشهب، وقطعا من الأجرام السماوية، وغبارا من العالم الخارجي، يصيب الأرض يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة. وربما كان من بينها شذرات من أجرام سماوية فيها حياة، (...) إن هذه الفكرة قديمة لحد ما. ولقد قدّم لها الكيميائي السويدي سفانتي آرهينيوس: إن الحياة على الأرض، نشأت من حيوانات منوية أو نطف ذرات من أقاصي الكون.[36]" اهـ

وهذه الفرضية المضحكة لا تحل الإشكال، فالسؤال ذاته يظل مطروحا: كيف نشأت الحيوانات المنوية!! في أقاصي الكون؟ فإذا تطورت هناك، فمن المنطقي أن تتطور هنا، وإذا خلقها هناك خالق، فلماذا لا يخلقها هنا؟!

إن الزاوية الوحيدة، التي تُتقبل منها هذه النظرية، هي القول بأن هناك بعض الكواكب من الحيوانات المنوية!! فكما أن كوكبنا من تراب وطين وصخور ومعادن، فبالتأكيد هناك بعض الكواكب من مواد أخرى، وأصل هذه الشهب بالتأكيد كان كوكبا من الحيوانات المنوية!!!

إن قبول نظرية مادية صرفة كآلية لعمل الإله لقول عجيب، فلماذا يخلق الله تعالى بتلك الطريقة العجيبة؟! ونحن لا نُعدل على الله، ولكنا نقصد أنه له في كل شيء آية تدل على أنه الخالق الواحد، والخلق بالتطور لا يؤدي مباشرة إلى هذا، وإنما يفتح أبوابا للاحتمالات والشطح ونسبة الفعل إلى الطبيعة! ونسبة أي فعل إلى الطبيعة من الأقوال البلهاء التي وجدت لها الكثير من الآذان، فنحن وإن كنا نستعملها بشكل

[36] باول لوث، الإنسان مخلوق لا مصادفة، ص. 52.

مجازي!! فإن الغربيين يستعملونها بالمعنى الحقيقي! وهذا الاستعمال من العجب العجاب، فكيف أنسب الفعل إلى المتأثر حقيقة، وكيف أصف ما لا عقل له بأنه فاعل؟!

ولكن لما اعتادت الأذن سماع: غضب الطبيعة، ثورة الطبيعة، سحر الطبيعة، تدخل الطبيعة، معجزات الطبيعة، أمدته الطبيعة بكذا، كذا من هبات الطبيعة ... أصبح الحديث عن فعل الطبيعة شيء مألوفا، وتقبل كثيرٌ من الأوربيين أن تكون الطبيعة هي الخالق!

وينقد شوقي أبو خليل هذه النسبة فيقول: "وإذا ما أردنا أن نتأمل في معنى هذه الكلمة التي كثر تردادها على الألسنة، وجدناها تُطلق في معنيين اثنين:

أولهما أن يراد بالطبيعة ذات الأشياء، كالأرض، والشمس ...

وثانيهما أن يراد بها الصفات والقابليات، كالخشونة والنعومة، والحركة والسكون، والحرارة والبرودة، والتزاوج والتوالد والنمو ... فإذا قلنا: إن المراد من كلمة "طبيعة" فيما ورد، المعنى الأول، فإن معنى ذلك أن الأرض خلقت الأرض، والشمس خلقت الشمس ... وهنا اجتماع صفتين متناقضتين في شيء واحد، فالأرض أصبحت خالقة وهي المخلوقة، وكذلك الشمس، هي الخالقة وهي المخلوقة ... وهكذا ... أما إذا قلنا: إن المراد من كلمة " طبيعة" المعنى الثاني، فإنه مرفوض قطعا، لأن الشيء بمجموعه عاجز عن إيجاد نفسه، فمن باب أولى أن تكون الصفات عاجزة عن إيجاد الذات[37]!" اهـ

إن نسبة الأشياء إلى الطبيعة تناقض منطقي عظيم، ولكن العادة والإلف قاضيان على أي وكل منطق، فلهما وحدهما السيادة والريادة!

---

[37] شوقي أبو خليل، غريزة أم تقدير إلهي، ص. 8.

وختاما نقول: إن رفضنا للنظرية لا يرجع فقط إلى آلية تطور الكائنات، فمن الممكن أن ينسبها بعضهم إلى الخالق، وإنما يرجع كذلك إلى الفكرة التي جعلها دارون محورا رئيسا للنظرية وهي فكرة الصراع من أجل البقاء! وأن الموارد لا تكفي البشر والكائنات الحية عموما، لأن الموارد تزيد بمتوالية حسابية والكائنات يزيدون بمتوالية هندسية! لذا لا بد من الصراع من أجل البقاء والأقوى هو الذي سيستطيع البقاء والتطور!

وليس هذا القول من استنتاجاتنا من كتابات دارون، وإنما هي من أقواله، فلقد أقر بنفسه في كتابه بذلك، فقال: "وفي الفصل التالي سوف نتفكر في "الكفاح من أجل البقاء" فيما بين جميع الكائنات العضوية، في جميع أنحاء العالم، والذي لا مناص من أنه تابع للمتوالية الهندسية العالية لتزايد أعدادهم. وهذا هو مبدأ مالثوس Malthus، المطبَق على كل الممالك الحيوانية والنباتية. وبما أن عدد الذين يولدون من كل نوع هو أكبر من أن يعيش ...[38]" اهـ

ولم يكتف دارون بجعل الصراع بين الحيوانات وإنما تعدّاه إلى البشر! أليسوا حيوانات متطورة، يصدق عليهم ما يصدق على أجدادهم؟! وقال داروين أن السلالات المفضلة ستبقى والسلالات المتأخرة ستنقرض!وبسبب هذه الفكرة ظهرت الداروينية الاجتماعية، والتي كان لها الأثر الكبير على التوجه المادي للغرب، ولقد آمن كثيرٌ من قادة الشيوعية بأن العالم لا يتطور إلا من خلال الصراعات والحروب والثورات الدموية، مثل لينين، الذي ارتكب الكثير من المذابح التي يشيب لهولها الولدان!

كما آمن هتلر بمسالة الأجناس والسلالات، فكان يرى أن الجنس الآري أفضل الأجناس، وكانت له تقسيمه شهيرة للشعوب، جعل فيها الألمان على قمة شعوب العالم[39]، واليهود والزنوج والعرب في ذيل القائمة.

---

[38] تشارلز داروين، أصل الأنواع، تعريب: مجدي المليجي، ص. 58.

[39] النشيد الوطني الألماني القديم نفسه كان ينطق بهذا، فأول مقطع فيه كان يقول:

Über alles in der Welt، Deutschland über alles،Deutschland

وهكذا أُلغيت كرامة الإنسان، فلم يعد كائناً مكرما، سيداً على باقي الكائنات والجمادات، وإنما أصبح حيواناً مثل باقي الحيوانات! أصبح بالصدفة المحضة أرقى من أجداده السابقين!

ونظرية مالتوس هذه مضادة لكل الأديان ومضادة لفكرة وجود الإله الحافظ الراعي الرزاق الرحيم، ومؤصلةٌ لفكرة اعتماد الإنسان على نفسه وعلى المادة فقط!

والعجيب أن بعض الكتّاب المسلمين يساوي بين سنة التدافع وبين الصراع من أجل البقاء! ولن نتعرض بالنقد لفكرة الصراع من أجل البقاء، لأن هذا ليس من أهداف الكتاب، وإنما سنكتفي بذكر بعض آيات تبطل نظرية الندرة لمالتوس، والتي يكفي لنقضها القول بوجود إله ذي كمالات إلهية:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [سورة الحجر, ١٩-٢٢]

فالله عزوجل يخرج كل شيء من الأرض بتوازن، فليس الكون فوضى وإنما يسير بتدبير، ثم إنه هو الرزاق العليم، فوفر لنا ما نحتاجه للمعيشة ومن لا دور لنا في وصول الرزق إليه، ثم إن خزائن كل شيء عند الله عزوجل ولا يظهرها الله تعالى إلا بقدر، فلو شاء الله لبسط الرزق ولكنه ينزل بقدر ما يشاء.

وكثيرا ما نسمع عن قرب نضوب موارد، سواء كانت في المطعم أو في الطاقة أو ... أو ...، ثم يكتشف البشر موارد جديدة يعتمدون عليها، فكم من النباتات كانت مهملة، ثم أصبحت من الأغذية الرئيسة للبشر، وما البطاطس منا ببعيد! والبترول أقرب،

ألمانيا، ألمانيا فوق كل شيء، فوق كل شيء في العالم!

وسيُكتشف بعده ما تعتمد عليه البشرية، فكل هذا كان في خزائن الله، والذي ينزله الله بقدر معلوم، حسب حاجة البشر!

ثم إن الله تعالى ينزل المطر فنشرب منه ونسقي ونروي ولا نخزنه، فيخزنه الله تعالى لنا في آبار جوفية نستخرج منها كميات هائلة من الماء النقي! فهذه الآيات القائلة بالتدبير والتسيير والرعاية والحفظ كفيلة بالرد على الصدفوية والصراع والندرة، ومؤسسةٌ للقول بخلق موجه من لدن خلاق عليم!

الباب الثاني

خلق الإنسان في القرآن

تمهيد

بعد أن مهدنا للحديث عن خلق الإنسان في القرآن، بالحديث عن نظرية التطور، وبيّنا أنها تصور لا يتفق مع جلال الله وكماله، وأنها نظرية تمثل عمودا فقريا للإلحاد والمادية، وأنها مليئة بالشطحات والتعارضات والإشكاليات المنطقية والعلمية، ننتقل للحديث عن خلق الإنسان في القرآن!

وقبل أن نبدأ حديثنا نود أن نُذكر القارئ أننا سنتكلم عن تصور الخلق في القرآن الكريم، وهذا يحتم علينا أن نستنطق الآيات لنخبر ماذا تقول! والأهم أن نفهم الألفاظ المذكورة في الآيات، لا أن نسقط تصوراتنا السابقة عليها، ونتخذها دليلا على ما نعتقده!

فإذا كنت عزيزي القارئ ممن يرجح قول المفسر الفلاني، لجلالة قدره أو لأنه من السلف الصالح، حتى ولو خالف منطوق الألفاظ، لأنه يُحتمل أن يكون كذا وكذا بمعنى كذا، أو لأن الآية تبعا لقول العرب غير المألوف: كذا وكذا، أو تبعا للأمثلة التي اختُرعت من بعض النحويين والبلاغيين، والتي لا أثر لها في الاستعمال، فلن تستفيد من هذا البحث وسترفضه وستبقى على الرأي القديم، جازما بصحته!

أما إذا كنت ممن يزن الأقوال ويرجح تبعا لثقل القول وضعفه، ولتوافقه مع الفهم المباشر للألفاظ والتراكيب المألوفة للجمل والكلمات، فستجد بإذن الله في هذا البحث كلاما طيبا، أرجح بكثير مما ذكره الأقدمون!

ولا يعني هذا أننا نقول أنك ستقبل كل ما سنقدمه في هذا البحث، فقد ترى أن في بعضه مبالغة أو شطحا! لذا فسيكون القصد الأول هو إبطال التصور التوراتي عند القارئ بالأدلة الكثيرات، فإذا بطل التصور التوراتي، وقد بيّنا تهافت الدارويني قبله، فسينشأ عند القارئ استعداد لقبول القول الجديد!

ونكرر: إننا سنتعامل مع ألفاظ القرآن كما هي، بدون تعميم أو تخصيص، أو تقديم أو تأخير، وبدون افتراض أي افتراضات لتمرير التصور المألوف! وبدون إجراء أي استثناء لأفراد بعينهم من الدخول في الآيات، وبدون إدخال من ليس فيه! مع الحرص على عدم إيجاد تعارضات بين تأويلنا لآيات وآيات أخرى، حتى لا نُنشأ اختلافات في كتاب الله، تُتخذ كمتكأ من الطاعنين!

ونُذّكر: سنحاول قدر الإمكان ألا نضيف إلى العرض القرآني ما نكمل به الصورة، وإنما سنتحرك في نطاق الدلالات المحتملة للفظ! وإذا أردنا أن نكمل تصورا معيناً فسنبين للقارئ الكريم أن هذا الموطن من تصوراتنا وليس من باب تفسير أو تأويل الآيات بحال، وإنما هي من باب الاجتهاد والافتراض لإنشاء تصور في مسألةٍ ما، ونبدأ: بسم الله الرحمن الرحيم

التصور التوراتي التمثالي

على الرغم من أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النمل, ٧٦] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً ... ﴿٤٨﴾﴾ [سورة المائدة, ٤٨]
إلا أن الحال انقلب كليةً، فأصبح بنو إسرائيل هم من يقصون على المسلمين أكثر الذي هم فيه يختلفون! وذلك عندما لم ير المسلمون القرآن كتابا كاملا متكاملا، فاعتمدوا التوراة مكملا ومفسرا للقرآن! وبهذا هيمنت التوراة وأصبحت هي الحاكمة على كل الكتب!

والظاهر لكل ذي عينين هو تطابق فهم المسلمين لآيات خلق الإنسان في القرآن مع التصور التوراتي، فلقد قالوا بخلق تمثال من طين، ثم نُفخ فيه الروح فأصبح بشرا، وهو آدم عليه السلام، ومن ضلع آدم خُلقت حواء!

ويرجع هذا التطابق إلى التشابه الظاهري لآيات الخلق القرآنية مع ما ورد في التوراة، كما أن العلوم والمعارف في ذلك العصر لم تكن تتيح للمتدبر أكثر من هذا، كما لعبت الروايات الواردة عن السلف، والمأخوذة عن اليهود، الدور الحاسم في الجزم بالتصور التوراتي، وجعله هو تأويل آيات الخلق!

والناظر يجد أن التصور التوراتي يكاد يكون متشابها مع التصور المأخوذ من الأساطير السومرية! أي أنه ليس تصورا أصيلا لها، وفي هذا يقول كوستي بندلي، معلقاً على النزعة الذكورية بشأن خلق المرأة: "الإخراج الأسطوري، الذي صُوّر بموجبه خلق المرأة قد يكون مسلتهما من الأساطير السورية، حيث نرى الإلهة نين – تي Nin–Ti، ابنه الإلهة الأم نين– هور– ساغ Nin-Hour-Sag، تحمل اسما يمكن ترجمته ب "سيدة الضلع" أو "سيدة الحياة" (...) وقد يكون الإخراج الأسطوري الذي نحن بصدده، تعبيرا، في آخر المطاف، عن نزعة نابعة من أعماق الرجل اللاشعورية، تدفعه إلى أن يعكس لصالحه واقع الأشياء: ففي حين أنه، في الواقع الراهن، يُولد من المرأة، نراه يعكس الآية هنا ويتصور المرأة مولودة منه!. (...) إن سكان غرونلند يقولون أن المرأة خرجت من إبهام الرجل. وفي بولينيزيا، (يزعمون أنها) ولدت من بوله! وفي بلاد أخرى، من قلفته. وفي أغلب الأحيان ولسبب غامض، (يقال أنها خرجت) من ضلع الرجل[40]" اهـ

وكما انتقل هذا التصور إلى اليهود، كان من المنطقي انتقاله إلى المسلمين! فلقد وردت الكثير من الروايات، التي تعرضت لخلق آدم عليه السلام، والملاحظ أنها ليست عن النبي الكريم وإنما عن الصحابة والتابعين، وهي حتما مما أُخذ عن اليهود.

---

(40) كوستي بندلي، كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء، قراءة لصورة الإنسان في الفصول الثلاثة الأولى من سفر التكوين، ص.48-49.

ومن أشهر تلك الروايات ما ذكره الإمام الطبري في تفسيره، عند تناوله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾﴾ [سورة البقرة ,٣٠]، عن ابن عباس رضي الله عنهما: "... فبعث جبريلَ إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقُص مني أو تشينني. فرجع، ولم يأخذ. وقال: ربِّ إنها عاذت بك فأعذْتُها. فبعث الله ميكائيل، فعاذَت منه، فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل. فبعث مَلَك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض، وخَلَط فلم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تُرْبة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين. فصَعِد به، فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا –واللازبُ: هو الذي يلتزق بعضه ببعض– ثم تُرك حتى أنتن وتغير. وذلك حين يقول: ﴿... مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الحجر ,٢٨]. قال: منتن. ثم قال للملائكة: ﴿... إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة ص ,٧١-٧٢]. فخلقه الله بيديه لكيلا يتكبر إبليس عنه، ليقول له: تتكبر عما عملت بيديّ، ولم أتكبر أنا عنه؟ فخلقه بشرًا، فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة؛ فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه. وكان أشدّهم منه فزعًا إبليس، فكان يمر به فيضربه فيصوّت الجسدُ كما يصوّت الفخار وتكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿... مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الرحمن ,١٤] ويقول لأمر ما خُلقت! ودخل من فيه فخرج من دُبُره. فقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإنّ ربكم صَمَدٌ وهذا أجوف. لئن سُلطت عليه لأهلكنّه. فلما بلغ الحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفختُ فيه من رُوحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الرّوح فدخل الروح في رأسه عَطَس، فقالت له الملائكة: قل الحمدُ لله. فقال: الحمد لله، فقال له الله: رحمك ربُّك. فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة. فلما دخل في جوفه اشتهى الطعامَ، فوَثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ... ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٣٧].

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس، أبى أن يكون مع الساجدين –أي استكبرَ – وكان من الكافرين. قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لِما خلقتُ بيديّ؟ قال: أنا خير منه، لم أكن لأسجدَ لبشر خلقته من طين. قال الله له: أخرج منها فما يكون لك –يعني ما ينبغي لك– أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين[41]." اهـ

فهذه الروايات وأمثالها لعبت الدور الرئيس في إسقاط التصور التوراتي على كتاب الله عزوجل! لأن قول السلف من أفضل التفسيرات المعتمدة لكتاب الله عز وجل!

وبغض النظر عن الخلاف حول حجية تفسير الصحابي أو السلف، وعن جواز استعمال كلمة "تفسير" مع القرآن، فإن تفسيرات السلف المتعلقة بالآيات الطبيعية والعلمية لا تصلح في زماننا هذا بحال! وذلك لضحالة المستوى العلمي في ذلك العصر عامة، فما بالنا بمستواه عند العرب! ويجب النظر إلى هذه الأقوال على أنها تمثل المستوى العلمي والفكري لذلك العصر، ولا يجوز أن تتعداه بحال إلى أي زمن آخر!

والذي يساعد على بقاء مثل هذه الأقوال المتهافتة أن بعض الباحثين يعملون على إعطاء هذه الخرافات تصورا علميا مقبولا، مما يساهم في بقاءها على الساحة وعدم نبذها كخرافة ممجوجة!! ومن ذلك ما فعله هشام عبد الحميد، والذي جعل الضلع المأخوذ من آدم بمعنى خلية! وذلك لكي يصحح الروايات ويقبلها بدلا من أن يردها[42]!!

---

[41] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، المجلد الأول، ص. 459.

[42] وذلك عندما قال في كتابه: الهندسة الوراثية في القرآن وأسرار الخلق والروح والبعث، ص. 113: "وقد أكدت الروايات أنها خلقت من ضلع، أي من مجموعة خلايا أو خلية واحدة من هذا الضلع لأن خلية واحدة تكفي (!!!) فهي تحمل كل الكروموسومات ال 46 اللازمة لخلق الإنسان. فالأرجح، والله أعلم، أن الله أخذ خلية نشطة من خلايا ضلع صدر آدم، ومعلوم أن خلايا الصدر من أنشط الخلايا، ثم قام سبحانه وتعالى بنزع كروموسوم الجنس الذكري y منها، وأبقى على كروموسوم الجنس الأنثوي X، فاصبح عدد الكروموسومات في الخلية 45 كروموسوما، وهنا قام الخالق سبحانه وتعالى باستنساخ نسخة أخرى من كروموسوم الجنس X " اهـ

وكذلك ما قام به عبد الرحمن محمد الرفاعي، الذي أخذ يفسر أحاديث موضوعة وضعيفة تفسيرا عجيبا ليلبسها ثوبا علميا[43]!

والواجب علينا كمسلمين متبعين للكتاب أن نعمل على تأويل هذه الآيات، بإسقاطها على ما يقابلها في الطبيعة، مستندين إلى العلوم الحديثة والحقائق العلمية –وليس النظريات– التي تعيننا على تصور مدلولات كلام الله.

ابن طفيل وحي بن يقظان

قد يظن القارئ أن كلمة المسلمين كانت مجتمعة على التصور التوراتي، وهذا غير صحيح، فمن أجمع على هذا التصور هم العوام، الذين لا يعتد بإجماع مئات أضعافهم، والأثريون، وهم يُقدمون الأثر على العقل والفكر! والتصور التوراتي يؤيده روايات فلا بد أن يجمعوا عليه!

أما المفكرون المسلمون الأوائل فكان لهم تصورٌ آخر، بخصوص هذه المسألة، فكانوا يرون أن آدم وزوجه خُلقوا على الأرض بطريقة سُنّية (طبيعية) تحت خط الاستواء، وأرجو أن يتذكر القارئ الجملة التي ذكرنا سابقا في رسائل إخوان الصفا، والتي تقول: "وهناك تكوّن أبونا آدم أبو البشر وزوجته ثم توالدا"

---

[43] ويعد كتابه: آدم وعلوم الاستنساخ، نموذجا ولا أروع للتهجين الخرافي المحلى بصبغة علمية مهلهلة، ويكفيك أن تعرف أنه معجب أشد الإعجاب بابن عربي، ويعد نبؤاته أساسا للاكتشافات العلمية الحديثة! ومن العجائب التي قالها في كتابه المذكور، أن آدم اصطُفي من بين أبناءه (أي أن كل الإنسانية كانت موجودة وجودا نورانيا ثم اختير آدم! وهذا بدهي، أليس من المفترض أنه أبونا كلنا، أم كان سيختار الابن ليوجَد جسدا قبل الأب؟!) فقال في صفحة 128.127 "وبنو آدم أو الجنس الإنساني جميعه هو خلقٌ من ضمن ما خلق الله تعالى وأودعه في "أم الكتاب"، وينطبق عليه كل ما سبق من إشارات أوردناها، فهو في "أم الكتاب" سواء كان كاملا أو أجزاء متفرقة، نوراني من جنس نورانيته، ومن هذا الأصل النوراني استنتسخ هذا الجنس بنورانية أخرى. وهكذا. وهنا قد يسأل سائل ويقول: ترى ما الذي أدراك أن هذا الجنس الإنساني –بني آدم فيما بعد– كانوا جميعهم ومن بينهم آدم عليه الصلاة والسلام موجودين وجودا مستقلا، أي أن كل واحد منهم قد خلق وحده كآدم ثم صار بعد ذلك الاصطفاء والاختيار من ضمن بني آدم. اهـ

فإخوان الصفا كانوا يرون أن آدم وحواء تكونوا تحت خط الاستواء! ومنهما خرجت البشرية كلها، وهناك من كان يرى أن مسألة التكون لم تكن مختصة بآدم وحواء فقط، وإنما حدثت لغيرهما، أي أن الخلق بدأ بشكل جماعي، وإلى هذا القول أشار ابن طفيل[44] في رسالته: حي بن يقظان!

ولأن ابن طفيل هو أشهر من تعرض لمسألة خلق الإنسان في تراثنا الإسلامي، محاولاً تقديم تصور لحياة الإنسان الأول، فإننا سنعرض لما ذكره في هذه المسألة، وسيرى القارئ الكريم، كيف أن ابن طفيل، -أو الآراء الموجودة في ذلك العصر- أصاب كبد الحقيقة أو كاد!

تدور قصة حي بن يقظان[45] حول إنسان ينشأ في جزيرة منعزلة، يبدأ في التفكر حوله إلى أن يصل إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى وكمالاته بدون وحي! وابن طفيل يقدّم بهذه القصة ملخصا لحياة البشر كلهم، فجعل لحي ولادة عجيبة، لتشير إلى بداية خلق الناس، ثم أخذ في ذكر مراحل ارتقاءه في العلوم، حتى وصل إلى ما وصل إليه من العلوم، ويريد بذلك القول بقدرة العقل على الترقي في العلوم من لا شيء إلى الوصول إلى أعلى المعارف؛ وهي معرفة الله تعالى!

وما يهمنا في هذه القصة هو الجزء الأول منها، والذي تعرض فيه لخلق الإنسان، مقدما تصورا علميا سليما لنشأته[46]. ولقد عرض ابن طفيل الآراء التي كانت موجودة

---

[44] هو أبو بكر محمد بن عبد المالك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، فيلسوف وفيزيائي وقاضي أندلسي عربي مسلم؛ يرجع نسبه إلى قبيلة بني قيس العربية. وتاريخ ولادته غير معروف كما لا يعرف شيء عن أسرته وتعلمه، تعلم الطب في غرناطة وخدم حاكمها، وتوفي في 581 هـ بمراكش. وأشهر مؤلفاته: "مراجعات ومباحث جرت بينه وبين ابن رشد في " رسم الدواء"، جمعها ابن رشد في كتابه "الكليات"؛ و"أرجوزة في الطب"، توجد في خزانة جامع القرويين بفاس بالمملكة المغربية؛ و"رسالة في النفس" في الفلسفة؛ و"حي بن يقظان"، وهي أشهر ما ترك ابن طفيل، وهي قصة فلسفية عرض فيها أفكاره الفلسفية عرضاً قصصياً، محاولاً التوفيق فيها بين الدين والفلسفة. وقد عرفت هذه القصة في الغرب منذ القرن السابع عشر، وترجمت إلى عدة لغات.

[45] لعل القارئ قد انتبه إلى الرمزية في اسم البطل، فهو: حي، إشارة إلى الإنسان ككائن حي، أو هو حي لأنه بن يقظان، فالإنسان المتيقظ المتفكر هو الإنسان الحي، وما عداه فهو ميت!

[46] ربما كان لهذا التصور أثرٌ، -بوجوده في العقل الباطن، لقراءتنا القصة في صغرنا- في تصورنا الذي قلنا به، والذي سنقدمه للقارئ بعد صفحات.

في عصره على شكل قصة، حتى يتسنى لها القبول والانتشار بين الناس، لأنه لو قدّمها بشكل كتاب لانحصرت بين خواص المفكرين، ولربما اتُهم بالزندقة والكفر! ولكُتب عليها الضياع، كما ضاع كثير من الأفكار التي لم تجد قبولا بين العوام!

ولقد ذكر ابن طفيل في رسالته قولين في خلق حي بن يقظان، أحدهما بكونه من أب وأم، والآخر بخلقه في الأرض، وسنكتفي نحن بالقول الذي نحتاج، وسنطيل النفس في النقل عن ابن طفيل، حتى نعطي القارئ الكريم تصورا جيدا حول رأي مفكرينا السابقين، والذي نرى صوابه، ولأن قولنا مشابهٌ كثيرا لقول ابن طفيل، ولا يختلف عنه إلا في إضافة بعض التفاصيل[47]، أما التصور العام فواحد تقريبا، مما سيوفر علينا عند عرض تصورنا.

قال ابن طفيل في رسالته: حي بن يقظان: "ذكر سلفنا الصالح –رضي الله عنهم– أن جزيرة من جزائر الهند، التي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء (...) وهذا القول يحتاج إلى بيان أكثر من هذا، لا يليق بما نحن بسبيله، وإنما نبهناك عليه، لأنه من الأمور التي تشهد بصحة ذكر من تجويز تولد الإنسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب. فمنهم من بت الحكم وجزم القضية بأن حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكر ذلك، وروى من أمره خبراً نقصه عليك (...) وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فانهم قالوا إن بطناً من أرض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام، حتى امتزج فيها الحار بالبارد، والرطب باليابس، امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى. وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جداً وكان بعضها يفضل بعضاً في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الأمشاج. وكان الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه مشابهة

---

[47] أرى أن الاختلاف الأكبر بيننا وبين ابن طفيل يكمن في المنطلق، فلقد قال ابن طفيل ما قاله –غالبا– انطلاقا من نظره في الطبيعة، واستنادا إلى قول العلم في عصره، ولم يستند إلى القرآن فيها، ولعله كان يرى أن قصة آدم المذكورة في القرآن من المجازات! لأنه لم يسند أي قول من أقواله إلى القرآن. أما نحن فانطلقنا في تصورنا من القرآن والقرآن فقط، والذي استخرجنا من استقراء آياته تصورنا.

بمزاج الإنسان: فتمخضت تلك الطينة، وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها: وحدث في الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جداً، منقسمة بقسمين، بينها حجاب رقيق، ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به، فتعلق به عند ذلك الروح الذي هو من أمر الله تعالى، وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل؛ إذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل، وأنه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم. (...) ثم ما زالوا يصفون الخلقة كلها والأعضاء بجملتها على حسب ما وصفه الطبيعيون في خلقة الجنين في الرحم، لم يغادروا من ذلك شيئاً، إلى أن كمل خلقه، وتمت أعضاؤه، وحصل في حد خروج الجنين من البطن، واستعانوا في وصف كمال ذلك بتلك الطينة الكبيرة المتخمرة، وأنها كانت قد تهيأت لان يتخلق منها كل ما يحتاج إليه في خلق الإنسان من الأغشية المجللة لجملة بدنه وغيرها، فلما كمُل انشقت عنه تلك الأغشية، بشبه المخاض، وتصدع باقي الطينة إذ كان قد لحقه الجفاف[48]." اهـ

وكما رأينا، فابن طفيل يقول بخلق الإنسان في باطن الأرض وخروجه منها بعد اكتمال خلقته! إلا أن ابن طفيل يقول بعد ذلك أن ذلك الكائن خرج طفلا رضيعا مثله مثل أي طفل تلده أمه، ورعته غزالة حتى كبر. وقد عرض ابن طفيل في القصة بعد ذلك إلى بعض المواقف التي تناقش تعلم الإنسان واكتشافه للطبيعة من حوله، وسنذكر بعض ما قاله عند تعرضنا لهذه المواطن!

المعاصرون وخلق الإنسان

بعد قصة ابن طفيل –والتي تعد فلتة من فلتات العصور الوسطى–، وحتى القرن العشرين لم نسمع عن أي رأي جديد في مسألة خلق الإنسان، وأصبح التصور التوراتي

[48] عبد الحليم محمود، فلسفة ابن طفيل وقصة حي بن يقظان، ص 100–109.

القائل بالتمثالية، –أي أن الله خلق آدم على شكل تمثال ثم نفخ فيه الروح فصار بشرا حيا– هو القول الوحيد، الذي لا يزال يدافع عنه أكثر المسلمين في القرن الحادي والعشرين، لأنهم لم يدرسوا المبحث دراسة مستقلة[49]!

ومع بدايات القرن العشرين عرفت مجتمعاتنا العربية والإسلامية بنظرية التطور الداروينية، وقوبلت برفض شديد، ولكن مع مرور الوقت، وإحاطة النظرية بهالة من القداسة، وإظهارها بمظهر الحقيقة العلمية، رأى بعض علماء المسلمين أنها تُعد تفسيرا جيدا لآيات الخلق! حتى لا يحدث تعارض بين آيات الله والعلم الحديث!

وعلى الرغم من أن المفسرين القدامى قاموا بنفس الأمر في أزمانهم، ولووا أعناق بعض النصوص القرآنية لتتوافق مع المستوى المعرفي في عصرهم، إلا أن سهام النقد وُجهت بشدة إلى متقبلي هذا القول التطوري!

ومن أشهر من كتب في هذا التوجه، مؤيدا التطور، هو الدكتور المهندس محمد شحرور، وبعد الدكتور شحرور كتب بعض الباحثين مؤيدين لهذه النظرية، إلا أن أشهر من كتب مؤيدا لها هو الدكتور عبد الصبور شاهين، والذي أثار ضجة إعلامية بتبنيه هذه النظرية، لكونه من الأسماء الشهيرة في مجال الفكر الإسلامي، على الرغم من أن تصوره يكاد يكون متطابقا مع ما قاله محمد شحرور!

وهناك من قدّم –من المعاصرين– بعض التصورات الأخرى في مسألة خلق الإنسان، إلا أنه لا يمكن قبولها من الناحية العلمية، فلا يمكن أن تُقبل إلا دينياً، لأنها تغوص في عوالم الروحانيات! وبخلاف هؤلاء وأولئك لم يقدم أحدٌ –على حد علمي– تصور علمي مقبول مأخوذ من القرآن، إلا نحن وجمعية التجديد، والتي قالت بما نقول به في مسألة خلق الإنسان البيولوجية، والله أعلم أينا سبق! إلا أن توصُّل بعض الباحثين

---

[49] إني لأعجب ممن يأخذ قول إنسان، تعرّض لآيات في عمل موسوعي ضخم، كان يسابق الزمن لإنجازه، ويقدّمه على قول آخر، جمّع الآيات المتعلقة بالموضوع وتفكر فيها، وأظهر نقاط الخلل في الأقوال القديمة!

إلى نفس النتيجة، والتي هي فريدة تماما، بدون إطلاع على ما توصل إليه الآخرون إشارة تأكيد لصحة ما توصلوا إليه.

ملخص تصورنا لخلق الإنسان

بعد أن خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام[50]، وأخرج النباتات من الأرض وبث فيها الدواب، بدأ عملية خلق الإنسان، والتي تدور أحداثها كلها في الأرض، فمن موادها خلق الله تعالى الإنسان. فيذكر الله تعالى في كتابه الكريم عند حديثه عن خلقه البشر، مراحل عدة مر بها التراب، فذكر أنه أصبح طينا، وطينا لازب وحمأ مسنون وصلصال كالفخار، ومن هذا الطين المحول أخرج الله تعالى خلية حيوانية، أو ما يسمى حاليا ب: "الجنين"، وهو الناتج عن اندماج الحيوان المنوي بالبويضة، –وليس بالمفهوم المتعارف عليه بين العوام أنه طفل صغير– وأودع الله تعالى –بواسطة الملائكة– هذه الخلية في "أرحام أو حضانات أو بيوض أرضية"، أنشأها الله.

وجعل سبحانه للبشر فيها دورة تغذية ذاتية من الأرض، –كما نجد في النباتات كلها– تأخذ العناصر الغذائية من الأرض وتحولها لما يناسب الإنسان الموجود بداخلها، وتقدمها له، كما يصل الغذاء إلى الجنين في بطن أمه.

وجعل الله هذه الأرحام مستقرا للخلية، وانقسمت الخلية بأمر الله إلى أن صارت هذا الكائن المسمى بشرا، وخرج هذا الكائن من الأرض، حقا لا مجازا، ناضجا لا طفلا، فتشققت الأرض عن البشر وخرجوا من الطين[51].

---

[50] ليست هذه الأيام الستة أياما أرضية، لأن الأرض والمجموعة الشمسية لم يكونا قد نشأ بعد، وكذلك من الخطأ القول أن أيام الخلق هذه تساوي ملايين أو مليارات السنين من زماننا، لأن لا توجد وحدة قياس مشتركة بين الزمانين!

[51] هنا نخالف ابن طفيل، الذي جعل "حي" يخرج رضيعا، فنحن نقول أن الإنسان الأول خرج بالغا! وإن كنا نلتمس له العذر لأنه ما كان يستطيع إلا القول بهذا!

وعملية التحويل من تراب إلى خلية وغرسها في أرحام أرضية لم تحدث مع فرد واحد، وإنما أُجريت لأفراد كثيرة، خرجوا رجالا ونساءً من الأرض. ولأن هذا الجيل كان يمثل مرحلة الطفولة البشرية لم يكن يستطيع الكلام، ومن الممكن أنهم كانوا محنيي الظهور قليلا –ولا يعني هذا أن أذرعتهم كانت طويلة كالقرد، وإنما كانت بشكلها الحالي!– ثم استقامت ظهورهم بعد فترة!

وكان هؤلاء البشر يتحركون تبعا لغرائزهم الحيوانية، فيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، إلا أنه كان لهم بناء دماغي وجهاز صوتي متطورٌ عن باقي الحيوانات! وإن لم يكونوا قادرين على التناسل[52]!

وبعد حين من الدهر نضجت أعضائهم الجنسية وأصبحوا قادرين على الإنجاب، وهكذا انتقلت عملية التناسل من مرحلة الخروج من الأرض إلى مرحلة الخروج من أرحام الأمهات، ولم يكن هناك بداهة أي نظام أسري، وإنما تناسل بشكل حيواني صرف.

وبعد فترة طويلة –الله أعلم بمداها– من حدوث التناسل عن طريق الأرحام البشرية، سوّى الله تعالى هؤلاء البشر، حتى أصبحوا مستعدين للنفخ من الروح، والله أعلم بطبيعة هذه النفخة، إلا أننا نرى أن النفخ من الروح هو ما نقل البشر من الحيوانية إلى الإنسانية، فنفخ الله تعالى في عدد منهم، ومن بين هؤلاء كان آدم عليه السلام، والذي عُلم صفات الأشياء كلها، مما حقق قفزة هائلة في مستوى اللغة التي كان يتحدثها هو

---

[52] جاء في كتاب: الخلق الأول، كما بدأكم تعودون، من إصدارات جمعية التجديد، ص 25–26: "في التراث السومري والبابلي وصفوا الكائن الحي الأول "بالمخلوق الخنثى" وهو "الكائن/القوة الذي أبدعته قوة المياة العذبة النقية (أنكي/إيا) من تحت ظفره الوسخ ليس بذكر ولا أنثى" وبها انبعثت قوى الإخصاب في الأرض (المعبر عنها ببعث عشتار)، (...) وفي ملحمة الخليقة البابلية قبل 4000 عام إشارة إلى هذا، أن القوة الربانية المضطلعة بالإنسان (ويسمونها "إنليل") قامت بعد تذليل الأرض بسمائها، بخلق البشر، لكن كيف؟ تقول الملحمة: (فحفر –أي الرب– شقا في الأرض، ووضع بدايات البشرية في الشق، وعندها بدأ البشر يظهر كالحشيش في الأرض) اهـ.

وفي هذا تأكيد لما نقول به.

ومن معه، وعلّم آدم[53] عليه السلام من كان معه هذه الأسماء. وبطبيعة الحال كانت حياتهم –ومن ثَم لغتهم– جد بسيطة، لأن اللغة ما هي إلا انعكاس لمظاهر الحياة ومتطلباتها، ثم أخذ البشر في اكتساب المعارف والخبرات.

ومع مرور الزمن هلك الهمج، الذين ظلوا همجاً لأنهم لم يكونوا مؤهلين لتلقي النفخ من الروح، واستمر البشر الذين صاروا أُناسا[54]. وتطورت الحياة وأدواتها وتشعبت، وتفرق الناس وأنشأوا حضاراتهم الخاصة بهم، التي استمرت وتطورت إلى أن وصلت إلى شكلها الحالي في عصرنا الحديث.

وسنبين للقارئ الكريم عبر الصفحات القادمة، مستندنا القرآني في قولنا هذا، وكيف أنه القول الوحيد، الذي يأخذ الآيات والألفاظ كلها كما هي بدون تلاعب أو ليّ للكلمات، كما سنبين للقارئ الكريم تناقضات سبّبها القول القديم، لم يلتفت إليها المفسرون، أو التفت بعضهم إليها ولكن سُرعان ما تُجووزت، وتصورات لا يمكن أن تُفهم إلا من خلال ما نقول به.

ولكن قبل هذا نبيّن للقارئ الكريم كيف أن هذا الملخص الذي ذكرناه، يحدث أمام عينيه كل يوم، ولكن لأن القارئ لم يعتد –غالبا– قراءة الكون أو الواقع، نقدم له قراءتنا لهذه المسألة، فنقول: "لن يعجب هذا التصور، بداهة، كثيرا من المسلمين والمسيحيين الشرقين خاصة، على الرغم من أن هذا السيناريو تكرر ويتكرر أمام أعينهم منذ آلاف السنين، فنجد أن الإنسان ينشأ في رحم أمه = رحم الأرض،[55] ثم يخرج من رحم أمه لا يستطيع المشي وبعد فترة يحبو على يديه ورجليه = مرحلة إنشاء

---

[53] على الرغم من أن آدم هو الإنسان الأول عند كثير من شعوب الأرض، إلا أن الفرس (المجوس) لهم رأي آخر في هذه المسألة، وفي هذا يقول ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: "وأما المجوس فلا يعرفون آدم ولا نوحا ولا ساما ولا حاما ولا يافث، وأول متكون عندهم من البشر البشري المسمى كيومرث، و لقبه كوشاه، أي ملك الجبل، لأن "كو" هو الجبل بالفهلوية، وكان هذا البشر في الجبال، ومنهم من يسميه: كلشاه؛ أي ملك الطين، ..." اهـ

[54] لا يوجد ما يمنع من حدوث تزاوج بين من نُفخ فيهم من الروح وبين الهمج، مما مكنهم من البقاء، وإن كانت النزعة الحيوانية فيهم طاغية، ويوجد في التوراة ما يمكن فهمه على هذا الأساس، وسنشير إليه عند التعرض لهذه المسألة.

[55] لا تنطبق الداروينية بشكل كبير مع خلق الإنسان المكرور، كما أنها لا تقدم تفسيرات مقبولة لنقاط عدة في مسألة خلق ورقي الإنسان، أما ما نقول به فيتطابق تمام التطابق مع واقع الإنسان الحالي والذي هو انعكاس وتكرار لما كان في الماضي!

الظهر والتي اعتمد فيها الإنسان الأول على يديه بجوار رجليه، وفي هذه المرحلة لا يعقل الطفل الرضيع شيئا وهذا ما كان عليه الإنسان الأول، وكذلك لا يستطيع الطفل الكلام= ما كان عليه الإنسان الأول، وبعد فترة من تعليم الوالدين = تعليم الملائكة للجيل الأول من البشر، يستطيع الطفل التلفظ بألفاظ بسيطة وتتكون لديه لغته الخاصة، وهذا ما كان عليه الجيل الأول من البشر، حيث كانت لغتهم مكونة من مفردات قليلة العدد تناسب احتياجاتهم وقدراتهم العقلية.

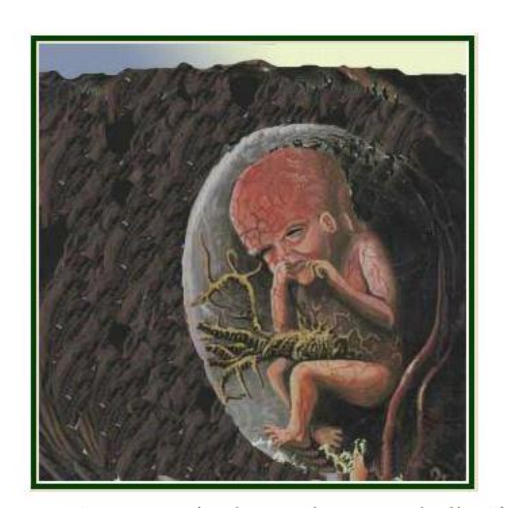
ومع احتكاك الطفل بالمجتمع تزداد ثروته اللغوية وقدرته العقلية وتتسع وتتطور ويدخلها التجريد والمعنويات، وهذا ما حدث للغات الموجودة على البسيطة وللقدرة العقلية التجريدية للإنسان!

وينمو الطفل وينعزل عن والديه ويبدأ في التمرد على وصايتهما عليه، كما تمرد الإنسان على الوصاية الإلهية عليه، ثم يقتنع في آخر المطاف أن نظرة الوالدين كانت حقاً أحكم من نظرته، ويكابر الإنسان إلى الآن في التسليم بحكمة الإله!!!

ويتنقل الإنسان بين مراحل العمر المختلفة من ضعف إلى قوة ثم ينتكس إلى ضعف مرة أخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ۝٥٤﴾] سورة الروم , ٥٤[وهذا لحكمة على الإنسان أن يتفكر فيها.[56]" اهـ

قدمت جمعية التجديد في كتابها: الخلق الأول، كما بدأكم تعودون، في صفحة: 85. رسما جيدا لهذا التصور، وهو الرسم القادم:

[56] عمرو الشاعر، السوبرمان بين نيتشه والقرآن، ص. 284-285.



إلا أنه فاتهم أن الإنسان الذي بداخل الرحم الأرضي يفترض أن يكون رجلاً أو امرأة وليس طفلاً، وهذا الرسم أقرب ما يكون إلى الرسوم التقليدية لجنين وليس لرجل في رحم، كما أنه يُفترض في الرحم أن يكون أقرب من هذا إلى سطح القشرة الأرضية، حتى يستطيع الإنسان الخروج منها سالما.

كيف استخرجنا التصور؟

سيرى القارئ من خلال تناولنا للآيات المتعلقة بالنشأة الأولى، أننا نسقطها على التصور الذي توصلنا إليه ونقول به، وأننا لم نستخرجه منها، وحتى لا يتساءل كيف توصلنا إلى هذا التصور، نبيّن له كيف استخرجنا هذا التصور: أول ما ساعدني على استخراج هذا التصور –بعد فضل الله وفتحه– هو تزعزع يقيني بتصور الخلق التوراتي، بعد أن قرأت تصورات أخرى تستند إلى القرآن في منطلقها، وتبين عدم تطابق التصور التوراتي مع القرآن.

وبهذا أصبحت أقرأ النص القرآني من خلال الكلمات الموجودة فيه، وليس من خلال التصورات المسبقة المبيتة بداخل الذهن، ولولا تزعزع اليقين بالتصور التوراتي لظللت

أقرأ الآيات طيلة عمري كما هي، ولا أتفكر فيها، لظني أني أعلم مدلولاتها وأنها مما قدّم السابقون تأويلها! فلا يوجد جديدٌ بشأنها!

وعلى الرغم من اتباعي منهجا صارما في التعامل مع كتاب الله، إلا أن هذا المنهج أو غيره لن يفلح مع الإنسان، طالما لم ينتبه إلى وجود اختلاف بين النص القرآني، والمدلولات المقابلة له. فلمّا انتبهت إلى هذا أخذت أقرأ الآيات لأحدد؛ هل التصور التوراتي هو ما قال به القرآن، أم أنه يقول بالتصور التطوري، لأتبع أيهما قال به القرآن. فلما قرأت الآيات تبعا لمنهجنا[57]، والذي لا يقبل بالترادف ولا بالاعتباطية ولا بالزيادة ولا النقصان في القرآن، توصلت إلى تصوري: الأرحام الأرضية!

وأول ما لفت انتباهنا إلى هذا التصور هو قوله تعالى على لسان سيدنا نوح: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨﴾ [سورة نوح, ١٧-١٨] فوجدت أن الله تعالى يقول أنه أنبتنا من الأرض ثم يعيدنا فيها، فهذا يشير إلى أننا خرجنا أولا منها، ثم يخرجنا إخراجا، فقلت: لماذا لا نكون قد خرجنا من الأرض فعلا؟!

ثم انتبهت إلى قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤﴾ [سورة ق, ٤٤]، فوجدت أن الله تعالى يقول أن الأرض ستتشقق عن الناس في اليوم الآخر وسيخرجون منها، من الأجداث: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧﴾ [سورة القمر, ٧]. فلما تذكرت أن الله تعالى تحدث في آيات كثيرة عن بدأ الخلق ثم إعادته، مثل قوله: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ... ۝٦٤﴾ [سورة النمل, ٦٤]، وكيف أن الإعادة تكون مثل البدء: ﴿... كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [سورة الأنبياء, ١٠٤].

[57] قدمنا هذا المنهج في كتابنا الأول الكبير: لماذا فسروا القرآن، ويمكن للقارئ الكريم تحميل الكتاب من على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

قلت: لم لا يكون الخلق الأول حدث بنفس الطريقة التي سيحدث بها البعث والإحياء يوم القيامة، بأن يكون الناس قد خُلقوا في الأرض، (في أرحام أرضية) ثم تشققت الأرض عنهم وخرجوا منها؟! فلما نظرت في باقي آيات الخلق في القرآن تأكد عندي هذا التصور، كاحتمالية وحيدة لفهمٍ متطابق مع منطوق الآيات!

ثم اكتشفت فيما بعد، أن جمعية التجديد تقول بما أقول به، وأمدتني ببعض التأكيدات لتصوري، ومما أضافته لتأكيداتي للتصور هو تفسيرهم لعملية الدفن! فلقد قالوا: "ومن المُدهش أن القرآن قد كرَّر أن النشأة الأولى هي تمامًا كالنشأة الآخرة، وكما بدَأَنا نعود ، بنفس الكيفيّة؛ لذلك احتفظ تراثنا الدينيّ منذ القدم بطرائق دفن تعي هذه البداية. فكما نشأ البشر في قوالب الطين وحواضن الطين؛ فهكذا يجب أن يُدفنَ؛ ليُعاد تصنيعه يوم البعث إنباتًا مرّةً أخرى ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾ [سورة نوح, ١٧-١٨] وبهذا القول نكون قد أنهينا الإشكالية الفلسفية المتعلقة بالبعث، فالمعترضون على البعث، قالوا من أين يأتي الإله بمادة تكفي لكي يبعث الناس جميعا، وكيف يُعيد من تحول إلى تراب، وأصبح غذائا لنبات أكله حيوان وأكل الحيوان إنسان؟ إلخ الإشكاليات المتعلقة بالبعث.

فنقول: ليس للخلق علاقة بكل هذا، فلا يحتاج الأمر إلى أكثر من خلية واحدة من جسد الإنسان، تحتوي كل شفرته وذاكرته، تُغرس في باطن الأرض، وتنقسم إلى أن يخرج منها الإنسان كاملا، فيُزوج بنفسه، التي تُوفيت منه حين موته، وبذلك يعود البشر كلهم للحساب والجزاء!

آلية تناول الآيات

بعد أن قدمنا للقارئ ملخصاً لتصورنا، والذي قد يجد فيه تشابهاً مع ما قاله التطوريون، وقد يجد فيه تشابها مع أفلام الخيال العلمي! نبدأ في تناول الآيات التي

تعرضت لمسألة خلق الإنسان! ولن نتناولها تبعا لترتيبها في المصحف، وإنما سنتناولها متدرجين في إثبات ما نقول، عارضين ما قاله بعض المفسرين عند تناولهم لهذه الآيات.

وغالبا ما سننقل ما قاله الإمام الفخر الرازي، لأنه غالبا ما كان ينتبه إلى كثير من النقاط، التي كان عامة المفسرين يتجاوزونها ولا يلتفتون إليها! وذلك لاهتمامهم بإيراد الآثار المتعلقة بالآيات في المقام الأول، ثم يتهمون الإمام الفخر أن في تفسيره كل شيء إلا التفسير! ثم نذكر للقارئ الكريم بعد ذلك مواطن الخلل في أقوال المفسرين، مقدّمين له فهماً للآيات يأخذها كما هي!

كما سنقوم بعرض بعض ما ذكره الباحثون الجدد عند تناولهم لقضية خلق الإنسان، إما تفنيدا لقولهم، أو موافقةً لهم على ما يقولون، حتى نعطي القارئ الكريم أكبر قدرٍ من التصورات حول الآيات! وحتى يرى الفرق بين من ينطلق من الآيات فيصل إلى تصور، ومن يأخذ الآيات ليسقطها على تصور!

ولأن آيات خلق الإنسان ارتبطت في القرآن بقصة آدم والشيطان والملائكة، فإننا سنعرض لقصة آدم عليه السلام حتى نكمل التصور لدى القارئ حول هذه القصة، حتى نبين له أنه لا خرافة في الآيات ولا رمزية، وإنما هي قولٌ حق، أُنزل بالحق، مهيمناً على الكتب وهادياً للعقول! وسيكون هذا التناول بإذن الله تعالى تناولا مستقلا في الباب القادم.

تحولات التراب دليلا

يؤمن جميع المسلمين إيمانا عميقا أن الإنسان مخلوق من تراب صار طينا، وهذا الإيمان راجع إلى الآيات الكثيرات، التي أكدت هذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ

خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ... ﴿١١﴾] سورة فاطر ,١١[، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ... ﴿٢﴾]سورة الأنعام ,٢[، ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ[58] ﴿١١﴾] سورة الصّافّات ,١١[، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾] سورة الحجر ,٢٦[، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾] سورة الرحمن ,١٤[

ومرت الأيام والقرون وأثبت العلم الحديث أن كل العناصر التي يحتويها جسم الإنسان موجودة في التراب، وأن أنسب مادة لبدأ خلق الإنسان منها هي الطين، ويعلق الدكتور حمد الرقعي على هذا قائلا: "وقد توصل العلم الحديث من خلال الفحص والتحليل والمقارنة إلى أن جميع العناصر التي يحتويها الجسم الحي توجد في الطبيعة، وإن كانت بنسب مختلفة، (...) وقد ثبت أن جميع هذه المواد تتواجد في الطين الذي يحتوي: الكربون– الكالسيوم– السليكون– الكبريت– الكلور– الآزوت– اليود– الفوسفور– الماء– الفلور– الهيدروجين– الحديد– البوتاسيوم– الصوديوم والمنغنيز. وقد توصل العالم ليليا كوين ومساعدوه في أبحاثهم إلى أن للطين خاصيتين أساسيتين وضروريتين لتركيب الذرة العضوية الأولى والتي تتكون منها الخلايا الحية، وهاتان الخاصيتان هما: قدرة الطين على تخزين الطاقة وتحويلها، وقدرته على القيام بدور المحفز للعمليات الكيميائية التي تحول المواد المعدنية الأولية إلى ذرات عضوية.[59]"اهـ

وكذلك يؤمن جميع المسلمين إيمانا جازما أن لا تعارض بين آيات الخلق، التي تكلمت عن خلق من تراب، وطين وطين لازب، وصلصال من حمأ مسنون وصلصال كالفخار، ويجزمون أنها تتحدث عن مراحل الخلق، فلقد بدأ من تراب صار طينا ... إلخ المراحل.

---

[58] الطين اللازب هو الطين اللزج اللاصق، وهو الذي ذهبت معظم كتلته، فدخل بعضه في بعض.

[59] حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، ص. 21–22.

وهنا تظهر إشكالية كبرى للقائلين بالخلق التمثالي، وهي: هل خلق الله تعالى آدم بطريقة طبيعية أم بطريقة خارقة؟! تبعاً لقولهم، فلقد خلق الله آدم بطريقة –فوق طبيعية– بأن نفخ في تمثال الروح، فأصبح التمثال بشرا، وهنا نسأل: لماذا كانت إذن المراحل السابقة للإعداد، لماذا لم يأخذ الله تعالى أي قطعة طين بأي شكلٍ كانت، ثم يشكلها على شكل إنسان، ثم ينفخ فيها الروح، وكانت ستصبح بشرا في جميع الأحوال؟!

إن قولهم بخلق آدم بهذه الطريقة يجعلهم يقولون بأن الخلق انقسم إلى مرحلتين، إحداهما طبيعية والأخرى فوق طبيعية، وهنا يحق أن يسأل المرء: لماذا الالتزام بمراحل معينة، طالما أنها لن تُكمل إلى نهاية المطاف، ألا يُعد هذا –تعالى الله– عبثا؟!

أما على قولنا بالخلق في الأرحام/ البيوض الأرضية فخلق آدم حدث بطريقة طبيعية، ولكنها لا يمكن أن تكون إلا بوجود توجيه رباني، مما يحتم التسليم بوجود إله خلاق عليم، فلقد مر التراب بمراحل تؤهله لأن يصبح خلية، ويعلق الدكتور عماد محمد بابكر على هذه النقطة فيقول: "من الآيات أعلاه يمكننا أن نسلسل علاقة البشر بالتراب والطين الذي خلقوا منه كالآتي:

1– خلقكم من تراب

2– خلقكم من طين

3– خلقناهم من طين لازب

4– خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون

5– خلق الإنسان من صلصال كالفخار.

من هذا التسلسل للآيات ولخلق الإنسان يمكن أن نستنتج الآتي:

– التراب إذا أضفنا إليه ماء تحول إلى طين.

– الطين إذا لزم مكانه وثبت يتحول إلى طين لازب، ولا يكون كالطمي تحركه المياه، ولكن كالطين الذي يلزم ضفاف الأنهار!

– الطين اللازب إذا عرضناه إلى حمأ وحرارة ترسل له إرسالا، أو لنقل أشعة شمس أو حمم البراكين، يتحول إلى صلصال كالفخار كالطين الجاف الذي يتواجد على ضفاف الأنهار!

– هذا الصلصال الذي قد قتلت فيه الحرارة وحمم البراكين الحشرات والديدان التي عليه، إذا خلطته بالماء يتحول مرة أخرى إلى طين لازب!

نلاحظ هنا أن هذه الصفات تنطبق على الطين الخصب الذي يتواجد على ضفاف الأنهار وفي الجزر البركانية، وهو أخصب أنواع الطين الذي يستعمل للزراعة الطبيعية الناجحة![60]" اهـ

فبهذا الإعداد أصبح الطين جاهزا ومعدا ونقيا وخالصا من الشوائب، ومؤهلا لأن يحوله الله تعالى إلى خلية حيوانية تُغرس لتخرج الإنسان، وبهذا تكون تحولات التراب دليلاً على خلق غير خارق للإنسان، خلقٍ أجراه الله عزوجل تبعاً للسنن وليس فوقها، ولو لم يكن كذلك لكان أمره سبحانه لنا بالسير في الأرض لنعلم كيف بدأ الخلق عبثا: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة العنكبوت , ٢٠].

---

[60] عماد محمد بابكر حسن، آذان الأنعام، ص. 54.

وهو وإن كان يقول بالتطور، إلا أنه لا يخالفنا في المراحل الأولى لإعداد الخلية، فالخلاف بعد ذلك، فهو يقول أنها تطورت، ونحن نقول أنها وُضعت في أرحام أرضية وخرج البشر بشرا، كما هو.

شكلان للخلق وآلية واحدة

بعد أن بيّنا أن القرآن يتحدث عن خلق سُنّي (طبيعي) للإنسان، ننتقل لنبين أن شكلي خلق الإنسان حدثا بآلية طبيعية واحدة، فليس أحدهما خارق لا يمكن إثباته علميا والآخر سنّي، نعرف آلياته ونراه، وإنما كلاهما أُجريا بآلية واحدة، ونبين فنقول: أجمع المسلمون على وجود شكلين لخلق الإنسان، الأولى من الأرض والثانية في أرحام الأمهات، وذلك لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النجم, ٣٢] فالحديث عن شكلين لتكون الإنسان، وهما الإنشاء من الأرض والأجنة في بطون الأمهات!

ولا خلاف في الشكل الثاني، وإنما الخلاف حول الشكل الأول، والذي يقولون بأنه تكون كتمثال ثم نُفخ فيه الروح فأصبح إنسانا. فلو قبلنا بهذا القول، فهذا يعني حتما وجود آليتين للخلق، فهل يقول القرآن بهذا ويقبله؟

الناظر في آيات القرآن المتعلقة بخلق الإنسان كلها، يجد أنه لا يفرق بين شكلي الخلق، وإنما يعرضها كلها على أنها طريقة واحدة، فالبشر أو الإنسان مخلوق من تراب أو طين أو نطفة ...، فكيف يمكن إسقاط هذه الآيات على البشر؟ بمعنى: كيف يمكن أن يكون الناس مخلوقين من طين، وهم يخرجون من بطون أمهاتهم؟ وكيف يمكن أن يكون آدم مخلوق من نطفة؟!

لذا سببت آيات الخلق هذه إشكالية كبرى للمفسرين، استطاعوا حل أحد طرفيها، ولم يقدموا حلا مقنعا للطرف الآخر! فبخصوص خلقنا من طين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ... ﴿٢﴾﴾ [سورة الأنعام, ٢]، قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير: "هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ" والمشهور أن المراد منه أنه تعالى

خلقهم من آدم وآدم كان مخلوقاً من طين. فلهذا السبب قال: "هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ".

وعندي فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولدان من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية، والأغذية إما حيوانية وإما نباتية، فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان، فبقي أن تكون نباتية، فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين، فثبت أن كل إنسان متولد من الطين. وهذا الوجه عندي أقرب إلى الصواب.[61]" اهـ

ولقد أصاب الإمام الفخر –رحمه الله– بقوله هذا، فكلنا أصلنا من تراب أو طين، ولكن يبقى الطرف الآخر وهو كيف خُلق آدم من نطفة؟!

نعرض للقارئ الكريم بعض الآيات التي اجتمع فيها الشكلان، وكيف حاول المفسرون تجاوز هذه الإشكالية: أول هذه الآيات هو قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المؤمنون, ١٢-١٤]

فكما يرى القارئ الكريم، فالآيات تقول أن الإنسان خُلق من سلالة من طين، ثم أنه يُجعل نطفة. سيقول القارئ: وما المشكلة، لقد حلّها الإمام الفخر الرازي؟! نقول: المشكلة أن آدم عليه السلام إنسان! فكيف جُعل نطفة في قرار مكين؟! هل سنخرجه من هذه الآية، ونقول أنه مستثنى؟! وإذا فعلنا ذلك، فإننا نكون ممن يصرون على فهم كلام الله، ليس كما يقول.

[61] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثاني عشر، ص. 126.

ولننظر كيف حاول المفسرون أن يقدموا حلاً لهذه الإشكالية، ومن ذلك ما ذكره الإمام الفخر الرازي، حيث قال: "المرتبة الأولى: قوله سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾] سورة المؤمنون ,١٢[، والسلالة الخلاصة لأنها تسل من بين الكدر، فُعالة وهو بناء يدل على القلة كالقُلامة والقُمامة. واختلف أهل التفسير في الإنسان؛ فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل: المراد منه آدم عليه السلام، فآدم سُل من الطين وخلقت ذرّيته من ماء مهين، ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذي هو ولد آدم. والإنسان شامل لآدم عليه السلام ولولده. وقال آخرون: الإنسان ههنا ولد آدم، والطين ههنا اسم آدم عليه السلام والسلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه، التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المنى صارت منياً (...) المرتبة الرابعة: قوله تعالى: ﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ... ۝١٤﴾] سورة المؤمنون ,١٤[أي جعلنا ذلك الدم الجامد مُضغة، أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يُمضغ كالغُرفة؛ وهي مقدار ما يُغترف، وسُمي التحويل خلقاً لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها، ويخلق أعراضاً غيرها فسمى خلق الأعراض خلقاً لها، وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.[62]" اهـ

وكما رأينا، فقد قالوا أن "الإنسان" في الآية هو آدم، ثم قالوا أن المراد من الإنسان هو آدم وبنوه، ثَم أعادوا الضمير على بنيه فقط! ولست أدري على أي أساس استبعدوا آدم والذي هو الأصل، فكان مستثنى؟!

أما على قولنا فلا إشكال، فالإنسان عامة بشكلي الخلق، خُلق من طين، ثم جُعل نطفة في قرار مكين، فكان الإنسان الأول نطفة في أرحام أرضية، وهي قراره المكين، والإنسان الثاني نطفة في بطون ألأمهات، ثم اشترك كلاهما في المراحل التالية له، بنفس الترتيب.

[62] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثالث والعشرون، ص. 74.

وبهذا لا نستخرج أحدا ولا نستثنيه، وتكون الآيات دالة على الشكلين، أما من يصر على استثناء آدم، فليخرج لنا دليلا من القرآن بطوله على اختلاف آلية الخلق بين الشكلين! فإذا قيل أن هناك آيات تتحدث عن خلق آدم من تراب، فهناك آيات تتحدث عن خلقنا من تراب، وإذا قيل أن هناك آيات تتحدث عن خلقه من الطين، فهناك آيات تتحدث عن خلقنا من الطين فقط! فما هو وجه الخلق الذي انفرد به آدم عليه السلام –في القرآن– ولم يُذكر معنا؟!

ثاني هذه الآيات هو قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢﴾]سورة الإنسان ,١-٢[

فكما لاحظ القارئ، فالله تعالى قال أنه خلق الإنسان من نطفة أمشاج، وآدم عليه السلام كان إنسانا، فكيف نستثنيه من الآية؟! اختلف المفسرون في المراد من الإنسان هنا، كما اختلفوا فيه في سورة المؤمنون، واستثنوا آدم بلا حجة! وتبعا لقولنا بالأرحام الأرضية لا حاجة بنا إلى الاستثناء، فنقول أن الإنسان الأول خلق من نطفة أمشاج موضوعة في رحم (بيضة) أرضي، والإنسان الثاني من نطفة أمشاج موضوعة في رحم أمه.

وإذا قلنا بالتمثالية تظهر إشكالية أخرى، بخلاف استثناء آدم عليه السلام، والذي انتبه إلى هذه الإشكالية هو الإمام الفخر الرازي، حيث قال: "اتفقوا على أن "هَل" ههنا وفي قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾] سورة الغاشـيـة ,١[بمعنى قد، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان، وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل وعظتك، هل أعطيتك. ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته[63]. (...) فإن قيل: إن الطين والصلصال والحمأ المسنون قبل نفخ الروح فيه ما كان إنساناً، والآية تقتضي أنه قد

[63] دعك مما يقوله الإمام الفخر الرازي! ف: *هل* ستظل أبد الدهر بمعنى الاستفهام. وأسأل: هل هذا الاستعمال مقبول أو معقول؟! إن الله تعالى لا يسأل لنجيبه، معاذ الله، وإنما يطرح السؤال، ليتفكر فيه الإنسان ويجيبه بنفسه لنفسه. ولكن المفسرون –وبكل ثقة– جعلوا الاستفهام تأكيدا، فلم يتفكر فيه المسلم!

مضى على الإنسان حال كونه إنساناً حين من الدهر، مع أنه في ذلك الحين ما كان شيئاً مذكوراً. قلنا: إن الطين والصلصال إذا كان مصوراً بصورة الإنسان، ويكون محكوماً عليه بأنه سينفخ فيه الروح وسيصير إنساناً صح تسميته بأنه إنسان.[64]" اهـ

وكما رأينا فإن إجابة الإمام الفخر الرازي غير شافية، فالتمثال في هذه الحالة هو تمثال وليس إنساناً بأي حال، أما إذا قلنا أنه كان همجا في أول خلقه، –وكان حياً يُرزق وليس تمثالا– فبهذا يكون بشراً وفي عين الوقت هو شيء غير مذكور، لأنه ليس له عقل ولم يُنفخ فيه من الروح بعد، ويتصرف كالحيوانات، فيكون شيئاً لا مذكورا.

ونكتفي بهذه الآيات، والتي تظهر وحدة الآلية في شكلي الخلق، مما يحتم علينا القول بخلق يتكون من تراب ثم يصير نطفة ثم علقة ... إلخ! وأعتقد أن هذه الطريقة لن تنطبق بحال على التمثال، أما من أصر على استثناء آدم عليه السلام من الآيات من أجل الروايات، فلن ينفعه أن نذكر له أي عدد كان من الآيات، لأنه سيصر على استثناء آدم دوما بحجة: إنه مستثنى!

وبقولنا هذا نكون قد حللنا أخيراً اللغز الأبدي: البيضة[65] والدجاجة، وبيّنا أن البيضة هي الأصل. وكنت أرى قديما أن الله تعالى خلق الدجاجة –الحيوان عامة– أولا، ثم أنتج هذا الحيوان الأجيال التالية، ثم ظهر لي بعد النظر في كتاب الله تعالى أن البيضة –بأشكال مختلفة– هي ما خُلقت أولا، ومن البيضة خرجت الكائنات، والتي أخرجت الأجيال التالية، والتي استمر بعضها في الخروج من البيضة، ولكنها صارت تخرج من الأم، وبعضها أصبح يخرج من بطن أمه!

---

(64) المرجع السابق، المجلد الثلاثون، ص.208.

(65) ندعو القارئ الكريم إلى أن يجري بحثا بالصور على الشبكة المعلوماتية، حول مراحل تكون الكتكوت في البيضة، وسيرى العجب العجاب في هذا الفرخ الذي يخرج من بيضة مستقلة عن الأم الدجاجة، بخلاف البشر والحيوانات، الذين يظلون على اتصال بأمهاتهم.

القرآن ومراحل خلق الجنين

نظرا لأننا نقول أن الإنسان مر في الأرحام الأرضية بنفس المراحل التي يمر بها الجنين العادي في بطن أمه، فمن البدهي أن نتكلم عن مراحل خلق الإنسان في بطن أمه، لنبين أن القرآن قد سبق في هذا التوجه، وأن توصيفه لمراحل الجنين هو توصيف دقيق أيّما دقة، ولنرد في عين الوقت على من يقول أن القرآن لم يأت بجديد في هذا المجال، وإنما أخذ من العلوم والمعارف التي كانت منتشرة في ذلك الوقت.

كما بيّنا في أول الكتاب، فإنه لا ينبغي أن نتوقع أن يستعمل القرآن الكريم مصطلحاتنا المعاصرة، وإنما يجب أن يستخدم توصيفا سليما للشيء، حتى يكون صالحا لكل زمان ومكان، مهما اختلفت الأسماء المطلقة عليه.

وهذا ما وجدناه في كل آيات القرآن، وليست آيات خلق الإنسان استثناء، فلقد استعمل القرآن معها أسماء، تصف بتطابق تام الحالة التي وجدت عليها، وأكثر هذه الآيات تفصيلا لمراحل الجنين هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا[66] ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [سورة المؤمنون, ١٢-١٤]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ

[66] اعترض بعض غير المسلمين على هذا التوصيف قائلا: لم نجد أبدا جنينا سقط عبارة عن هيكل عظمي، ولم يكن قد كُسي لحما! وهذا المعترض يخلط بين اللحم والجلد، فالقرآن يتحدث عن كسوة العظام لحما: عضلات! ومن البدهي أن هذه العضلات فوق العظم وتحت الجلد!

إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾] سورة الحج ,٥[

والناظر في مراحل الجنين في بطن أمه يجد أنه يأخذ نفس الأشكال التي ذكرها القرآن. ولقد اجتهد السادة المفسرون في تأويل الكلمات الواردة في هذه الآيات مثل نطفة وعلقة ومضغة[67]، تبعاً للأرضية المعرفية في عصورهم، فأصابوا جزءً من الحقيقة، وقدّموا تصوراً جزئيا لما قال به القرآن، إلا أن مدلولات الألفاظ القرآنية كانت أوسع بكثير مما يستطيعون تصوره.

ومع تقدم العلم، واستطاعته تصوير المراحل التي يمر بها الجنين، تبيّن أن التوصيف القرآني مطابقٌ تماما بشأن المراحل الأساسية التي يمر بها الجنين، وسبق في تسميتها باسم مطابق لها، بخلاف العلماء الذين كانوا يقسمون المراحل تقسيما زمنيا، تبعا لعدد الأسابيع التي قضاها الجنين.

ونوضح للقارئ الكريم بمثال: عندما تكلم القرآن عن خلق الإنسان تكلم عن عدد من المكونات مثل النطفة والعلقة والمضغة المخلقة وغير المخلقة، والسلالة والنطفة الأمشاج. وسنختار بعض هذه الألفاظ، ليعرف القارئ، هل يلوي أنصار الإعجاز العلمي ألفاظ القرآن في هذه المسألة، أم أنهم يقرأونها قراءة سليمة تبعا لمعارفنا الحديثة!

[67] المعترضون من المسلمين على الإعجاز العلمي في مراحل تكون الجنين يستندون إلى ما ورد في المعاجم اللغوية القديمة كمدلولات للكلمات المستخدمة، ونسى هؤلاء أن كل ما ذكره اللغويون في معاجمهم هو تبعا للسقف المعرفي لعصرهم، ونحن الآن ننشأ معاجم جديدة تبعا لسقفنا المعرفي، فهل نُحَكّم المعاجم القديمة أم الحديثة في القرآن؟! بداهة، لا هذا ولا ذاك، وإنما نُحَكم المعجم الذي يستعمل الاشتقاق الكبير: مقاييس اللغة، لأنه يرد اللفظة إلى الأصل اللغوي الذي أُخذت منه، ونوضح بمثال: يعترضون قائلين: إن كلمة *علقة* تعنى الدم الغليظ، فكيف نفهما بمعنى الدودة أو المعاني التي يذكرها أنصار الإعجاز العلمي؟! فنقول: ماذا يعني العلق عامة؟! إنه يعني التعلق، ومن ضمن المدلولات التي ينطبق عليها سمْت التعلق، ذلك الدم الغليظ الموجود في الرحم، لأنه كان متعلقا به، وعندما ينزل على الأرض يصبح اسمه سقطا أو دما ولا يُسمى علقة، لأنه لم يعد معلقا! لذا فيجب علينا أن نفهم اللفظة الواسمة لشيء طبيعي تبعا لهيئتها وليس تبعا للسقف المعرفي للعصر الذي كُتبت فيه المعاجم!!

إذا نظرنا في المعاجم بحثا عن كلمة "نطفة" وجدناها تذكر تحتها معان كثيرة، ما يهمنا منها في هذا السياق أنها تأتي بمعنى قطرة الماء، أو المتبقي من القطرات في الإناء. ولقد استعمل بعضهم كلمة النطفة كاسم للحيوان المنوي[68]، وهذا استعمال غير صحيح، واعتراض الآخرين عليه سليم، لأن وصف النطفة أو النطف لا ينطبق بحال مع سمت الحيوان المنوي. والمفردة القرآنية التي تنطبق مع الحيوان المنوي هي السلالة، والتي جاءت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [سورة السجدة ,٨] فالحيوان المنوي جُزيئ مسلول من المني، فهو خلاصة كل هذه الكمية المقذوفة، ولن نقول أنه يشبه السمكة الطويلة، والتي هي من معاني سلالة، وإنما سنكتفي بأنه مسلول من ماء مهين، فليس كل المني هو السبب في تكوين الإنسان[69]!

فإذا نظرنا في المدلولات التي ذكرتها المعاجم تحت كلمة أمشاج، –كما جاء في لسان العرب، لابن منظور– وجدناها تقول: "المَشْجُ والمَشِجُ والمشَجُ والمَشِيجُ: كل لَوْنينِ اخْتلَطا، وقيل: هو ما اختلط من حمرة وبياض، وقيل: هو كل شيئين مختلطين، (...) قال الفراء: الأَمْشاجُ هي الأَخْلاطُ: ماءُ الرجلِ وماء المرأَةِ والدمُ والعَلَقَة، ويقال للشيء من هذا: خِلْطٌ مَشِيجٌ كقولك خَلِيطٌ ومَمْشُوجٌ، (...) الأَصمعي: أَمْشاجٌ وأَوشاجُ غُزولٍ داخلٌ بعضُها في بعض؛ (...)" اهـ

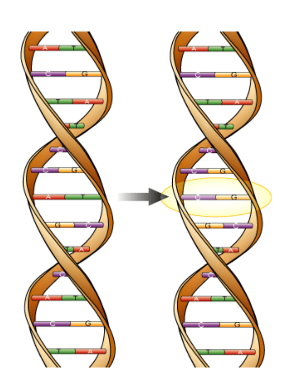
فإذا فهمنا أن النطفة الأمشاج هي الزيجوت = البييضة الملقحة، والتي هي نطفة، لأنه قطرة صغيرة جدا، وهي أمشاج لأنها خليط من ماء الرجل والمرأة، ولأنها تحمل

---

[68] يجتهد المتدبر في فهم المفردة القرآنية، وقد يصيب ويخطئ تبعا لمُكنته اللغوية، وقدرته على تمييز السمات الرئيسية للشيء، والتي تستحق أن تصيرا اسما له، لذا فلا يعني أن يخطئ بعضهم أن يكون كل من يفعل هذا يلوي أعناق النصوص! ومن الطريف أن موريس بوكاي –الطبيب الفرنسي– استطاع أن يفهم المقصود من كلمة مثل "سلالة" فهما صحيحا، فقال في كتابه: "أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية"، ص. 198: "وبالنسبة لكلمة "سلالة" فقد أتينا على ذكرها عندما تحدثنا عن تكوين الإنسان عند خلقه بدءاً من سلالة من طين، وكما رأينا فالأمر يتعلق بشيء استُخرج من شيء آخر، أو من أفضل جزء من هذا الشيء، وأمام ذكر هذا المبدأ لا يسعنا التفكير إلا بالحيوان المنوي!" اهـ

[69] لست أدري ما الذي دفع محمدا للحديث عن سلالة من ماء مهين! لا أعتقد أن المستوى العلمي في ذلك العصر كان يرفض أن يُخلق الإنسان من كل كمية المني الذي ينزلها الإنسان، مما دفع محمدا للحديث عن سلالة!

الكروموسومات: الصبغيات (وليتذكر القارئ أول معنى ذكره ابن منظور للكلمة: كل لونين اختلطا). ونقدم للقارئ الكريم صورة للكروموسومات، سآلينه أن يتذكر ما قاله الأصمعي في معناها: "أَمْشاجُ وأَوشاجُ غُزولٍ داخلٌ بعضُها في بعض"، وأن يقارن في ذهنه بين صورة الغزول الداخلة في بعضها وبين هذه الصورة.



فهل إذا فهمنا الكلمة بهذا المعنى الحديث نكون ممن يلوون أعناق الكلمات ويُحمّلونها ما لا تحتمل، أم أن هذا هو التصرف المنطقي؟ أم أنه يجب علينا أن نفهم الكلمات تبعا لما فهموه الأقدمون فقط؟!!

وعلى الرغم من دقة التوصيف القرآني فإن كثيرا[70] يجادلون في كون هذا التوصيف آية بيّنة، –على الرغم من أن المولى سبحانه ذكرها في آية سورة الحج، ردا على من هو في ريب من البعث– ويقولون أن هذا مأخوذ من المعارف المتاحة في هذا العصر.

وخير ما يُرد به على هؤلاء هو إلقاء نظرة عابرة على علم الأجنة عبر التاريخ الإنساني، ليعرف القارئ الكريم، كم كان هناك كثير من التصورات الخاطئة الساذجة بهذا الشأن، وكيف أن القرآن تجنّبها كلها، وأتى بتوصيفٍ تام الدقة لما يحدث في بطن الأم –ولما

---

(70) يجادل بعض المسيحيين الشرقيين ويقولون أن الكتاب المقدس قد سبق القرآن في القول بمراحل الجنين، ويستدلون بما جاء في سفر أيوب –مع حذف الكلمات غير المرغوب فيها، لتصبح الآيات دليلا لهم على قولهم!–، ونقدم للقارئ الكريم الآيات، التي يستدلون بها، كاملة، ليقارن بين ما قاله القرآن وبين ما جاء في الكتاب المقدس: "**10**: **8** يداك كونتاني وصنعتاني كلي جميعا افتبتلعني. **10**: **9** اذكر أنك جبلتني كالطين أفتعيدني إلى التراب. **10**: **10** ألم تصبني كاللبن وخثرتني كالجبن. **10**: **11** كسوتني جلدا ولحما فنسجتني بعظام وعصب"

وكما رأينا فشتان بين آيات تتحدث صراحة عن مراحل خلق الإنسان، وتقدمها كرد على من يشك في البعث، وبين من يخاطب بصيغة مجازية، ذلك الذي قد يبتلعه! ذلك الذي جبله كالطين!

حدث في باطن الأرض سابقا-. ولم تكن هذه التصورات الخاطئة منتشرة في زمن الرسول فقط، وإنما استمرت بعده لقرون طويلة، ورفضها المسلمون استنادا لما ورد في الكتاب والسنة، ثم جاء العلم الحديث فأكد ما سبق به القرآن.

ويقدم لنا الشيخ عبد المجيد الزنداني ملخصا لهذه التصورات التي كانت منتشرة حتى وقت قريب، فيقول: "لقد استمرت هذه الظنون الخاطئة متداولة عند كثير من العوام والحكماء أكثر من ألف وثلاثمائة سنة بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث كان الفهم أن نموالأجنة يستند إلى مبدأين:

المبدأ الأول: نظرية الخلق المسبق (preformation theory) والتي تعني أن الجنين إنما يكون على هيئته في رحم الأم من البداية، ثم يكبر حتى اكتمال نموه.

المبدأ الثاني: نظرية الخلق المنفرد: أي أنه إنما ينشأ من أحد الأبوين لا كليهما.

والذين قالوا بهذا القول الأخير قد إنقسموا إلى فريقين:

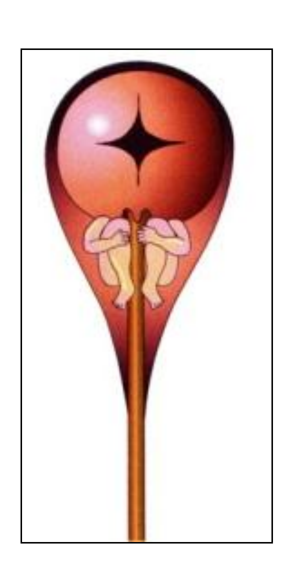
الفريق الأول يقول إن منشأ الجنين إنما يكون من الأم، وليس للرجل دور سوى أنه يتسبب فى بدء النمو. وقد انقسم هؤلاء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أنه ينشأ من دم الحيض. وقد استقر هذا المبدأ عند الكثيرين قبل وبعد الإسلام بسنوات طويلة، ومن العجيب أنه حتى بعض علماء الإسلام ممن ليس لهم باع طويل في التفسير الصحيح والسنة الصحيحة قد تأثروا بذلك الزعم وشاركوا فيه. ولكن الراسخون في العلم من علماء الكتاب والسنة ردوا القول على قائله بما عندهم من العلم. (...)

القسم الثاني: أن الجنين إنما هو إفرازٌ من الرحم، وأول من نادى بهذا هوالعالم هارفى 1651 حين نظر فى رحم غزالة، فوجد فيها جنيناً معلقاً بالرحم، فظن أنه إفراز من الرحم.

القسم الثالث: قالوا إن الجنين موجود على هيئته فى بويضة الأنثى، ثم يكبر بسبب الرجل، والذى نادى بهذا الرأى هوالعالم ملبيجى 1675.

الفريق الثانى من علماء الغرب اعتقدوا أن الرجل هو وحده مصدر الجنين، ثم يكبر في رحم المرأة وتبنى هذا الرأى العالمان هرمان ولوينهوك Herman and Leuenhoch، وذلك بعد أن نظرا فى الحيوانات المنوية وتصورا وجود طفلاً فى رأس الحيوان المنوى ورسما لذلك رسماً مضحكاً بالنسبة للعلماء والعامة فى عصرنا هذا.[71]" اهـ



صورة للحيوان المنوي بداخله جنين، كما كان متخيلا في القرن السابع عشر!

وأعتقد أن فيما ذكرناه الكفاية في الرد على من يقول أن القرآن كان يأخذ من معارف ذلك الزمان، والتي لم نجد فيها أثرا لذكر هذه المراحل!!

[71] من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة إسلام آباد – باكستان، أكتوبر سنة 1987م.

هل سيرفضون ما يقولون به؟

بعد أن بيّنا أن القرآن أتى بأوصاف علمية صحيحة في مسألة خلق الإنسان، وأنها أوصاف دقيقة، وليست مجرد حديث تابع للمستوى الفكري الموجود في ذلك العصر، نطرح السؤال الحاسم: هل سترفضون ما تقبلون به؟

فكما رأينا لقد تحرك أنصار الإعجاز العلمي تحركاً سليما، وأسقطوا الأوصاف القرآنية المتعلقة بمراحل خلق الإنسان على المقابلات السليمة لها في الطبيعة، موسعين دائرة ما ذكره الأقدمون في فهمها، بل ورافضين له أحيانا.

ولقد تقبّل المسلمون هذا الصنيع ووافقوا عليه، ونحن لم نزد على ما فعله هؤلاء، سوى أننا جعلنا الآيات تُسقط على شكلي الخلق، في الأرض وفي الرحم، لأننا لم نجد فاصلا[72] يوضح أن الحديث عن شكل واحد للخلق فقط ويخرج الآخر، وإنما الحديث عن الخلق بشكل عام، ومن يريد أن يستثني الخلق الأول من هذه الآيات، فليخرج لنا دليلا على أن الآيات تتكلم عن الشكل الثاني فقط!

ونعيد سؤالنا مرة أخرى: لماذا تتقبلونها في الجنين وترفضونها إذا أسقطناها على الخلق الأول، وتعدّونها من التمحكات ومن التأويلات الممجوجة؟!

ونطرح السؤال بشكل آخر: هل قبولنا أقوال أنصار الإعجاز العلمي في آيات خلق الإنسان هو عن اقتناع بأن آي القرآن قد سبقت بتقديم هذا الوصف، أم لأن خلق الإنسان من الحيوان المنوي والبويضة أصبح حقيقة علمية لا جدال فيها، ولم تعد أقوال المفسرين كافية لتأويل هذه الآيات، ومن ثَم فلزامٌ علينا أن نفسرها تفسيرا جديدا، حتى لا يكون هناك تعارضٌ بين القرآن والعلم؟!

[72] إلا الآيات التي ظهر فيها صراحة أن الحديث عن الخلق الأول فقط، أو عن الخلق الثاني فقط، وهذه لم نستدل بها!

فإذا كنت ترفض حاليا أن يكون الإنسان قد خلق من المني كله، وتؤمن جازما بأن الإنسان قد خُلق من حيوان منوي واحد وبييضة واحدة، فلماذا تتقبل أن يكون الإنسان الأول قد خُلق من تمثال من الطين؟!!!

إبطال التمثالية

بعد أن بيّنا للقارئ الكريم أن القرآن يتحدث عن شكلين للخلق بآلية واحدة، قد تظل بعض الشكوك عالقة بذهنه بخصوص تصور خلق آدم عن طريق تمثال، تحول إلى بشر بنفخة الروح[73]، لذا نُبين له أن القرآن الكريم قد أبطل وقوع الخلق بهذه الطريقة.

وعلى الرغم من أن كل الآيات السابقة عن شكلي الخلق بآلية واحدة تنفي ذلك، فإن الآيات التي تتحدث عن خلق إنسان تنفي التمثالية، ونفصل فنقول: عندما أخبر الله تعالى الملائكة عن خلق الإنسان قال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [سورة ص ,٧١] فكما هو ظاهرٌ جلي، فإن الله تعالى يتحدث عن خلق بشر من طين. ونسأل: ما هو البشر؟ أو: علاما تطلق كلمة: بشر؟ باختصار إنها تُطلق على ذلك الكائن الحي المعروف بالإنسان، ولا تُطلق بحال على الجمادات! لذا لو كان الحديث عن تمثال لقال المولى: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ صورة[74] مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُا وَنَفَخْتُ فِيهِا مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهِا سَاجِدِينَ" والمولى لم يقل هذا، وإنما يتحدث عن بشر، والبشر كائن حي وليس تمثالاً بحال، وهذا يعني أن التسوية والنفخ فيه من الروح وقعا بعد أن كان حيا. ولما كان هذا سيسبب إشكالية كبرى للمفسرين

[73] تأثر الكاتب الإيطالي كارلو كولودي (1826–1890م) بهذا التصور التوراتي كثيرا عند كتابته قصته الشهيرة "بينوكيو"، والفارق أنه جعل الطفل –الذي صنعه النجار– من خشب بدلا من طين!، ثم أتت الساحرة الطيبة فحولته إلى طفل حقيقي! ولربما ابتعد عن جعله من طين، حتى لا يُرمى بالإلحاد، أو بالأخذ المباشر من التوراة!

[74] لن يكون الحديث عن "تمثال" لأن التمثال ما هو إلا مثال لشيء، ولم يكن هناك بشر حتى يكون هناك تمثال له! وإنما ستُستعمل كلمة "صورة" لأنها تعطي دلالة على "شيء مجسم" كائنا ما كان!

في العصور القديمة، إذ أن نفخ الروح عندهم هو سبب الحياة، جعلوا البشر يعني تمثالا أو صورة، ولا حرج!

والقرآن –كلمة الله– كتابٌ لا تعوزه الدقة، فعندما حكى الله تعالى قول سيدنا عيسى لقومه مُعددا آياته، قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ[75] فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٤٩﴾ [سورة آل عمران, ٤٩] فسيدنا عيسى يتحدث عن تشكيله قطعة من الطين على هيئة طير، فينفخ فيها فتتحول القطعة المشكلة إلى طير. –ونلاحظ أنه لم ينفخ فيها من الروح، حتى لا يُسقط القارئ هذه الطريقة على خلق الإنسان!–

ولأن الحديث عن قطعة مشَكّلة من الطين على شكل الطير قال: "كهيئة الطير" ولم يقل: أخلق لكم من الطين طيراً فأنفخ فيه فيصير طيراً! وبما أن الله تعالى لم يقل: "إني خالق كهيئة البشر، فإذا سويتها ..."، وإنما قال: "خالق بشرا" فلا يمكننا أن نجعل: "خالق بشرا" = "خالق كهيئة البشر"، وإلا لكنا من المتقولين على الله عز وجل، الذين يجعلون كلمة "البشر أو الإنسان" تُطلق على التماثيل!!

إن كثيرا من المتقبلين للتصور التمثالي يستندون –لا شعوريا– إلى آية خلق الطير من الطين على يد سيدنا عيسى، وهذه الآية هي أكبر دليل على الفرق، فما فعله سيدنا عيسى كان آية له، بينما خلْقُ الله خلقٌ سُنيا!

وختاما نقول: لقد أضاع القائلون بالتمثالية مرحلة التسوية، فلم يذكروا فيها فعلاً لله عزوجل، فلقد قالوا أن الله تعالى ترك آدم مُلقاً أربعين سنة من يوم الجمعة أمام الجنة! ثم نفخ فيه الروح، فهل التسوية التي كان الله تعالى يخبر بها الملائكة هي مجرد الترك،

[75] لجمعية التجديد الفضل في لفت انتباهنا إلى أنها دليل لقولنا وإلى بطلان الاستدلال بهذه الآية على طريقة الخلق التمثالية!

–والذي ليس بفعل– حتى يُنفخ فيه الروح؟! ربما كانت التسوية هي ترك التمثال ليختمر!!!

خلق فردي أم جماعي؟!

بعد أن بيّنا للقارئ أن آلية الخلق في القرآن واحدة، وإن كان بشكلين اثنين، وأظهرنا تهافت التمثالية، قد يقول القارئ: قد يكون قولك صوابا في هذه المسألة، ولكنك تقول بخلق بدأ بشكل جماعي، والقرآن يتكلم عن خلق بدأ بشكل فردي، كفرد خُلق منه زوجه، ولقد جاء هذا صريحاً في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [سورة النساء, ١] فالله تعالى يتحدث عن خلق نفس واحدة، ومنها خُلق زوجها، وبث منهما أولادهما، فكيف لا يكون هذا دليلا على الخلق الفردي؟!

وقبل أن نرد على هذا الاعتراض، نعرض أولاً رأيا مختلفاً ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره عند تناوله لهذه الآية، ثم ندلي بسجْلنا في الموضوع: "والقول الثاني، –وهو اختيار أبي مسلم الأصفهاني[76]–: أن المراد من قوله: ﴿... وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ۝١﴾]سورة النساء, ١[أي من جنسها؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ... ۝٧٢﴾] سورة النحل, ٧٢[وكقوله: ﴿... إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ... ۝١٦٤﴾] سورة آل عمران, ١٦٤[وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ

[76] أبو مسلم بن بحر الأصفهاني (254–322 هـ) من العبقريات الإسلامية الفذة، التي يندر تكرارها، والتي تستحق بحق أن تُنعت ب: كان سابقا عصره بأزمان! كان كاتبا بليغا أديبا مسترسلا، وكان رحمه الله مجادلا لا يُشق له غبار، ولم يُكتب لأبي مسلم ولا لآرائه الاشتهار ليس لأنه كان من المعتزلة، وإنما لأنه أتى بما خالف المعهود والمألوف في زمانه، مثل إنكاره وقوع النسخ في الشريعة الإسلامية مطلقا! وله في تأويل القرآن كتاب: جامع التأويل لحكم التنزيل، في أربعة عشر مجلدا، ولم يصلنا، ولولا أن الإمام الفخر الرازي كان ينقل بعض آراءه في تفسيره لما رأينا طرفاً من عبقرية هذا العلامة! رحمه الله رحمة واسعة!

... ﴿١٢٨﴾] سورة التوبة ,١٢٨[. قال القاضي: والقول الأول أقوى، لكي يصح قوله: "خَلَقَكُمْ مّن نَّفْسٍ واحدة" إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء، لكان الناس مخلوقين من نفسين، لا من نفس واحدة، ويمكن أن يجاب عنه بأن كلمة «من» لابتداء الغاية، فلما كان ابتداء التخليق والايجاد وقع بآدم عليه السلام صح أن يقال: خلقكم من نفس واحدة، وأيضا فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب، كان قادرا أيضا على خلق حواء من التراب، وإذا كان الأمر كذلك، فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟ (...) بث منهما: يريد فرق ونشر، قال ابن المظفر: البث تفريقك الأشياء، يقال: بث الخيل في الغارة وبث الصياد كلابه، وخلق الله الخلق فبثهم في الأرض، وبثثت البسط إذا نشرتها، قال الله تعالى: "وَزَرَابِيّ مَبْثُوثَةٌ" قال الفراء والزجاج: وبعض العرب يقول: أبث الله الخلق. (...) المسألة الثانية: لم يقل: وبث منهما الرجال والنساء[77]" اهـ

بعد أن عرضنا للقارئ الكريم رأي أبي مسلم الأصفهاني والذي كان يرى أن حواء خُلقت خلقا مستقلا، ولم يكن متقبلا لمسألة الضلع، نسأل: عندما يتحدث القرآن عن الخلق عامة، بغض النظر عن كون المخلوق إنسانا أم غيره، هل يتحدث عن خلق فردي أم خلق جماعي؟ إذا نظرنا في القرآن كله وجدنا أنه يتحدث دوما عن الخلق بشكل فردي، على الرغم من أنه يريد الجمع، فيستعمل ألفاظا تتكلم عن الجنس، مثل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾] سورة الذاريات ,٤٩[فهل خلق الله تعالى زوجين فقط من كل شيء، أم أنه يقصد الذكر والأنثى والموجب والسالب ... إلخ؟

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ ... ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾] سورة الأنعام ,١٤١-١٤٣[فالله تعالى يتحدث

[77] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد التاسع، ص. 131–132.

عن إنشائه جنات ثم يتكلم عن ثمانية أزواج من الأنعام، فهل خلق الله تعالى عدد ثمانية أفراد، أم أنه يتكلم عن ثمانية أزواج من الذكور والإناث[78]؟! قد يقول قائل: وما المانع أن يكون كل الخلق قد بدأ مثل سيدنا آدم وحواء، فمن زوجين اثنين خرجت كل الأجيال التالية؟! نقول: بغض النظر عن أن هذا القول يعني أن الله تعالى سيخلق تماثيل ثم يحولها إلى كائنات يأخذ من ضلوعها أو من أجزاء أخرى الإناث، فإن كتاب الله ينفي هذه الاحتمالية ويؤكد أنه يقصد الجنس وليس أفرادا[79]! بهذا العدد، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة الرّعد ,٣] **فالله تعالى يتحدث على أنه جعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين، فهل نرى زوجين فقط من الثمرات، أم زوجين اثنين بأعداد هائلة؟!**

فنخرج من هذا بأن المراد من قوله تعالى هو الجنس وليس العدد الفرد. قد يقول قائل: إذا غضضنا الطرف عن هذه النقطة، ماذا نفعل في قوله تعالى: "وخلق منها زوجها"؟ ألا يدل هذا على أن حواء خُلقت فعلا من آدم؟ نقول: كما قلنا سابقا، لا توجد أي مزية اختلف بها الإنسان الأول عنا، فإذا كان الحديث هنا عن أنه خلق منها زوجها، فالمراد هنا أنه خلق من جنسها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

[78] نحن نستعمل في العامية المصرية كلمة زوج استعمال غير صحيح، فالزوج في اللسان واحد وليس اثنين، ولا يصير زوجاً إلا بوجود آخر من جنسه، والزوجين هما اثنان ذكرا وأنثى وليس أربعة!

[79] نذكر استئناسا ما جاء في التوراة، والتي نجد فيها أنها تحدثت أولا عن خلق جماعي، ثم انتقلت للحديث عن آدم وحواء، فنجد أنها استعملت ضمير الجمع، في الإصحاح الأول من سفر التكوين: "1: 26 وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. 1: 27 فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم. 1: 28 وباركهم الله وقال لهم: اثمروا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض"

ثم عادت فاستعملت ضمير الإفراد في الإصحاح الخامس، فقالت: "5–1 هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله 5: 2 ذكرا وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق ..."

فيكون هذا دليلا إضافيا على أن الخلق بدأ بشكل جماعي، ومن بين هؤلاء البشر المخلوقين اصطُفي آدم.

لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾] سورة الروم ,٢١[فهل خُلقت النساء من الرجال؟ واستُخرجت الرجال من النساء؟ أم أن الحديث هنا عن الخلق بشكل سُنّي (طبيعي) من نفس الجنس؟!

والذي يؤكد أن المراد من النفس الواحدة وزوج هو الجنس وليس العدد الفرد، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾] سورة الأعراف ,١٨٩-١٩٠[فهما يدعوان الله أنهما سيكونان من الشاكرين، وهذا يعني أن هناك غيرهما من الشاكرين والجاحدين، ثم يختم الله تعالى بصيغة الجمع!

وبعد أن بيّنا أن قاعدة الآلية الواحدة في الخلق لا تزال ثابتة وصالحة مع آيات الخلق من النفس الواحدة، وأن الحديث هنا عن الجنس وليس عن الأفراد! نبيّن للقارئ كيف نفهم هذه الآية: ليس المراد من النفس الواحدة في الآية –والله أعلم– الإنسان الأول الذكر، وإنما أمر آخر أصغر بكثير، وهو الخلية، –فالنفس هي كل كائن حي يتنفس بدءا من الخلية البسيطة وانتهاءا بالإنسان– والتي بدأت بالانقسام، فكان منها زوجها، واستمر هذا الانقسام إلى أن كمل الإنسان وخرج من الأرض[80]. يدلل على هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾] سورة الأنعام ,٩٨[فعامة المفسرين على أن المراد من المستقر والمستودع الأرحام والأصلاب، باختلاف في جعل أيهما المستقر وأيهما المستودع، ولكن الشاهد أنهم بدلا من أن يجعلوا النفس الواحد هي الحيوان المنوي أو النطفة جعلوها آدم عليه السلام! ويدلل على فهمنا الآيات السابقة والتالية لهذه الآية، والتي

[80] وحتى إذا رفض القارئ هذا الفهم، فلا حرج في أن يفهمها على أن المراد من ذلك هو أن المراد من النفس الواحدة الذكور، وبعد ذلك كانت الإناث، ولهذا كانت الرجال في الآية: كثيرا: "وبث منهما رجالا كثيرا ونساء"، بينما لم تذكر الصفة مع النساء .

قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ... وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾ [سورة الأنعام, ٩٥-٩٩]

فالآيتان السابقتان تتحدثان عن فلق الحب والنوى، وكيف أنهما يصيران زروعا كبيرة، وكيف أن الله تعالى يخرج الحي من الميت والميت من الحي، وكيف أن الله تعالى فالق الإصباح وجاعله صبحين! والآية التالية تدور في نفس الفلك، أفلا يكون من الأولى أن نحمل الآية المذكورة بينها على نفس النسق، فيكون الحديث عن النفس الواحدة –خلية/حيوان منوي– التي تنقسم وتصير إنسانا كما صار الحب والنبات زروعا وأشجارا، بحيث تسير الآية بترتيب طبيعي يحتمه حرف الفاء؟!

وإذا غضضنا الطرف عن الجزء السابق من آية النساء، فإن الجملة القادمة كفيلة لتقبل ما نقول به، فالله تعالى يقول فيها: ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ... ۝١﴾ [سورة النساء, ١] فنجد أولاً أن الله تعالى يتحدث عن البث، والبث كما جاء في المقاييس، هو تفريق الشيء وإظهاره. والناظر في القرآن كله يجد أن البث مرتبطٌ بغير العاقل، فلقد جاء مع الدواب في أربع آيات، أهمها قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [سورة الجاثية, ٤] فنحن نُخلق والدواب –لا تزال– تُبث إلى قيام الساعة، كما جاء في ثلاث آيات أخرى مرتبطة بالفراش والهباء والزرابي[81]، وكلها غير عاقلة، فإذا قلنا أن البشر المبثوثين في هذه الآية غير عاقلين، يكون لنا مستندا في فهمنا!

---

[81] بينا في تناولنا لسورة الغاشية على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com أن المراد من الزرابي هو الحيوانات التي تُربى في الزريبة وليس السجاد!

كما أن قوله تعالى: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ يسبب لهم إشكالية كبرى، فإنهم يقولون أن المراد منهم ولد آدم[82]، ومن المعلوم أن الناس لا تلد رجالا ونساء، وإنما تلد أطفالا! أما إذا فهمنا الآية تبعاً للشكل الذي نقول به تُحل الإشكالية، فنحن نقول بخلق خلية غُرست في رحم أرضي، ومن هذه الأرحام خرج البشر الأوائل بالغين، رجالا ونساء، وبهذا لا يكون هناك أي إشكال في الآية.

وفي الختام نقول: إن العلم يقول إن تزاوج الأقارب يؤدي إلى تراكم الجينات غير المرغوبة، مما يؤدي إلى ظهور أجيال ضعيفة، ولقد ورد في الأثر ما يحث على الاغتراب في النكاح. فإذا قلنا أن البشرية بدأت بنكاح أخوة لكان من المفترض أن ينقرض الجنس البشري بعد عدة أجيال من بدأه!

والعلماء يتحدثون عن عدد أدنى من الأزواج يبدأ به الجنس البشري، حتى تحدث تنحية للصفات غير المرغوب فيها، وتثبت الصفات المطلوبة وتعم، أما لو بدأت بزوج واحد فهذا يعني لا محالة أجيال من المرضى!

آية الاصطفاء

بعد أن ذكرنا للقارئ الكريم أدلة على أن الخلق بدأ بشكل جماعي، نذكر أدلة تؤكد أنه كان هناك بشرٌ مع آدم وزوجه، فلم يكونا بمفردهما.

الدليل الأول هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة آل عمران, ٣٣-

[82] انتبه الإمام الفخر الرازي إلى إشكالية أخرى وهي أن الله تعالى قال: رجالا كثيرا ونساء، ولم يقل: الرجال والنساء، وحاول أن يقدم لها تبريرا، أما نحن فنقول: هذا لأن الذين خرجوا منها رجالا ونساء نكرات، غير مذكورين –كانوا في المرحلة التي كان فيها الإنسان شيئا غير مذكور– كما أنهم ليسوا الرجال والنساء الذين نراهم ونقابلهم في تعاملاتنا، لذلك استعمل النكرة، والله أعلى وأعلم.

٣٤] والآية مهما قرأها القارئ الكريم وسمعها آلاف المرات، ولكنه يفهمها على خلاف ما تقول، فالله تعالى يقول أنه اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران، إلا أن عقل القارئ الكريم يستثني بطريقة تلقائية آدم عليه السلام من الاصطفاء، فيجعله خارج الاصطفاء، ويجعل هؤلاء مصطفين من ذريته!

وعلى الرغم من أن الله تعالى قال أنهم: ذرية، فإن عقل القارئ يجعلهم كلهم من ذرية آدم، ويستثنى آدم كذلك من الذرية! -ولقد كنت استثنيه أيضا في تصوري السابق، وكنت أقول أنه ممن خرجوا من الأرض مباشرة-، ولكن الله تعالى قال أنهم ذرية! فيحق لنا أن نتساءل: كيف اصطفى الله تعالى آدم عليه السلام، وكيف كان ذرية؟! سببت هذه الآية إشكالية للمفسرين، فكيف يُصطفى آدم وهو بمفرده؟!

ومن التبريرات التي قُدمت ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره، حيث قال: "إذا عرفت هذا فقوله: "إِنَّ الله اصطفى آدَمَ وَنُوحًا" معناه: إن الله تعالى اصطفى آدم إما من سكان العالم السفلي، -على قول من يقول: الملك أفضل من البشر-، أو من سكان العالم العلوي، -على قول من يقول: البشر أشرف المخلوقات-، ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم عليه السلام، هم شيث وأولاده، إلى إدريس، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم حصل من إبراهيم شعبتان: إسماعيل وإسحاق (...) المسألة الثانية: في تأويل الآية وجوه: الأول: ذرية بعضها من بعض في التوحيد والإخلاص والطاعة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ ... ٦٧﴾] سورة التوبة ,٦٧[وذلك بسبب اشتراكهم في النفاق. والثاني: ذرية بعضها من بعض، بمعنى أن غير آدم عليه السلام كانوا متولدين من آدم عليه السلام، ويكون المراد بالذرية من سوى آدم وآدم كذلك لآية الأنعام.[83]" اهـ

[83] المرجع السابق، المجلد الثامن، ص. 20.

وعلى الرغم من احترامنا لما كتبه الإمام الفخر، إلا أنه لم يوضح لنا كيف اصطُفي آدم على العالمين[84]! إن الاصطفاء لا يكون إلا من وسط موجودين، فلا يُقبل أن أخاطب تلميذا وحيداً في الصف قائلا: لقد اخترتك على زملائك؟ فأين هم زملائه حتى اختارهم عليه؟! أما إذا قلنا أنه كان هناك بشرٌ آخرون مع آدم، واصطفى الله تعالى آدم من بينهم، فيكون للكلام معنى مقبول، ولا نحتاج إلى أي استثناء!

كذلك يحق لنا الاعتراض على ما قاله الإمام الفخر الرازي، بأن المراد من الذرية ما سوى آدم، فلقد قال الله تعالى أنهم ذرية، فكيف نقول نحن: كلهم ذرية إلا آدم، قل أأنتم أعلم أم الله؟!

وإذا كان الأقدمون قد قالوا بهذا، لأن التصور التوراتي كان هو التأويل الوحيد للآيات، فكيف لنا أن نصر على قولهم، على الرغم من وجود تأويل آخر يأخذ الآيات كما هي؟!

تخصيص الذرية

ليست آية الاصطفاء هي الدليل الوحيد على وجود بشر مع سيدنا آدم، وإنما هناك آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَـٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحۡمَـٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾ [سورة مريم ,٥٨]

وقبل أن نستخرج الدليل منها، نسأل القارئ: ماذا يحدث لو وجدتَ لافتة معلقة على باب متجر، مكتوبٌ عليها: "ليس للمتجر فروع أخرى"

[84] ليس المراد من العالمين الكون أو كل ما سوى الله كما يظن كثير من القراء، ف "العالمين" وإن كانت جمع عالم إلا أن المراد من العالم هو ما يُعرف في لغتنا الحديثة بالمجتمع، فالعالمين مجتمعات الناس! ويمكن للقارئ الكريم أن يتابع تناولنا لمصطلح العالمين على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

ثم وجدتَ لافتة على مدخل متجر آخر، مكتوب عليها:

"ليس للمتجر فروع أخرى في القاهرة"

ستفهم أن المتجر الأول ليس له أي فروع في أي مكان، وستفهم أن المتجر الآخر له فروع في مدن أخرى غير القاهرة، أما في القاهرة فهذا المتجر هو المكان الوحيد الذي يخصهم.

وهذا الدليل يسميه العلماء: "دليل الخطاب"، فعندما أحدد الشيء بوصف معين، فهذا دليل على وجود آخرين مخالفين في هذا الوصف، فلو قلت: رميت كرة الثلج الأبيض. لأصبح الكلام حشوا، لأنه لا يوجد ثلج إلا وهو أبيض! فهذا الوصف زائد لا فائدة منه! أما لو قلت: ركبت الحصان الأبيض. فلا إشكال ولا حشو، لأن هناك أسمر وأحمر ... إلخ، وبهذا الوصف حددت أي حصان ركبت.

فإذا طبقنا دليل الخطاب على الآية، وجدنا أنها تقول أن هناك ذريات من غير آدم، لأنه لو لم يكن في البشر ذريات من بشر غير آدم، لأصبح الكلام حشوا! مثل: الثلج الأبيض، فما فائدة تحديد نسبة الأنبياء إلى آدم؟ أليس كل البشر منه؟! إن هذا القول شبيه بتاجر يمسك قطعة من الملابس ويفتخر قائلا: بضاعتي مختلفة، إنها إنتاج مصنع المحلة! وكل ما في السوق هو من إنتاج هذا المصنع! فما المزية التي تميزت بها هذه القطعة، حتى تكون مختلفة؟!

أما إذا قلنا إن البشر أتى من ذريات عديدة، وإن كل الأنبياء أتوا من نسل سيدنا آدم عليه السلام، –وبداهة، معهم غيرهم كثيرون من غير الأنبياء، ولكن لم يأت نبي من غير ذرية هذا الرجل– فكلهم أتوا من نسب واحد، فتكون الآية قد حددت نسب الأنبياء، وكيف أنهم نسلٌ مختار، يحمل مواصفات معينة، مُعدٌ من أول البشرية، مؤهلٌ لتحمل الرسالة.

آية الخليفة

بعد أن بيّنا للقارئ الكريم أن آلية الخلق في القرآن واحدة، وأن القرآن الكريم يتحدث عن الخلق الجماعي مشيرا إلى الجنس وليس إلى الأفراد، وكيف أنه ذكر وجود آخرين مع آدم عليه السلام، ننتقل إلى آية توضح كون البشر في أول الخلق لا يمتلكون إلا قدرات علقلية بدائية (همج)، قبل أن ينفخ الله فيه من الروح فيصبح خليفة. وهذه الآية هي أول ذِكرٍ لبدء الإنسان والإنسانية ولآدم عليه السلام في القرآن كله، ولقد جاءت هذه القصة في تسع آيات بينات! نحتاج منها فقط الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [سورة البقرة, ٣٠]

وسنؤجل تناول باقي آيات قصة آدم عليه السلام إلى الباب القادم، ونكتفي بتناول آيتنا هذه: تبدأ الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ... ٣٠﴾ [سورة البقرة, ٣٠]، والظاهر أن الله تعالى يخبر الملائكة أنه "جاعل" خليفة، وأن الله تعالى يتكلم عن "الجعل" بصيغة اسم فاعل، كما أن الآية تتحدث عن الجعل وليس عن الخلق، والجعل –كما هو معلوم– تغيير من حالة إلى حالة، وليس إنشاء شيء جديد، فعندما خاطب الله تعالى سيدنا إبراهيم في قوله: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا ... ١٢٤﴾ [سورة البقرة, ١٢٤] كان يتحدث عن تغيير حالة سيدنا إبراهيم إلى إمام، فسيدنا إبراهيم كان موجودا ثم تغير مقامه فأصبح إماما. وتتبع صيغة "جاعل" في القرآن كله (البقرة، آل عمران والكهف والقصص وفاطر) تجد أنها كلها بمعنى تغيير الحالة إلى حالة أخرى!

وقارن آية الخليفة بقوله تعالى "جاعلك ... إماما"، تجدهما متماثلتين، فالآية تقول أن الله تعالى يخبر الملائكة أنه جاعل[85] –شيئا ما، غير محدد، فلم يذكر الله تعالى لهم في قوله ما هو– خليفة! إلا أن الملائكة تعرف ما هو المجعول، وتعرف حاله لذا تتعجب الملائكة وتسأل: ﴿... أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... ﴿٣٠﴾﴾ [سورة البقرة, ٣٠] والآية واضحة لا تحتاج إلى تعليق، فلقد بينت أن ذلك المجعول خليفة هو بشر، فالملائكة تسأل الله: أتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء، وهذا يعني أن الملائكة كانت ترى ذلك المجعول خليفة يفسد في الأرض ويسفك الدماء، لهذا تساءلت لمّا أخبرها الله تعالى بهذا! لا أنها كانت تعترض على الله أو أنها اطلعت على الغيب!

وقارن هذه الآية بقولنا: أتجعل من يلعب ويقامر مديرا، وأنا أجتهد في خدمتك وطاعتك؟! هل تفهم منها أنني أتحدث عن إنسان رأيت فعله، وأقارن بين فعله وفعلي، أم عن شيء سيحدث في المستقبل؟!

ولقد سببت هذه الآية إشكالية للمفسرين، لأنهم يقولون أن آدم عليه السلام هو أول من خُلق، وخُلق بالتصور التوراتي، ولم يكن معه أحد! لذلك فسروا الآية بغير ما تقول! فجعلوا "جاعل" بمعنى: "سأخلق" لا بمعنى: مُحول أو مغير. وجعلوا: "من يفسد" بمعنى "من سيفسد"، ولم يجعلوا آدم هو من سيفسد وإنما بعضاً من ذريته!

ولم يأت حديث عن النبي الكريم يحل هذه الإشكالية، وإنما اجتهد الصحابة والتابعون في حلها، ومن ذلك ما أورده الإمام الطبري في تفسيره: "قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: وكيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"، ولم يكن آدمُ بعد مخلوقًا ولا ذُرّيته، فيعلموا ما يفعلونَ عيانًا؟ أعلمتِ الغيبَ فقالت ذلك، أم قالت ما قالت من ذلك ظنًّا؟ فذلك

---

[85] لاحظ أن سبحانه لم يقل: سأجعل في الأرض خليفة، كما قال في سورة مريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [سورة مريم, ٩٦]، وإنما قال: جاعل.

شهادة منها بالظنّ وقولٌ بما لا تعلم. وذلك ليس من صفتها. أمْ ما وجه قيلها ذلك لربها؟ قيل: قد قالت العلماء من أهل التأويل في ذلك أقوالا. ونحن ذاكرو أقوالهم في ذلك، ثم مخبرون بأصحِّها برهانًا وأوضحها حُجة. فروي عن ابن عباس في ذلك ما: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حَيٍّ من أحياء الملائكة يُقال لهم "الحِنّ[86]"، خُلقوا من نار السَّمُوم من بين الملائكة. قال: وكان اسمه الحارث، قال: وكان خازنًا من خُزَّان الجنة. قال: وخُلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحيّ. قال: وخلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارِج من نار – وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا ألهبت. قال: وخُلق الإنسان من طين. فأوّل من سكن الأرضَ الجنُّ. فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضًا. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة –وهم هذا الحي الذين يقال لهم الحِن– فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه. وقال: "قد صنعتُ شيئًا لم يصنعه أحد"! قال: فاطَّلع الله على ذلك من قلبه، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه. فقال الله للملائكة الذين معه: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة". فقالت الملائكة مجيبين له: "أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفِك الدماء"، كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بُعثنا عليهم لذلك. فقال: "إني أعلم ما لا تعلمون"، يقول: إني قد اطلعتُ من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه، من كبره واغتراره. قال: ثم أمر بتُربة آدم فرُفعت، فخلق الله آدم من طين لازب. [87]"اهـ

فما ورد في هذه الرواية كان عن ابن عباس رضي الله عنه –إذا صح الأثر عنه– هو مما أخذه عن أهل الكتاب، وما هي إلا محاولة لرفع إشكالية اعتراض الملائكة على كلام الله، والذي هو في الواقع ليس اعتراضا وإنما حديث عما يرون. ونقول لمن يد عي أنها في المستقبل: ما دليلك؟!سيأتي أنصار الرواية بقول فلان وعلان، والذي جعل "جعل" بمعنى كذا وكذا، واستعمل المضارع بمعنى المستقبل! وكل شيء وارد في

[86] الكلمة بالحاء، وليست بالجيم، فالكتابة صحيحة وليست خطأ مطبعيا!

[87] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المجلد الأول، ص. **454-456**.

لسان العرب! ولكن ما الحتمية في النص الذي تجعلنا لا نأخذه كما هو؟! فلا نفهم أن الملائكة تعترض على ما تراه، لماذا وجوب فهم الآية على أنها حديث عن مستقبل؟!

والعجيب في الرواية أنها تتحدث عن إفساد الجن قبلهم وسفكهم الدماء! وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل للجن دماء؟ المعلوم أن الجن من نار، فهل له دماء مثل البشر كان يسفكها[88]؟! والآية التالية خير دليل على ما نقول، فالله تعالى يقول فيها: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ... ﴿٣١﴾﴾ [سورة البقرة, ٣١]، فهي تتكلم عن تعليم آدم وليس عن خلقه أو إنشاءه، -لاحظ أنها عطفت بالواو وليس بأي حرف عطف آخر-، فيُفترض أنه كان موجودا[89]. فإذا كان الله تعالى يتحدث عن جعل خليفة[90]، فما المراد من قوله سبحانه "خليفة"؟

اشتهر في تفسير "الخليفة" قولان، ذكرهما الإمام الفخر الرازي في تفسيره: مفاتيح الغيب، حيث قال: "المسألة الثامنة: الخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ... ﴿١٤﴾﴾ [سورة يونس, ١٤]، ﴿... وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ ... ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩] فأما أن المراد بالخليفة من؟ ففيه قولان: أحدهما: أنه آدم عليه السلام. وقوله: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا" المراد ذريته لا هو (!!!)، والثاني: أنه ولد آدم، أما الذين قالوا المراد آدم عليه السلام فقد اختلفوا في أنه تعالى لم سماه خليفة؛ وذكروا فيه وجهين: الأول: بأنه تعالى لما نفى الجن من الأرض وأسكن آدم الأرض كان آدم عليه السلام خليفة لأولئك الجن الذين

---

[88] إن الحديث عن الدماء وعن سفكها لم يرد في القرآن كله إلا في سورة البقرة، في الآية التي نتحدث عنها، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة البقرة, ٨٤]، فالآية تتحدث عن أخذ الميثاق من بني إسرائيل، بعدم سفك الدماء، أفلا يذكرنا هذا بحديث الملائكة عن سفك البشر، الذين لم يُأنسنوا بعد، دماء بعضهم، وكيف أن هذا الميثاق الذي أُخذ على بني إسرائيل لكي لا يرتدوا إلى المرحلة الحيوانية؟!

[89] سنتناول هذه الآية وما يليها بالتفصيل في الباب القادم بإذن الله تعالى.

[90] (تحويل من *لا خليفة* إلى: خليفة)، وكان هذا المحوّل يفسد ويسفك الدماء، فهذا يعني بداهة أن الحديث عن جنس وليس عن فرد واحد، جنسٌ يقتل أفراده بعضهم بعضا!

تقدموه، روى ذلك عن ابن عباس. الثاني: إنما سماه الله خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه وهو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وهذا الرأي متأكد بقوله: ﴿... إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ... ﴿٢٦﴾﴾] سورة ص ,٢٦[أما الذين قالوا المراد ولد آدم، فقالوا: إنما سماهم خليفة لأنهم يخلف بعضهم بعضاً وهو قول الحسن ويؤكده قوله: "وَهُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف الارض"، والخليفة اسم يصلح للواحد والجمع كما يصلح للذكر والأنثى[91]" اهـ

وبعد هذا التناول يمكننا أن نقدم تصورا شاملا للآية، فنقول: يخبر[92] الله سبحانه الملائكة أنه يجعل البشر خليفة في الأرض، يتحكمون فيها ويخلف بعضهم بعضا، فتساءلت الملائكة: أتجعل من يفسد ويسفك الدماء خليفة، ونحن نسبح ونقدس لك[93]! فيخبرهم الله تعالى: أنه يعلم ما لا يعلمون، لذلك هو يجعل البشر خليفة.

[91] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثاني، ص. 152.

[92] توقف الإمام الفخر الرازي في تفسيره: مفاتيح الغيب مع مسألة إخبار الله تعالى للملائكة، فقال: "فإن قيل: ما الفائدة في أن قال الله تعالى للملائكة: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً" مع أنه منزه عن الحاجة إلى المشورة؟ والجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى علم أنهم إذا اطلعوا على ذلك السر أوردوا عليه ذلك السؤال، فكانت المصلحة تقتضي إحاطتهم بذلك الجواب فعرّفهم هذه الواقعة لكي يوردوا ذلك السؤال ويسمعوا ذلك الجواب. الوجه الثاني: أنه تعالى علّم عباده المشاورة."اهـ

ويُحمد للإمام الفخر الرازي أنه انتبه إلى هذه النقطة، ولكن ليس الأمر –والله أعلم– كما قال الإمام الفخر، وإنما تبيان للملائكة ماذا يحدث على الأرض، فالملائكة، التي رأت الكائنات تُخلق، رأت أن هناك عناية لمخلوق واحد، ورأت أنه يُعطى إمكانيات أكثر من أي مخلوق آخر، فأخبرهم الله تعالى أن هذه العملية هي عملية جعل خليفة في الأرض، لأن الملائكة هي من ستتولى حفظه وتسجيل أعماله وتوفّيه ... إلخ الأدوار التي تقوم بها الملائكة بالنسبة للبشر! كما باشرت القيام بمراحل خلقه، فالإخبار كان من أجل الإعلام وليس من أجل المشاورة! تعالى الله أن يشاور أحدا من خلقه، كائنا من وما كان!

[93] جاء في لسان العرب: "... والتَقْدِيس التَّطْهِير والتَّبْرِيك وتَقَدَّس أَي تطهَّر، وفي التنزيل: ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّس لك. الزجاج: معنى نُقدس لك أَي نُطهِّر أَنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أَطاعك نُقَدِّسه أَي نطهِّره. ومن هذا قيل للسَّطْل: القَدَس، لأَنه يُتَقدَّس منه أَي يُتَطَّهر. والقَدَس بالتحريك السَّطْل بلغة أَهل الحجاز لأَنه يتطهر فيه. قال: ومن هذا بيت المَقْدِس أَي البيت المُطَهَّر أَي المكان الذي يُتطهَّر به من الذنوب." اهـ

آلية الاستخلاف

بعد أن بينا للقارئ الكريم أن البشر كان لا واعيا يفسد في الأرض ويسفك الدماء، نعرض له آلية الاستخلاف، والتي ذكرها الله تعالى في كتابه، والتي تؤكد ما ذهبنا إليه، ولقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣﴾ [سورة الأنعام, ١٣٣]

ولأن الآية دليلٌ صريح فيما نقول، ذهب المفسرون فيها مذاهب عدة، منها ما ابتعد عن النص! ومنها ما تناوله فقال بقريبٍ مما نقول، فنجد أن الإمام الفخر الرازي قال عند تناوله هذه الآية في تفسيره: "وأما قوله: "وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم" يعني من بعد إذهابكم؛ لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت. وأما قوله: "مَا يَشَاء" فالمراد منه خلق ثالث ورابع ، واختلفوا، فقال بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس يكونون أطوع، وقال أبو مسلم: بل المراد أنه قادر على أن يخلق خلقاً ثالثاً مخالفاً للجن والإنس. قال القاضي: وهذا الوجه أقرب، لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق، فمتى حُمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة، فكأنه تعالى نبّه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق، الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي الثواب، فبيّن بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء القوم الحاضرين أبقاهم وأمهلهم، ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل بهم سواهم. ثم بيّن تعالى علة قدرته على ذلك فقال: "كَمَا أَنشَأَكُمْ مّن ذُرّيَّةِ قَوْمٍ ءاخَرِينَ" لأن المرء العاقل إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة، ليس فيها من صورته قليل ولا كثير، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة، وإذا كان الأمر كذلك فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة، فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها[94]." اهـ

[94] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثالث عشر، ص. 165-166.

وكما رأينا فلقد فهم الإمام الرازي أن الآية تتحدث عن استبدالنا نحن البشر بجنس آخر، وهذا واضح صريح، ولكن الذي لم يلتفت إليه الإمام الفخر في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾، هو استعمال "ما" التي تشير إلى غير العاقل! فالله تعالى يقول أنه بعد إذهابنا سيستخلف ما يشاء، أي سيجعل الله تعالى أي جنس غير عاقل الخليفة، كما أنشأنا من ذرية قوم آخرين.

والعجيب أن الإمام الفخر الرازي ترك الجملة الأخيرة وأخذ يتحدث عن شيء آخر تماما، فبدلا من أن يتحدث عن القوم الآخرين، ويخبرنا من هم[95]، أخذ يتحدث عن الخلق من نطفة!!!

أما إذا فهمنا الآية كما هي، وجدناها تقول: أن الله تعالى غني وذو رحمة، فليس بحاجة إلينا، إن يشأ يذهبنا فلا يُبقي منا على الأرض، ويجعل جنسا آخر غير عاقل خليفة، كما أنشأنا من ذرية قوم آخرين، كانوا غير عاقلين، فمن ذرية هؤلاء القوم أُنشأنا نحن، ونحن –على خلافهم– عاقلون مستخلَفون. فلا تقولون أيها البشر: من سيصلح بعدنا لإعمار الأرض وخلافة الله، فنحن العاقلون الوحيدون؟ فالله قادر على إذهابنا واستخلاف ما يشاء، فينفخ فيه من الروح، فيصبح خليفته في الأرض.

وحتى لا يظن القارئ أن ما نقول به هو قولٌ مبتدَع جديد، نُبين له أن هذا أقدم الأقوال فيها، فلقد كاد الإمام الطبري –رحمه الله– أن يقول في تفسيره بنفس ما قلنا به، فلم يخالفنا إلا في جزيئة بسيطة، مع اختلاف المعالجة والصياغة! فلقد قال عند تناوله هذه الآية: "وأما قوله: (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء)، فإنه يقول: إن

---

[95] يُحمد للإمام الألوسي أنه تكلم عن القوم الآخرين وحاول أن يقول من هم، ولكنه لم يتعامل مع الجملة كما هي وإنما جعلها بمعانٍ أخرى، فلقد قال في تفسيره روح المعاني: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم﴾ أي وينشىء من بعد إذهابكم (والاستخلاف هو جعل خليفة وليس الإنشاء! –عمرو–) "مَا يَشَاء" من الخلق، وإيثار (ما) على من لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء، (وليس كذلك، لأن ما سيُستخلف بعدنا سيكون من غير العاقلين، لذلك استعمل "ما" –عمرو–) ﴿... كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣﴾] سورة الأنعام ,١٣٣[أي من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام، لكنه سبحانه أبقاكم ترحماً عليكم. (ولكن أهل سفينة نوح كانوا عاقلين، ثم أين المشابهة بين إذهابنا واستخلاف غيرنا مع أهل سفينة نوح؟! –عمرو–" اهـ

يشأ ربُّك، يا محمد، الذي خلق خلقه لغير حاجة منه إليهم وإلى طاعتهم إياه. (يذهبكم) يقول: يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم. (ويستخلف من بعدكم ما يشاء)، يقول: ويأت بخلق غيركم وأمم سواكم، يخلفونكم في الأرض "من بعدكم"، يعني: من بعد فنائكم وهلاككم. (كما أنشأكم من ذريَّة قوم آخرين)، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلَكم. ومعنى"مِنْ" في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: "أعطيتك من دينارك ثوبًا"، بمعنى: مكانَ الدينار ثوبًا، لا أن الثوب من الدينار بعضٌ، كذلك الذين خوطبوا بقوله: "كما أنشأكم"، لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين، ولكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنَّهم أنشئوا مكان خَلْقٍ خَلَف قوم آخرين قد هلكوا قبلهم.[96]" اهـ

وقارن ما قاله الإمام الطبري بما قلنا تجدهما واحدا، ولقد حاول الإمام الطبري الخروج من مأزق إنشاءنا من ذرية قوم آخرين، فجعل "من" في قوله: "من ذرية" بمعنى: مكان أو من بعد! أما إذا أخذناها كما هي، نكون أُنشأنا من ذرية قوم آخرين وهم الهمج اللاواعي، والذين يُصنفون لا محالة كحيوانات، فمن ذريتهم[97] –المُعَدلة، والتي فارقت الحيوانية– أتينا نحن البشر العاقلون!

ولاحظ أن البشر ينفذون –بلا قصد– هذه الآلية مع الحيوانات والجمادات في أفلام الرسوم المتحركة، فكل ما يقومون به هو أنهم يعطون الحيوانات العقل فتبدأ في التصرف مثل الإنسان! والمصادمة للمنطق تكمن في أنها غير مؤهلة جسمانيا مثل الإنسان، وما عدا ذلك فلا خلل منطقاً!

---

[96] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المجلد الثاني عشر، ص. 126، 127.

[97] هذه الآية دليل آخر على أن سيدنا آدم ومن معه كان لهم آباء وأمهات، فهم ذرية قوم آخرين، والذرية لا تكون ذرية إلا إذا كان لها آباء وأمهات!

النفخ من الروح بعد التناسل

بعد أن بيّنا للقارئ الكريم آلية الاستخلاف نصل إلى النقطة المحورية، وهي إثبات أن النفخ من الروح كان بعد أن كان البشر يحيى على سطح الأرض، مثله مثل أي كائن حي! وبذلك نهدم ذلك التصور التوراتي الأسطوري كلية.

وعلى الرغم من أن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [سورة ص, ٧١-٧٢] –والذي ذكرناه سابقا–، أكثر من كاف لهدم التصور القائل بنفخة روح في تمثال، فإنا سنذكر للقارئ الكريم مجموعة أخرى من الآيات المتتاليات، تؤكد تصورنا تأكيدا قطعيا، ولا تترك المجال إلا لمجادل عتيد خِرّيت، دأوب على الجدال، وهذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [سورة السجدة, ٧-٩]

وكما يرى القارئ الكريم، فالله تعالى يذكر أنه أحسن كل شيء خلقه، وأنه بدأ خلق الإنسان من طين[98]، وبعد ذلك جعل نسله من سلالة من ماء مهين (وهذا يعني لا محالة أن الإنسان أصبح كائنا حيا يتناسل، وأن نسله كان فيما مضى ليس من الماء المهين، –خروج من الأرض– ثم جعل الله نسله يُنتج عن طريق الماء المهين: المني)، وبعد ذلك سواه الله عزوجل ونفخ فيه من روحه (وهذا يعني لا محالة أن التسوية والنفخ من الروح كانا بعد أن بدأ الإنسان في التناسل عن طريق الماء المهين)، وهذا أكبر دليل على أن وظيفة الروح، الذي نُفخ في الإنسان منه، لم تكن إعطاءه الحياة وإنما شيء آخر!

[98] وهذا دليل على أن الحديث هنا عن الإنسان الأول، وهذا ما لا يجادل فيه أحد، وبه قال كل المفسرين.

وكما رأى القارئ فلقد قمنا بقراءة الآيات كما هي، ونقدم له ما قاله المفسرون عند تناولهم هذه الآية، ليحكم بنفسه، من يلوي أعناق النصوص: عندما تعرض الإمام ابن كثير للآيات قال: "ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾] سورة السجدة ,٧[يعني: خلق أبا البشر آدم من طين[99] (!!)﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾]سورة السجدة ,٧-٩[أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة. "ثُمَّ سَوَّاهُ" يعني: آدم، لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما، ﴿... وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾] سورة السجدة ,٩[، يعني: العقول، "قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ" أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل[100]" اهـ

وكما رأينا، فالمفسر الجليل ابن كثير يرى أن "الإنسان" المذكور في الآية هو آدم عليه السلام، ولا حرج في هذا الفهم بالنسبة للأرضية المعرفية في ذلك العصر، ثم علق على الجزء التالي تعليقا مقبولا، ولكن أن يعود فيجعل الضمير في قوله "سواه" عائدا على آدم عليه السلام فهذا ما لا يُقبل بأي حال، فالآيات ذكرت "ثم" مرتين، فقالت أن مراحل الخلق مرت كالتالي: بدْء خلق الإنسان من طين، ثم جعل النسل من ماء مهين: أي عن طريق التزواج، وليس عن طريق الخروج أو الخلق من الأرض، ثم تسوية هذا الكائن والنفخ من الروح فيه.

ومن ثم فعلى المتدبر أن يوجد تصوراً يُبقي الآيات على ترتيبها، لا أن ينزع الجزء الأوسط من السياق، كأنه غير موجود، ثم يجعل الحديث في الجزء الثالث عائد على الجزء الأول!

---

[99] الإنسان: اسم يطلق على جنس، ولا دليل يحتم حمله على فرد واحد!

[100] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، ص. 430.

ولما كان هذا الترتيب يجعل النفخ من الروح بعد بدء الحياة وليس سببا فيها[101]، فكان لا بد أن يُخالف هذا الترتيب ويُترك، ويصبح الحرف "ثم" بلا مدلول، فهي دوما تفيد الترتيب والتراخي، ولكنها هنا لم تفد أي شيء، بل ربما أنها أفادت هنا معنى "قبل"! والإمام ابن كثير –وباقي المفسرين كذلك– لم يُلق بالاً لما يقول، كأن إلغاء معنى "ثم" وقلبها وجعلها بمعنى "قبل" أو بدون أي معنى لا يعني شيئا!

ولقد انتبه الإمام الفخر الرازي إلى أن هذا الترتيب يقول بعكس ما يقولون به تماما، فعلّق عليه ثم التف حوله بمهارة وبراعة، فقال: "فنقول: لا بل التفسير الثاني أقرب إلى الترتيب اللفظي فإنه تعالى بدأ بذكر الأمر من الابتداء في خلق الإنسان فقال بدأه من طين ثم جعله[102] سلالة، ثم سواه ونفخ فيه من روحه. وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ... ۝٩﴾] سورة السجدة ,٩[عائدٌ إلى آدم أيضاً، لأن كلمة "ثم" للتراخي، فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة، وذلك بعد خلق آدم، واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ ... ۝٥٧﴾] سورة غافر ,٥٧[ودلائل الأنفس أدل على نفاذ الإرادة فإن التغيرات فيها كثيرة وإليه الإشارة بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ ... ثُمَّ سَوَّىٰهُ ... ۝٩﴾] سورة السجدة ,٧-٩[أي كان طيناً فجعله منياً ثم جعله بشراً سوياً، وقوله تعالى: ﴿... وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ... ۝٩﴾] سورة السجدة ,٩[إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف[103] " اهـ

---

[101] قلنا ونقول دوما: لم يذكر القرآن قط أن "الروح" سبب للحياة أو أنها تخرج عند الموت، بل يذكر دوما "النفس" أو "الأنفس"، وتتبع هذا في السنة، فنجد دوما أن الرسول المعصوم كان يقول دوما "والذي نفس محمد بيده"، فلم يرو عنه مرة أنه قال "والذي روح محمد بيده"، والناس هم الذين خلطوا بين الروح والنفس وجعلوهما واحدا، بسبب بعض الروايات الموضوعة.

[102] هنا حاول الإمام الفخر الرازي الالتفاف على الآية، لكي يجعلها تتكلم عن خلق الإنسان عامة، بأن قال: جعله سلالة، وبعدها بسطور قال: فجعله منياً، وهذا مخالف للآية، فهي تتكلم عن جعل النسل من سلالة، لا عن جعله هو، فهذا دليل على إبطال التفافة الإمام الفخر، وعلى أن الحديث عن الإنسان الأول، وليس عن الإنسان عامة.

[103] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الخامس والعشرون، ص. 152.

فكما رأينا فلكي يتفادى المفسرون الإشكالية جعلوا الآيات بهذا الشكل: "وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ"، وهذا الترتيب لم يذكره الله تعالى، وإنما هو من تفسيرات المفسرين! أما نحن فنأخذ الآيات كما هي، فانظر من تتبع أيها القارئ، من يُعمل الآيات كما هي، أم ذلك الذي يُقدم ويؤخر كلام الله! فهذه الآيات تخبرنا الترتيب الذي حدث عند الخلق، بدأ الخلق من طين وخروج الناس من الأرض، ثم انتقال الناس إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة التزاوج، وانتقال النسل إلى مرحلة التكون من المني، ثم تسويته والنفخ من الروح فيه.

ولو كان ما يقولون به صحيحا، لما وجد هذا التريب بتاتا في القرآن لأنه عكس ما هو موجود في أدمغة السادة العلماء، ولكن ها هو الدليل واضحا على أن الإنسان وجد وتناسل قبل أن يُنفخ فيه من الروح.

الجماع .. منظور آخر

بعد أن بيّنا أن البشر نُفخ فيه من الروح بعد أن أصبح يتناسل عن طريق الماء المهين، نبتعد قليلا عن خلق الإنسان الأول، لنعرض لمسألة متعلقة بالتناسل، وهي الجماع، لنعرضه للقارئ الكريم من منظور آخر.

ينظر عامة البشر إلى الجماع على أنه عملية شهوانية حيوانية بالدرجة الأولى، وكثير من البشر يعدونها المتعة الأولى في الحياة، وكثير يضيعون أعمارهم وقوتهم من أجل الاستمرار في ممارسة هذه العملية. ولن نتكلم عن هذا، وإنما سنسأل القارئ الكريم: هل نظرت إلى الجماع من منظور آخر، غير المنظور الشهواني؟!

إذا تجاوزنا المنظور الحيواني للعملية فإننا سنجد أن الجماع هو عملية تلقيح طبيعية داخلية، ولا أروع. إننا نتابع على شاشات التلفاز في البرامج الطبية عمليات حقن لمواد معينة داخل الخلية أو داخل النواة، فتدخل إبرة دقيقة داخل الخلية لكي توصل

العناصر المطلوب إيصالها، والتي لن تصل بأي شكل طبيعي، لذا يتجه المعالجون إلى الحقن، ليتم الغرض المراد.

وعملية الجماع عملية تلقيح مماثلة، فالمطلوب إيصال الحوين المنوي إلى داخل الأنثى، بعيداً عن أي ملوثات أو مواد ضارة، فما هي الأدوات المشاركة في هذه العملية؟! قضيب الرجل عضو صغير الحجم في حالة عدم الاستثارة، في حالة ارتخاء، غير قادر على الدخول في جسم المرأة. ومع وجود الاشتهاء ينتصب هذا العضو، فيكبر حجمه ويتصلب، ويصبح قادرا على الدخول والوصول إلى أبعد نقطة ممكنة –تبعا لطوله– داخل جسم المرأة.

ولا يقتصر الأمر على طول العضو الذكري وإنما يتبعه نزول الحيوانات المنوية بطريقة القذف –وليس الصب– مما يعطيها مسافة أبعد داخل جسم المرأة.

ولا يقتصر الأمر على القذفة التي يقذفها الرجل للحيوانات المنوية، وإنما زُودت هذه الحيوانات المنوية بمحركات ذاتية تدفعها للحركة إلى الأمام، في أطول رحلة في تاريخ البشرية –بالنسبة لحجم المتحرك نفسه–، وفي هذه الرحلة يهلك مئات الملايين من الحيوانات المنوية، ولا يصل في نهاية المطاف إلا حيوان منوي واحد يلقح البييضة، وما أن يخترقها حتى تحدث تغيرات على سطح البييضة، تجعل اختراقها من باقي الحيوانات المنوية أمراً مستحيلا.

فإذا انتقلنا إلى عضو المرأة المستقبِل، وجدناه عبارة عن فتحة صغيرة مغطاة بشفرين من الجلد، ينمو عليهما شعرٌ كثيف، مما يساعد على تغطية الفتحة التي ستتم من خلالها عملية التلقيح، فلا يدخلها أي عنصر ملوِث! كما أن اتجاه هذه الفتحة إلى الأسفل وليس إلى الأمام، مما يجعل من العسير أن يدخلها أي شيء ضار أو حتى نافع، إلا إذا كان الأمر مقصودا، بخلاف ما لو كان اتجاه الفتحة إلى الأمام!

ولا يملك المرء بعد أن ينتبه إلى كل هذه الإعدادات الربانية، من أجل إتمام عملية تلقيح سليمة، إلا أن يقول: سبحان من وسع علمه كل شيء!

ليس تطورا .. وإنما أطوار

يدعي المؤمنون بنظرية التطور أن القرآن الكريم لا يوجد فيه ما يعارض نظرية التطور، بل وبالإضافة إلى عدم المعارضة، توجد بعض الآيات التي تؤكد التطور وتشير إليه! وسنرد على دعواهم الأولى بعدم وجود آيات معارضة لنظرية التطور بآية مبطلة لدعواهم، ومؤكدة للخلق المباشر!

وحتى لا يقول القارئ أن هذا فهمنا للآية سنذكر ما قاله الإمام الفخر الرازي عند تفسيره هذه الآية، وكأنه كان يودع رداً مقدَما على من سيقول بهذه النظرية! وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾]سورة الروم , ٢٠[

فلقد قال الإمام الفخر في تفسيره: "وفي الآية لطيفتان؛ إحداهما: قوله: "إِذَا" وهي للمفاجأة، يقال: خرجت فإذا أسد بالباب، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان، لا أنه صار معدناً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً وهذا إشارة إلى مسألة حكمية، وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبهه أنه يحيى حيواناً ونامياً، وغير ذلك لا أنه خلق أولاً حيواناً، ثم يجعله إنساناً فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة الأولى، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها[104]" اهـ

فها هي آية تبطل قولهم بالتطور، مصحوبة بقول الإمام الفخر الرازي، وليس بقولنا نحن، ونذكر الآية مرة أخرى في سياقها، حتى نعطي تصوراً كاملا حولها: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

[104] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الخامس والعشرون، ص. 95.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾] سورة الروم ,١٩-٢١[فالله تعالى يعرفنا أنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ثم يتكلم في الآية التالية عن خلقنا من تراب، فنحن أحياء خرجنا من ميت وهو التراب! والملاحظ أن الله تعالى يتحدث عن الخلق بصيغة الجمع، لأنه هكذا بدأ، بشر يخرج من الأرض وينتشر في مناكبها (عملية البث).

والملاحظ أن الله تعالى استعمل في الآية: "ثم" و"إذا"، والمألوف هو استعمال الفاء مع إذا، –كما ذكر الإمام الفخر في مثاله: خرجت فإذا أسد بالباب!– ليدل على المفاجأة والسرعة، ولكن هنا يشير المولى سبحانه إلى تأخر ومفاجأة! وفي هذا إشارة –والله أعلم– لما نقول به، فلقد أخذت عملية تحويل التراب إلى خلية حيوانية وقتا طويلا، مما استدعى استعمال "ثم"، ولم يأخذ تحويل الخلية الحيوانية إلى بشر ناضج (رجالا كثيرا ونساء) إلا عدة أشهر الحمل! ثم أخذ البشر في الخروج والانتشار في الأرض.

وبعد أن ذكر المولى أن من آياته إخراج الحي من الميت، كما أخرجنا من التراب، يعود فيقول أن من آياته أنه خلق لنا من أنفسنا أزواجا، فلم يجعلنا جنسا واحدا، وإنما جنسين، يكمل كلٌ منهما الآخر، فجعل للذكر أنثى وللأنثى ذكر، وجعل كل واحد منهما سكنا للآخر! فالذكور سكن الإناث والعكس كذلك، وجعل الله العلاقة بين الاثنين قائمة على المودة والرحمة، و العجيب أن الآية مما يُستخدم للدعاية للأعراس!

والآية التي يستدل بها المؤمنون بنظرية التطور، هو ما رواه الله تعالى عن نوح في سورته: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ... وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾] سورة نوح ,١٣-١٨[فيقولون أن الآيات تتحدث عن التطور صراحة، كما أن الآيات التالية تؤكد ذلك بقولها أن الله أنبتنا من الأرض نباتا، فهذا دليل على أن الإنسان مر بمرحلة نباتية، قبل أن يصير إنسانا!

ولا دليل في الآيات على ما يقولون، وهذه هي آفة من يقتنع بشيء ويحاول استخراجه من القرآن! فلو نظرنا في الآيات التي يستدلون بها، وهي المتعلقة بالأطوار والإنبات، فعلينا أن نراعي أولاً المستوى المعرفي والفكري لقوم نوح! والمشكلة أن المفسرين القدامى وقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه أنصار التطور! فلقد وجدنا الإمام الفخر الرازي يقول: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي تارات خلقكم أولاً تراباً، ثم خلقكم نطفاً، ثم خلقكم علقاً، ثم خلقكم مضغاً، ثم خلقكم عظاماً ولحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر.[105]" اهـ

فهل عرف قوم نوح بهذه المراحل، التي جاء بها القرآن وقدّمها آية بينة في القرآن الكريم؟! إن المستوى المعرفي لقوم نوح هو مستوى بسيط متدن لا محالة! ومن ثم فمن المستبعد أن يكون هذا المعنى هو المراد!

ولقد لاحظ الأستاذ عماد محمد بابكر حسن هذا الخطأ –وهو من المؤيدين للتطور، فقال: "كلمة "أطوارا" تحتمل أوجها كثيرة، أشهرها في زماننا هي فكرة تطور الجنين من حيوان منوي وبويضة إلى خلية ثم ملايين الخلايا في الإنسان الكامل. ولكن ما لا شك فيه هو أن قوم نوح لم يكونوا على علم بهذه الحقائق المجهرية المعملية الدقيقة. ولذلك ما كانت الآية لتكون ذات مغزي لهم، إن كان هذا هو تفسيرها الوحيد! أغلب الظن أن الأطوار التي كانوا يعرفونها ويمكن أن تكون حجة عليهم في نظر نوح هي شكل أوسع من الأطوار. فهل كان نوح يشير إلى تطور الإنسان من حيوان أدنى، مشى منحنيا كما تمشي القردة، ثم اعتدل في مشيته ثم توسعت جمجمته ثم كبر عقله ثم كلف بالخلافة فامتلك سلطانا على قسوة الدهر، بفضل الله وأصبح خليفته في الأرض؟ إن لم يكن الأمر كذلك، فما هي الأطوار التي كان قوم نوح على علم بها، ولكنهم لم يقدروها قدرها[106]؟!" اهـ

---

(105) المرجع السابق، المجلد الثلاثون، ص. 123.

(106) عماد محمد بابكر حسن، آذان الأنعام، ص. 40.

وهكذا وقع الدكتور عماد فيما وقع فيه الإمام الفخر، وإن لم يجزم برأيه، فلقد طرحه احتمالا، والذي نراه أن سيدنا نوح كان يتكلم عن الأطوار التي يعرفها أي إنسان، وهي المراحل التي يمر بها أي إنسان، من كونه جنين ثم رضيع ثم طفل ثم غلام ثم شاب ثم رجل ثم كهل ... إلخ والتي تنتهي بعودته مرة أخرى إلى التراب! أمّا أن يكون يتحدث عن مراحل التطور –والتي لم تحدث– فكيف عرف بها قوم نوح، وهم لم يروها؟!

ومن الممكن أيضا أن يكون حديثه عن النشأة الأولى، لأنهم قريبو العهد بها، ولا يزال لديهم بقية أثر عنها، لذا فمن المقبول أن يحدثهم عن خروجهم من الأرض[107] كما أنهم لا يزالون يرون الهمج حولهم، وفي هذا تذكير بنعمة الله عليهم، الذي أخرجهم من الهمجية، وجعلهم بشرا عاقلين.

وهناك بعض آيات في التوراة يمكن فهمها على هذا الأساس، وذلك كما جاء في سفر التكوين، الإصحاح السادس: "6 : 1 وحدث لما ابتدء الناس يكثرون على الأرض و ولد لهم بنات. 6: 2 أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. 6: 3 فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان الى الأبد لزيغانه، هو بشر، و تكون أيامه مئة وعشرين سنة. 6: 4 كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم. (...) 6: 11 وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلما." اهـ

فهل من الممكن أن نفهم بنات الناس على أنها إشارة إلى الهمج؟! وأولاد الله إشارة إلى أولئك الذين وُلدوا من أولئكم الذين نفخ الله فيهم من الروح؟!

---

[107] تذكر ما قاله السومريون بشأن خروج الناس من الأرض كالحشيش، فهذا يعني معرفة البشر في ذلك العصر بالنشأة الأولى، فلا عجب من معرفة قوم نوح بها!

والناظر في النص الأصلي للتوراة يجد عجبا، وخاصة بشأن كلمة: "ظلما"، والتي لم تترجم ترجمة سليمة: "في نصها الأصل "بمنطوقه العبري" كما يُسمى، فذلك هو الغريب بعينه، فتقول: "أرص ملأى هَمَس"، أرص هي أرض، فالصاد ضاد لدينا أحيانا، والشين والسين يتبادل مواقعها في العربية و"العبرية" المأخوذ بعضها من "لسان كنعان"، ف "هَمَس" هي "همَش"، فما هو هذا ال "همس/همَش" الذي ملأ الأرض، فجاءه الطوفان؟ (...) يقولون أن الكلمة "همَش" توحي بأنواع من الشرور والعنف والقسوة والوحشية والرذائل والخطايا، لكنهم لا يعرفون معناها على وجه الدقة، وكيف جاءت! فاسأل أي عربي يتكلم بلهجته، ويلفظ الجيم جيما فرنسية قريبة من الشين كما في كثير من لهجاتنا، ما هو الهمَش (الهمز) أو الهمَج؟ يجيبك[108]." اهـ

وعلى كل حال فمن المستبعد أن يكون حديث سيدنا نوح عن التطور، لأن قومه لم يروه ولم يعرفوه، إلا إذا كانت القرود قد قصت عليهم من خبره طرفا!!

هل كان محنيا؟

على الرغم من كوننا نرفض نظرية التطور الداروينية إلا أننا لا نجد حرجاً في قبول كون الإنسان الأول –غير العاقل– محني الظهر، وأنه كان يعتمد على يديه وساقيه، ثم استقام ظهره بعد ذلك!

ولقد بيّنا للقارئ الكريم عند حديثنا عن ملخص التصور، كيف أن حياة الإنسان ملخصٌ للمراحل التي مر بها الإنسان عبر العصور، وكما نعلم فالإنسان يحبو على يديه ورجليه في مرحلة الطفولة، وكلنا نرى هذا ونتقبله، فلماذا نرفض أن يكون الإنسان الأول كذلك؟!

[108] جمعية التجديد، الخلق الأول كما بدأكم تعودون، ص.38،37.

إن هذا يرجع إلى أن نظرية التطور قالت بهذا، ولكن ثمت فارق كبير بين القولين، فنحن نقول أنه كان بشراً محنيا ثم استقام، وهم يقولون بتطور من جد أعلى وبتغير لشكل الأعضاء! قد يقول قائل: لماذا يخلق الخلاق العليم الإنسان الأول محني الظهر، ثم يجعله مستقيماً بعد ذلك، لماذا لم يخلقه مستقيماً منذ بدء الأمر؟! نقول: كان الله تعالى قادرا على أن يجعل الإنسان ينزل من بطن أمه مستطيعا الجري بعد لحظات، كما تفعل الغزالة، ولكنه جعله يُولد غير مستطيع المشي، ثم يستطيع الحبو بعد ذلك!

وهذا الجعل ليس نقص قدرة من المولى سبحانه –تعالى الله– وإنما جعله بهذا الشكل لحكمة يعلمها سبحانه! فهذا هو الأنسب للإنسان لا محالة. فإذا قلنا أن هذا الجعل لحكمة، فما الذي يجعلنا نرفض أن يكون الإنسان الأول يعتمد على يديه ورجليه، ثم استقام بعد ذلك؟! لقد أصبحت عظامه أكثر صلابة، وأصبح يستطيع الاعتماد على رجليه فقط، فلم تعد لديه حاجة بالاعتماد على يديه!

ونحن إذ نقول بهذا القول لا نستند إلى النماذج التي يقدمها التطوريون كدليل على أن الإنسان الأول كان محنيا، لأن الهياكل التي قدموها لا تتشابه بشكل كبير مع الإنسان، وهي إلى القرد أقرب، وإنما نستند إلى ما جاء في القرآن الكريم، والذي يشير إلى هذه المرحلة، –وإن كان لم يذكرها صراحة–، وهذه الإشارة جاءت في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [سورة الانفطار, ٦-٨]

ونورد للقارئ الكريم أولا ما ذكره الإمام الفخر الرازي عند تناوله للآية، ثم نبيّن الإشارة المذكورة في الآية: "(فَسَوَّاكَ) أي جعلك سوياً سالم الأعضاء تسمع وتبصر، ونظيره قوله: ﴿... أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ۝٣٧﴾ [سورة الكهف, ٣٧] (...) وثالثها: قوله: (فَعَدَلَكَ) وفيه بحثان: البحث الأول: قال مقاتل: يريد عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين فلم يجعل إحدى اليدين أطول

ولا إحدى العينين أوسع، وهو كقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾] سورة القيامة ,٤[وتقريره ما عُرف في علم التشريح أنه سبحانه ركّب جانبي هذه الجثة على التساوي، حتى أنه لا تفاوت بين نصفيه لا في العظام ولا في أشكالها ولا في ثقبها ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها، واستقصاء القول فيه لا يليق بهذا العلم. وقال عطاء عن ابن عباس: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية، وقال أبو علي الفارسي: عدل خلقك فأخرجك في أحسن التقويم، وبسبب ذلك الاعتدال جعلك مستعداً لقبول العقل والقدرة والفكر، وصيّرك بسبب ذلك مستولياً على جميع الحيوان والنبات، وواصلاً بالكمال إلى ما لم يصل إليه شيء من أجسام هذا العالم .[109]" اهـ

وكما رأينا فلقد ذكر الإمام الفخر احتمالات عدة في تأويل الآية، ونحن نرى أن المراد منها قول ابن عباس، لأن الآية تحكي مرحلة الخلق مرحلة من بعد مرحلة، فتحكي مرحلة الخلق فالتسوية، وكيف أن الله أوصل الإنسان إلى أفضل هيئة وشكل، وبعد ذلك عدله.

ولو كان المراد منها ما رواه مقاتل فلا جديد عند إضافة هذه الكلمة، إذ أن ما قاله مقاتل يدخل في قوله تعالى "سواك"، ولا يدخل تحت قوله "عدلك"، وبداهة، لا يمكن أن يكون اللفظان مترادفين، إذ العدل غير التسوية، لذا نرى أن رأي ابن عباس هو الأرجح.

ونحن لا نقصر الآية على الإنسان الأول، ونُخرج منها المولودين الذين يخرجون من بطون أمهاتهم، وإنما نقول أن الآية عامة تصدق على الإنسان بشكلي خلقه، فقديما كان منحنيا ثم استقام ظهره، وحاليا كان يحبو ثم استقام ظهره. وبهذا نكون قد عممنا الآية، بدلا من أن نحصرها في أحد المدلولين، بدون دليل قوي على التخصيص!

---

[109] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الحادي والثلاثون، ص. 74.

وليست هذه الآية هي الدليل الوحيد على مسألة الانحناء، فهناك إشارة أخرى في سورة تبارك، والتي يقول المولى سبحانه فيها: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٢٢﴾ [سورة الـملك, ٢٢] فنلاحظ هنا أن المولى سبحانه يقارن بين اثنين، أحدهما يمشي مكبا والآخر سويا، أحدهما على وجهه والآخر على صراط مستقيم! فيفرق المولى بين ذلك الذي يمشي محنيا وبين ذلك الذي يمشي مستقيما، فمن يمشي ناظرا إلى الأرض، لا يعرف ماذا سيحدث له، لأنه لا يرى –حقيقة ومجازا– إلا ما بين قدميه! بخلاف من يمشي سويا فيستطيع أن يرى أمامه، ومن ثم يفكر في أشياء أخرى غير ما بين وتحت قدميه!

وأعتقد أن الصورة قد اتضحت للقارئ الكريم، فالمولى يقول أن صورة الكافر مثل ذلك الإنسان البدائي[110] –الحيوان– الذي كان يمشي مكبا، والمؤمن مثل الذي يمشي سويا. ومع قولنا بالإنسان البدائي الذي لا عقل له والذي كان يمشي مكبا، يظهر وجه المقارنة، فالكافر حيوان مكب لا عقل له لا يعرف وجهته، والمؤمن إنسان مستو يمشي على صراط مستقيم[111]. لذا، فإذا حدث وأثبت العلم فعلا، أن الإنسان

---

(110) والذي يؤكد أن الآية تشير إلى الإنسان الأول هو السياق الذي وردت فيه الآية، فالله تعالى يقول: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٢٢ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣ قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ [سورة الـملك, ٢٢-٢٤] فكما رأينا فالآيات تتحدث –بعد المقارنة بين الاثنين– عن إنشاء الإنسان وجعل السمع والأبصار، وكيف أننا بُذرنا في الأرض وسنرجع إلى الله ليسألنا .. إلخ، أليس في هذا إشارة إلى أن ذلك الإنسان المكب لم يعد له سمع ولا بصر وإنما أصبح أصما أعمى، لذلك فهو يمشي على أي جهة كانت لا يعلم إلى أين يتجه! ولقد احتار المفسرون عند تناولهم هذه الآية، فلم يجزموا فيها بقول، لعدم وضوح الصورة المطروحة فيها أمامهم! ومن ذلك ما قاله الإمام الفخر الرازي عند تناوله هذه الآية: "ذكروا في تفسير قوله: "يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ" وجوهاً: أحدها: معناه أن الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكباً، فحاله نقيض حال من يمشي سوياً أي قائماً سالماً من العثور والخرور. (!!!) وثانيها : أن المتعسف الذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة، لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم واليقين. وثالثها: أن الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المعلوم. ثم اختلفوا فمنهم من قال: هذا حكاية حال الكافر في الآخرة، قال قتادة: الكافر أكب على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله تعالى على الطريق السوي يوم القيامة، وقال آخرون: بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل في الدنيا، ..." اهـ

(111) الإنسان يمشي ب رجله على شيء (مثلا: على صراط مستقيم) أو على حالة (على استحياء)، ولمّا لم ينتبه المفسرون إلى هذه البدهية، تسببوا في ظهور إشكاليات كبرى في فهم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ

الأول –وليس القرد، بأدلة قاطعة جازمة، وليس بفك أو فخذ!– كان يمشي منحنياً، فلا يعني هذا أن نظرية التطور تصور صحيح، وإنما هي دليل على أن ما استنبطناه من كتاب الله تعالى كان صحيحا، وبهذا لا يجد المسلم حرجا من قبول هذه النقطة، فلقد سبق القرآن إلى القول بها، فهو يؤمن أول ما يؤمن بالقرآن[112].

الروح

بعد أن بيّنا للقارئ الكريم أن الروح! ليس سر الحياة، الذي حولت التمثال إلى كائن حي، كما ادعى الأقدمون، وإنما بعد أن كان البشر كائنات حية على سطح الأرض، يحق للقارئ الكريم أن يتساءل: وماذا كان دورها إذن، إذا كان الإنسان قد خُلق وعاش وتناسل قبل أن يُنفخ فيه من الروح؟!

ولكي نجيب على هذا السؤال، لا بد أن نقدم للقارئ الكريم التصور القرآني حول الروح، لكي يتأكد أن تصوره التقليدي حول الروح ودورها تصورٌ مغلوط، لا علاقة له بالقرآن. وتصور المسلمين التقليدي للروح، هو تصور شيء أقرب إلى الشبح، موجود بداخل كلٍ منا، وهذه الروح هي سر الحياة، فإذا خرجت مات الإنسان! وكذلك إذا فسد العضو أو بُتر خرجت منه الروح!

ومن أشهر التعريفات للروح ما قدمه الإمام ابن القيم في كتابه: الروح! والذي قال فيه أن الروح هو: "جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نورانى علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد

وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾] سورة النّور, ٤٥]،
ويمكن للقارئ الكريم متابعة حلنا لهذه الإشكاليات وتناولنا للآية على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

[112] جاء في كتاب: الخلق الأول، كما بدأكم تعودون، ص. 22: "أولئك البشر الذين أوّل ما نبتوا من الأرض ظلّوا يُحاكون الحيوانات في كلّ شيء ؛ كما يصفهم تراثنا السومريّ في أسطورة: (أشنان والنعجة): « البشر الأوائل لم يعرفوا أكل الخبز، ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد، وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم، ومن القنوات يشربون الماء» اهـ

وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء، وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه الأعضاء، بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح" اهـ

والمشكلة أن السادة العلماء يخلطون –وبدون أي حرج– بين الروح والنفس! على الرغم من اختلاف البون بينهما، وعلى الرغم من أن القرآن يذكر دوما "النفس" عند الحديث عن النوم أو الموت، مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [سورة الزمر, ٤٢] فالتي تُقبض عند الموت وأثناء النوم هي النفس، إلا أن العلماء يصرون على جعلها بمعنى الروح!!

والقرآن لم يذكر "الروح" قَط عند حديثه عن الموت أو الحياة، ومن يقل بذلك، فليخرج لنا أين قال القرآن ذلك! والرسول الكريم كذلك كان يقسم دوما فيقول: "والذي نفس محمد بيده"، ولم يقل: والذي روح محمد بيده!

ونبدأ في عرض الآيات التي تحدثت عن الروح في القرآن الكريم، ليعلم القارئ الكريم أن ما يقال حولها، ليس له أي علاقة بالروح الوارد في القرآن: أشهر آية ورد فيها كلمة "الروح" هي قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥﴾ [سورة الإسراء, ٨٥] والتي يستدل بها أصحاب الرأي التقليدي على أن الروح سر من أسرار الله، ومن ثم فلا ينبغي علينا البحث فيها أو حولها، لأننا لن نصل إلى جواب مقنع حولها، لأنها أعلى من مداركنا البشرية المحدودة!

واختصارا[113] نقول: إن الروح المذكورة في الآية هي "القرآن"، ويدلل على هذا قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [سورة النحل ,٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [سورة الشورى ,٥٢] فالملائكة تنزل بالروح من أمره، ولقد أوحي إلى النبي الكريم روح من أمر الله، والله تعالى يقول أننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا في مقابل هذا الروح، وسيظل القرآن دوما آية بينة، ويدلل على هذا السياق الذي وردت فيه الآيات، فالحديث بعد ذلك يدور حول القرآن، فالآيات التالية تقول: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ... قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [سورة الإسراء ,٨٦-٨٨]

فإذا تركنا الآيات التي كان الروح بمعنى الكتاب المنزل من الله، ونظرنا في الآيات الأخرى، وجدنا أنها تتعلق بالملائكة، وهذه الآيات هي قوله تعالى: "نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ [سورة الشعراء ,١٩٣] والروح الأمين هو جبريل بلا خلاف، وفي هذا يقول الإمام الفخر الرازي: "والروح الأمين جبريل عليه السلام، وسماه روحاً من حيث خلق من الروح، وقيل لأنه نجاة الخلق في باب الدين فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة، وقيل لأنه روح كله، لا كالناس الذين في أبدانهم روح، وسماه أميناً لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام، وإلى غيرهم[114]." اهـ

وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [سورة المعارج ,٤] ولقد لاحظ الإمام الفخر الرازي –عند تناوله للآية– ملاحظة

---

(113) يمكن للقارئ الكريم متابعة ما كتبناه حول سبب ترجيحنا لهذا المعنى في كتابنا: لماذا فسروا القرآن، وهو موجود على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

(114) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الرابع والعشرون، ص. 142.

طيبة، فقال: "المسألة الأولى: اعلم أن عادة الله تعالى في القرآن أنه متى ذكر الملائكة في معرض التهويل والتخويف أفرد الروح بعدهم بالذكر، كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ... ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الـنبإ ,٣٨] وهذا يقتضي أن الروح أعظم من الملائكة قدراً[115]." اهـ

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الـنبإ ,٣٨] وما نحتاجه من هذه الآية هو قوله تعالى: "صفا"، والتي قال الإمام الفخر الرازي عند تعرضه للآية: "أما قوله: "صَفًّا" فيحتمل أن يكون المعنى أن الروح على الاختلاف الذي ذكرناه، وجميع الملائكة يقومون صفاً واحداً، ويجوز أن يكون المعنى يقومون صفين، ويجوز صفوفاً، والصف في الأصل مصدر فينبىء عن الواحد والجمع، وظاهر قول المفسرين أنهم يقومون صفين، فيقوم الروح وحده صفاً، وتقوم الملائكة كلهم صفاً واحداً، فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم.[116]" اهـ

وآخر آية ذُكر فيها "الروح" هي قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة الـقدر ,٤] ولقد أجمل الإمام الفخر الرازي أقوال المفسرين حول الروح، فقال: "ذكروا في الروح أقوالاً؛ أحدها: أنه ملك عظيم، لو التقم السموات والأرضين، كان ذلك له لقمة واحدة. وثانيها: طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر، كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد. وثالثها: خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ولا من الإنس، ولعلهم خدم أهل الجنة. ورابعها: يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه، ثم إنه ينزل في موافقة الملائك ليطلع على أمة محمد. وخامسها: أنه القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ... ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الشورى ,٥٢]، وسادسها: الرحمة؛ قُرىء: ﴿... لَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ

---

[115] المرجع السابق، المجلد الثلاثون، ص.108.

[116] المرجع السابق، المجلد الحادي والثلاثون، ص. 22.

... ﴿٨٧﴾ [سورة يوسف ,٨٧] بالرفع كأنه تعالى، يقول: الملائكة ينزلون رحمتي تنزل في أثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة. وسابعها: الروح أشرف الملائكة، وثامنها: عن أبي نجيح الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون؛ فصاحب اليمين يكتب إتيانه بالواجب، وصاحب الشمال يكتب تركه للقبيح، والأصح أن الروح ههنا جبريل. وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول الملائكة في كفة والروح في كفة[117]." اهـ

وكما رأينا فلقد ذكر المفسرون احتمالات كثيرة لتفسير الروح، ليس لها أي علاقة بالروح الجسدي، وهذه الاحتمالات كلها تخمينية، إلا القول بأنه القرآن أو جبريل خاصة، فلها مستند من القرآن.

والناظر في القرآن يجد أنه يسمي جبريل دوما بالروح ويستثنيه من الملائكة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ... ﴿١٠٢﴾ [سورة النحل ,١٠٢]، ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ [سورة التحريم ,٤]، ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ [سورة مريم ,١٧]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ [سورة البقرة ,٩٨]

ونتوقف مع الآية الأخيرة لنتساءل: لماذا عُطف جبريل وميكال على الملائكة، مع كونهما منهم؟! وكالعادة قدم المفسرون التبريرلذلك، ومن ذلك ما قاله الإمام الفخر الرازي: "لمّا ذكر الملائكة فلم أعاد ذكر جبريل وميكائيل، مع اندراجهما في الملائكة؟ الجواب لوجهين، الأول: أفردهما بالذكر لفضلهما، كأنهما لكمال فضلهما صارا جنساً آخر سوى جنس الملائكة. الثاني: أنّ الذي جرى بين الرسول واليهود هو

[117] المرجع السابق، المجلد الثاني والثلاثون، ص. 34.

ذكرهما، والآية إنما نزلت بسببهما، فلا جرم نص على اسميهما، واعلم أن هذا يقتضي كونهما أشرف من جميع الملائكة وإلا لم يصح هذا التأويل [118]" اهـ

وبعد أن رأينا هذا الإفراد يحق لنا أن نطرح سؤالا منطقيا: هل جبريل ملك أم روح؟!

قد يُذهل القارئ من السؤال، لذا نقول: تذكر أن القرآن يفرق دوما بين الملائكة والروح[119]، كما أنه لم يقل قط أن جبريل ملك! وإنما يقول دوما أنه روح، ويفرق بين فعله وبين فعل الملائكة! فإذا أقررنا أن جبريل روح، يظهر السؤال التقليدي: ما هو الروح إذن؟ الذي يظهر من الآيات أن الروح أعلى من الملائكة، ولكن هل هو خلق مخالف تماما لطبيعة الملائكة، أم أنه صنف من أصناف الملائكة ويختلف عنهم في كثير من السمات والقدرات[120]، لذلك سُمي روحا وذُكر معهم؟! لا يمكننا الإجابة إلا ب: الله أعلم!

النفخ منه!

بعد أن خرجنا في نهاية المطاف باحتمالين: إما أن الروح خلق أعظم من الملائكة، وجبريل وميكائيل منه، أو أنه أرقى أجناس الملائكة، ننبه على الخطأ الكبير، الذي يقع فيه الجميع تقريبا، بحديثهم عن نفخة الروح! على الرغم من أن القرآن لم يتحدث قط عن نفخة الروح، أو نفخ الروح، وإنما يتحدث عن النفخ من الروح. ولو قال القرآن: "نفخة الروح، نفخت فيه روحي" لأصبح التصور التقليدي تصوراً سليما، لأن الله

---

(118) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص. 180.

(119) احتيار المفسرين وتخمينات الصحابة حول الروح يدل على عدم وجود أثر صحيح عن النبي بشأنه!

(120) إذا أخذنا قصة السيدة مريم نموذجا، وجدنا أن الملائكة اقتصر دورها على تبشيرها بالمسيح: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٤٥]، بينما كان دور سيدنا جبريل هو أن يهبها هذا الغلام: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ... قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ... فَحَمَلَتْهُ ... ﴿٢٢﴾﴾ [سورة مريم, ١٧-٢٢]

تحدث عن ذلك، ولكن هذا لم يحدث، وإنما يذكر الله تعالى النفخ من الروح، وشتان بين الاثنين.

ونذكر للقارئ الكريم بعض[121] الآيات التي ذكر الله تعالى فيها النفخ من الروح: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ... ⁹﴾ [سورة السجدة ,٩]، ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ... ⁹¹﴾ [سورة الأنبياء ,٩١]، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ[122] مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ... ¹²﴾ [سورة التحريم ,١٢]

وكما لاحظ القارئ الكريم، فلقد نُفخ في مريم من روح الله، والذي هو جبريل كما جاء في سورة مريم –وكما جاء في الإنجيل-. وكما نُفخ في مريم من جبريل نُفخ في البشر عامة. ونسبة الروح إلى الله نسبة تشريفية، كما يقال: بيت الله وناقة الله، ولا يجوز بحال الاعتقاد أو الظن أن الروح من الله أو أن لها أصل إلهي، أو أنه ينفخ في الناس بعضاً منها، لأن الله تعالى ليس مكوناً من أجزاء، حتى يعطي البشر بعضها، فالروح اتفاقا مخلوقة وليست من ذات الله!

وبهذا يمكننا أن نفهم النفخ من الروح على أنه إعطاء البشر شيئا من الروح –أو من طبيعته-، شيء ذو طبيعة مغايرة للمادة، ولعب هذا الشيء المنفوخ في البشر الدور الرئيس في ترقية الإنسان عن الحيوان، وجعله كائنا عاقلا مُجَرِّدا. ولا يمكننا طبعا أن نعرف ما هو هذا الشيء المنفوخ، لأننا لا نعرف طبيعة الروح، ولكن الذي نعرفه أن الله تعالى ذكر مسألة النفخ من الروح فقط مع بعض البشر كمرحلة نهائية للتسوية، وبهذه النفخة صار البشر أناسا!

---

[121] باقي الآيات التي ذُكر فيها النفخ من الروح سنذكرها لاحقا، مستدلين بها على أمر آخر، فلا حاجة إلى ذكرها هنا، وإذا رجع القارئ الكريم إليها فسيلاحظ استمرار الحديث عن" النفخ من الروح" وليس نفخ الروح.

[122] لاحظ أن النفخ في مريم لتحمل بعيسى كان عن طريق فرجها، ولو كان خلقا خارقا صرفا، لأوجده الله في بطنها مباشرة أو نفخ الروح في أي مكان!

ولم يذكر سبحانه نفخة الروح مع الحيوان، لذا فإن القول أن الحيوان فيه روح قول غير صحيح، -اللهم إلا إذا استعملت ويُراد بها النفس-. فإذا قلنا أن هذا هو الروح ودوره، فكيف يحصل البشر الحاليون على الروح؟ جاء في الروايات أن الله تعالى يرسل الملك لينفخ الروح في الجنين، وذلك مثل ما رواه البخاري ومسلم: "عن أبي عبد الرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. فوالله الذي لا إله غيره؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها."اهـ

وهذه الروايات باطلة، لأنها جعلت الملك يُرسل لينفخ الروح! وهكذا جعلت الروح كائنا مستقلا، يحمله الملك وينفخه! والقرآن يقول أن المسألة نفخٌ من الروح، أي أن الروح نفخ منه في الإنسان، والقرآن قطعي الثبوت والدلالة[123].

والعجب أنهم جعلوا نفخة الروح هذه متعددة الأدوار، فهي تارة تحول تمثالا من طين إلى إنسان (آدم)! وتارة تُنفخ في الجنين، بدون سبب واضح! ونسأل السادة العلماء: ما دور الروح إذن، إذا كانت الحياة قد دبت في الجنين، قبل أن يُنفخ فيه الروح؟ فعلى قولكم؛ فإن الروح يُنفخ بعد مائة وعشرين يوما، وقبل هذه الفترة تكون الحياة قد دبت في الجنين؟ فماذا ستفعل الروح إذن؟ وعلى افتراض صحة هذا الحديث فإنه

---

[123] يكاد المريب يقول خذوني، فالراوي عن ابن مسعود يصف النبي بأنه صادق مصدوق، حتى يرهب السامع فلا يجادل في محتوى الرواية، وآخر يزعم أنه رأى النبي في المنام فسأله عن هذا الحديث فقال أنه قاله! فإذا لم يكن هناك ريب وشكوك حول هذا الحديث فلم أحيط بهذه السياج؟! ولله الحمد هناك من أقر من علماء أهل السنة -وهو عالم طبيعي لا يحضرني اسمه حاليا- في برنامج تليفزيوني أن المراحل المذكورة في الحديث لا تنطبق مع المشاهَد في مراحل خلق الجنين، ومن ثمّ يجب تأويل الحديث حتى لا يتعارض مع العلم، والعجب كل العجب أن الإعجازيين يتقبلون الحديث! والذي لو فهمناه تبعا لأحاديث أخرى موجودة لبان زيفه بكل يسر!

مؤيد لنا فيما نقول، لأنها لم تعطي الحياة، فلا بد أنها تعطي شيئا آخر، وهو القدرة على العقل والمشاعر المجردة. وكنت فيما مضى من المتقبلين لهذه الروايات، وقلت حينها أنه بسبب اختلاف نفخة الروح في كل إنسان يختلف الناس في ذكائهم ومشاعرهم[124].

ولكن بعد النظر في كتاب الله ظهر لي أن النفخ من الروح ارتبط بالإنسان الأول فقط، وأن روايات النفخ في الجنين غير صحيحة. وهنا يطرح سؤالٌ نفسه، وهو: كيف انتقل المنفوخ من الروح إلى الأجيال التالية، بعد الجيل الأول؟ نقول: هناك من اجتهد –في فهم الروح– فقال أنها الأوامر الإلهية، وكيفية انتقالها، فقال أنها تُنقل عبر الحيوان المنوي إلى الأجيال التالية: "وما نريد التأكيد عليه في هذه النقطة هو أن جميع البشر خلقوا من نفس الروح التي نفخها الله في آدم، ولا يتم نفخ روح في الجنين لأن الروح "الأوامر الإلهية" تكتمل وتصبح متواجدة في الجنين من أول لحظة تكوين الخلية الجنينية الأولى "نطفة الأمشاج"، فهذه الروح انتقلت إلى البشر من آدم وحواء عبر الحيوانات المنوية والبويضات، (...) ولهذا لم يأت أي ذكر لنفخ روح في الجنين في القرآن، كما أن القرآن لم يطلق على الشيء الذي يفارق الجسد أثناء النوم والممات لفظ الروح، ولكن أطلق عليه لفظ النفس.[125]" اهـ

وقالت جمعية التجديد بحدوث تعديل جيني مع نفخة الروح: "ثم عُدِّل "ربط" جينات هذا الكائن (سلسلة ال DNA) بالتدخل في عملية صفها، بصف معدل جديد وتركيزة جديدة، لتحويل نطفته إلى "مُخَلّقة" إنسانيا، (...) وأُكملت مدارك الإنسان الأول (آدم وحواء) وعقله، بالتأكيد على جينات العقل ليكون عقله فوق الغريزة لا خاضعا لها كالبشر الهمج، بعد أن زُوِّد بكينونة أخرى فوق العقل هي هبة "الروح" لتكون وسيلة اتصاله بمبدئه حيث الملأ الأعلى، والمندائيون يؤكدون أن آدم كان قبلا مخلوقا ماديا

[124] لا يعني هذا أننا كنا ننفي أن للبيئة والتربية دوراً كبيرا في نسبة الذكاء وحدة المشاعر، ولكن هذا يتعلق بدرجة كبيرة بالقابلية الداخلية النابعة من الروح.

[125] هشام عبد الحميد كمال، الهندسة الوراثية في القرآن وأسرار الخلق والروح والبعث، ص.115.

محضا، حتى أن أُحضرت نسمة "روح" من عالم الأنوار، وأُودعت فيه فصار كاملا[126]" اهـ

كما أنهم يوافقون الأستاذ هشام عبد الحميد في القول بنقلة الروح بالوراثة: "كل الناس هم من بني آدم (من ذرية آدم الإنسان الأول) جعل لهم سمع وأبصار وأفئدة (أدوات العلم والإدراك، أدوات العقل فوق الغريزي)، ولم يقل سبحانه أنه سواهم ونفخ فيهم من روحه، فهذا يدل أن كل الناس بعد آدم يرثون بالولادة تلك "التسوية النهائية" (التعديل الجيني) من آدم الأول، ويرثون جزئية الروح الإلهية المنفوخة فيه، تلقائيا.[127]" اهـ

والذي رأيته أنا، بعد نظري في الأطفال وكيفية تعلمهم اللغة واكتسابهم المعارف، أن المنفوخ من الروح لا يُورث، لأنه أمر فوق طبيعي، -وما فوق الطبيعي لا ينتقل بشكل طبيعي- وإنما أثره -التعديل الذي حدث في الإنسان بواسطة هذا المنفوخ من الروح- هو الذي يورث ويصل إلى كل إنسان.

وبهذا نقضي على الإشكالية التي واجهتني وهي اختلاف زمن النفخ من الروح! فإذا كان الروح قد نُفخ منه في الإنسان الأول بعد عدة أجيال خرجت من الأرض، وعاشوا واكتسبوا بعض الخبرات، فكيف يُنفخ منه في الجنين، والذي لم يخرج من بطن أمه بعد؟!

أما إذا قلنا بهذا القول ارتفع إشكال اكتساب الأطفال المعارف وتعلمهم اللغات بواسطة تقليد الآباء، لأنهم لا يحتاجون أمرا فوق طبيعي، فلقد اكتسبوا آثاره. ولا يعني بهذا أننا نقول أن الإنسان كائن مادي صرف، فنحن نُقر أن بالإنسان نفسا، وأن هذه النفس تُتوفى عند النوم ثم تُرد عند الاستيقاظ، وتُتوفي عند الموت وستُرد عند البعث! ولكن هذه النفس هي من أثار النفخ من الروح، والله أعلم بطبيعة النفس، إلا أننا

---

(126) جميعة التجديد، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص.28-29.

(127) المرجع السابق، ص. 95.

ونلاحظ أنهم يقولون كذلك بنفخة الروح وليس ب النفخ من الروح!

نستطيع –بفضل التقدم العلمي– تقريب الصورة للقارئ، فنقول: قديماً كان الحديث عن غير الماديات من باب الخرافة ويرتبط بالأرواح والأشباح، أما الآن فأصبحنا نتقبل وجود كثير من أشكال الطاقة والذبذبات والموجات المحيطة بنا في كل مكان، والتي لا نراها ولا نحس بها.

ومن المعلوم حاليا أن الإنسان تحيط به هالات من الطاقة، وهذه الطاقة تخرج من الجسد، فهي تُنتج من الجسم –ومن ثم فلا نتوقع أن نجد للنفس أثراً محسوسا في الحيوان المنوي أو البييضة، لأنها من منتجات الجسم، والذي لم يتكون بعد–، لذا فإذا فسد الجسد فإن النفس لا تستطيع تأدية دورها، لفساد الوعاء الحامل.

والطاقة كما نعلم موجودات غير مجسمة، فما المانع أن يكون المنفوخ من الروح قد أكسب الإنسان –ما يمكن أن نشبهه بالطاقة أو الهالة، المهم أنه شيء غير مادي وهو أقرب ما يكون إلى تصورنا للهالة[128]–، وهكذا أصبحت الأجيال التالية تولد معدلة، بحيث تصدر تلك النفس عن الجسد تلقائيا، وتتوفى أثناء النوم وتُرد عند الاستيقاظ.

نفخة في جماعة

كان من المفترض أن تُذكر هذه النقطة بعد حديثنا عن آلية الاستخلاف، ولكنّا رأينا تأخيرها لما بعد حديثنا عن الروح والنفخ منه. يرى المؤمنون بالتصور التوراتي أن الله تعالى نفخ الروح! في آدم، أي أن نفخة الروح حصلت مع فردٍ واحد، بينما نرى نحن أنها أُجريت لجمع من البشر، وقبل أن ندلل على قولنا من القرآن، نسأل المؤمنين

[128] لا نقصد بهذا القول أن النفس محيطة بالجسم مثل الهالة، ولا نقول أنها داخله كله أو داخل دماغه فقط، فالله أعلم بهيئتها، وإنما نعلم أنها مرتبطة به بشكل من الأشكال، وأنها غير مادية (على اعتبار أن الطاقة لا تعتبر مادة بالنسبة للإنسان!).

بالتصور التوراتي: هل كان لحواء روح[129]؟ تبعاً لقولكم فلقد خلق الله تعالى حواء من ضلع أعوج، فهل انتقل جزء من الروح إلى حواء؟ وهل كان هذا الجزء كافٍ لحواء؟! وإذا تقبلت عزيزي القارئ أن ينتقل الروح من آدم لحواء عن طريق الضلع، فلماذا تستغرب قول القائلين بتوارث الروح عبر التزاوج؟! ولماذا يرسل الله تعالى ملكا لينفخ الروح في الجنين؟! ألا ينتقل مع الحيوانات المنوية؟!

فإذا غضضنا الطرف عن هذه النقطة وانتقلنا إلى حديث القرآن عن النفخ من الروح، نجد أنه لم يذكر قط أن آدم نُفخ فيه الروح، وإنما يتحدث عن نفخ الروح في: "بشر، الإنسان". وإذا كان من الممكن القول أن كلمة "بشر" تطلق على الواحد من الجنس، فإن كلمة "الإنسان" لا تُطلق إلا على الجنس. فإذا نظرنا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [سورة السجدة ,٧]، فلا يمكننا القول أن المراد من "الإنسان" هو فرد، وإنما الحديث عن جنس، ولو كان المراد فردا لقال: وبدأ خلق إنسان من طين! وبما أنه استعمل الاسم مُعرَّفا فيجب أن يُفهم على أنه إشارة إلى الجنس.

وننظر في الآيات التي تحدثت عن النفخ من الروح، لنوضح أنها تتكلم عن جمع: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ ... قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [سورة الحجر ,٢٦-٤٠]

وكما رأينا، فالآيتان الأول تتحدثان عن جنسين: الإنسان والجان، ولا أعتقد أن هناك أحد يقول أن الجان بدء بجني واحد، خرج منه كل الجان! ثم بعد ذلك يذكر المولى

[129] يبدو أن نقاش رجال الكنيسة في القرون الوسطى حول: هل للمرأة روح أم لا؟! كان له مستند قوي وليس ضربا من ضروب العبث، فتبعا للتصور التوراتي الخيالي يُفترض أنه ليس فيها روح!!

إخباره للملائكة عن خلقه بشرا ... إلخ. ثم يأتي رد إبليس بأنه سيزين لهم، وهنا نسأل: من "لهم" الذين سيزين لهم إبليس؟! أليس من المفترض أنه آدم فقط؟ أو حتى آدم وحواء؟!

ونجد مشهدا قريبا في سورة ص، وفيه يقول المولى سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ ... قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾ [سورة ص, ٧١-٧٥] فهنا كذلك نلاحظ أن الحديث عن جنس بشكل عام وليس فرد، ويؤكد هذا قوله سبحانه: "لما خلقت"، فاستعمل الله: ما، ولم يستعمل: من! وسبب اللبس الذي حدث عند السادة المفسرين أنهم وجدوا مشهدين، مشهد يتحدث عن السجود لبشر، ومشهد يتحدث عن الأمر بالسجود لآدم، فقالوا أن المشهد الثاني هو المشهد الأول، بينما المشهد الثاني المتعلق بآدم هو أمر مخصوص بالسجود لذلك الشخص[130].

ولقد قلنا بأن النفخ من الروح كان في جمع وليس في جنس استناداً إلى فهمنا لقصة آدم المذكورة، وكيف أنه أُسكن مع غيره الجنة، كفترة إعدادية انتقالية، وأُخرجوا منها، وأن هؤلاء المدخلين اختيروا للنفخ من الروح لأنهم كانوا صالحين أكثر من غيرهم لتلقي النفخة من الروح، لأنهم طبائعهم أميل إلى الإنسانية منها إلى الحيوانية، فلعب النفخ من الروح الدور الحاسم في منحهم الترقية الكبيرة إلى الإنسانية، أما الآخرون فكانت طباعهم الحيوانية هي الغالبة، لذا لم يُنفخ فيهم من الروح، وعاشوا كحيوانات وماتوا كشيء غير مذكور!

[130] نُذكر أن السجود للبشر أو لآدم ليس بمعنى وضع الجبهة على الأرض، وإنما سجود يتفق مع هيئة الملائكة، ونحن لا نعلم كيف هي! فإذا كان هناك سجودٌ للشمس وللقمر والنجود والدواب، وهذا السجود ليس وضعا للجبهة ولا انحناء، فلا ينبغي أن نتوقع أن سجود الملائكة كان مثل سجودنا.

ولقد استندنا في قولنا هذا إلى سنة الاصطفاء، فالله يبعث فردا في أمة، ليكون رسولاً إليها! ولا يوحي إلى الأمة كلها، فكذلك اصطفى هؤلاء الجماعة ليبدأ بهم مسيرة الإنسانية، فنفخ فيهم من الروح ك: لُطفٍ من الله عزوجل، لمن يستحقه.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل خلق الله عزوجل الإنسان في جزيرة العرب فقط (اليمن تحديدا)، ومنها انتشر الناس في أنحاء الكرة الأرضية، أم أنه أنشأه من الأرض في جميع أنحاءها؟! وإذا كان قد خلق أناساً في كل أرض، فهل نُفخ فيهم من الروح تباعا، حسبما تهيأت كل جماعة؟! وخُلدت قصة آدم ومن معه لأنهم أول من نُفخ فيهم من الروح، ولأنها أول تجربة للبشر مع الشيطان؟! الله أعلم، وإن كانت النفس تميل إلى أن كل الناس خرجوا من جزيرة العرب، ثم انتشروا –في الأزمان الغابرة– في أنحاء البسيطة.

بشر أم إنسان؟!

يُقَسّم المؤمنون بالخلق السُني للإنسان –أي الرافضون للتصور التوراتي– المراحل التي مر بها الإنسان إلى مرحلتين رئيستين: المرحلة الحيوانية قبل النفخ من الروح، ومرحلة العقل والوعي والإدراك بعد النفخ منه! ولا خلاف بينهم في هذا التقسيم، وإنما يقع الخلاف بينهم حول التسمية التي تطلق على الكائن في هاتين المرحلتين، تبعاً لاستقرائهم آي القرآن، فهل هو بشر أم إنسان؟ وأول من قال بهذه التقسيمة –على حد علمي– هو المهندس محمد شحرور، ثم نسج على منواله الدكتور عبد الصبور شاهين، ثم من جاء بعدهم، على اختلاف في التسمية، فقال الدكتور شحرور أن الجنس الإنساني كان بشرا وبالنفخ من الروح صار إنسانا، ولا يعني هذا أنه لم يعد بشرا، وإنما صار: بشرا إنسانا، فكل إنسان بشر وليس كل بشر إنسان، وعلى هذه التقسيمة فإن آدم هو أبو الإنسان وليس أبا البشر، لأنه كان واحداً منهم، وسُبق بآخرين.

وكذلك قال الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه "أبي آدم"، فقال: "حقيقة لا ريب لدينا فيها؛ هي أن بين (البشر والإنسان) عموماً وخصوصا مطلقا، ف (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، ويسير على قدمين، منتصب القامة، و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته، فكل إنسان بشر، وليس كل بشر إنسانا، والمقصود هو طبعا المعنى الأول الذي استعملت فيه الكلمة (بشر) في آيات القرآن، وهو الظاهر أو المتحرك مع حسن وجمال.[131]"

وقالت جمعية التجديد ونقول نحن، أن البشر اسم لذلك الكائن الحي ذو الوجود المادي، بغض النظر عن كونه عاقلا أو غير عاقل، فإذا أُطلق عليه كلمة إنسان، فإنه يُراد به البشري بعد النفخ من الروح. أي أن هذا التوجه يخلص إلى أن البشر رُقيّ فصار إنسانا.

ويرى أنصار التوجه الآخر أن الإنسان مرتبة أدنى من البشر، وأنه على الإنسان أن يترقى ليصير بشرا، ومن أنصار هذا التوجه العلامة العراقي: عالم سبيط النيلي والدكتور حسن حامد عطية، والذي يجعل البشر بعد الإنسان وأفضل منه، ويدللون على رأيهم بمواطن انتقاد القرآن للإنسان.

وليس في استدلالهم هذا حرج، وإنما العجب كل العجب في استدلالهم على أفضلية البشر بآيات لا مستند لهم فيها! ومن ذلك ما قاله الدكتور حسن حامد عطية: "ومن كل ما تقدم نرى أن الله سبحانه وتعالى قد وصف جميع الرسل والأنبياء بأنهم بشر، بل إنه قد وصفنا جميعا الذين كلفهم بعبادته أننا بشر، وليس لمؤلف كتاب "أبي آدم" أن يحتج قائلا، أن وصف جميع الرسل والأنبياء بأنهم بشر لا يتعارض مع أنهم قد تحولوا إلى إنسان (إذ أن كل إنسان بشر) مادام يقول أن الإنسان لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته، إذ لو كان رأيه صحيحا لوجب أن يوضع جميع الرسل والأنبياء في مرتبة الإنسان لا مرتبة البشر، الذين قد وصفهم سيادته بأنهم

[131] عبد الصبور شاهين، أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، ص. 102.

مجرد مخلوقات متحركة حيوانية السلوك، عجبت الملائكة من أمر استخلاف أولئك المفسدين المتوحشين، بل وأكثر من ذلك يقول نفس المؤلف أن البشر لم يعد لهم وجود منذ ظهر آدم عليه السلام، في حين يسمينا المولى نحن جميعا: البشر.[132]" اهـ

ونحن لا نقول بأن البشر قد انتهوا وإنما نقول أن كلمة "بشر" تركز على إظهار الجانب المادي في الإنسان، أي أنه مخلوق من دم ولحم وعظم وليس كائنا مميزا، ويمكن للقارئ الكريم تتبع مواطن ذكر "بشر" في القرآن الكريم، وسيجد أنها كلها بلا استثناء تبرز هذا المعنى، ولا علاقة لها بإبراز أفضلية أو نقص. والآية الوحيدة التي كانت تشغب على تقسيمنا هذا هي قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [سورة الإنسان ,١]

وكنت أتساءل: كيف يُسمي الله تعالى البشري الذي لم يعقل إنسانا؟! كان من المفترض، -تبعا للتقسيم المعروض في القرآن كله- أن يقال: "على البشر"، ثم انتبهت إلى أنه لا إشكال في الآية، فالآية -والقرآن كله- لا يخاطب إلا الإنسان أو الناس، فلم يحدث أن خاطب البشر قط، لذا فإن هذه الآية استثارة للإنسان ليتساءل: هل مر عليه حينٌ لم يكن فيه إنسانا؟!

ولقد قدمت جميعة التجديد حلا تفصيلياً لهذا الإشكال، فقالت: "والآن هل يصح أن تقول لقروي هو للآن قروي: فكر، هل مر عليك دهر لم تكن مدنيا؟ هذا كلام لا منطق فيه ولا طائل. ولكن تقول لمدني ذلك: هل مر عليك أيها المدني دهر لم تكن مدنيا؟ فهذا صحيح، وجوابه: نعم، حين كنت قرويا. ثالثا: لأن الآية، تخاطب الإنسان الذي مُنح هبة المذكورية بالروح ليذكر ربه ويعي دوره، أنه قد يفقدها بتفريطه فيها، فيعامل معاملة هؤلاء الهمج بل أشد (...) لذلك كان فعل الشيطان إرجاع الإنسان إلى أصله الطيني، اللاذِكر، ليكون في النهاية لا مذكورا مرة ثانية فيتحسر الإنسان لائما الشيطان بأنه (﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا

(132) حسن حامد عطية، حواء من الخلق إلى البعث، ص. 38.

﴿٢٩﴾ [سورة الفرقان, ٢٩]، فالإنسان اللامتميز عن البهائم، لم ينتفع بنفخ الروح فيه شيئا، هو بشر همج، ولو لبس أرقى الألبسة وأذوقها، وتكلم بأحلى الكلام وأعذبه، وركب أفخم المركبات وأعقدها، مادامت حياته يأكل ويشرب وينكح وينام وهمه أن يفترس أي شيء ليعيش بلا ضابط داخلي منه ولا أخلاق، ناسيا ربه.[133]" اهـ

وآيات سورة الحجر قاطعة في أن البشر سبق الإنسان، وأنه كان غير عاقل، ففيها يقول المولى سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحجر, ٢٦-٢٩] فالآيات تذكر أن الإنسان –المخاطب في القرآن– مخلوق من كذا، والجان مخلوق من كذا، ثم تتجه إلى ذكر أصل خلق الإنسان، وكيف أن الله أخبر الملائكة أنه يخلق بشرا! ثم سيسوي هذا البشر وينفخ فيه من روحه! أي أن الإنسان كان بشراً قبل النفخ من الروح، فكيف يجادل المجادلون ويقولون أن البشرية مرتبة أعلى من الإنسانية؟!!

اكتساب وسائل الإدراك

يولد الإنسان –بغض النظر عن الغرائز اللازمة لقوام حياته– لا يعلم شيئا، كما قال المولى سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة النحل, ٧٨]

إلا أن الإنسان الحديث أصبح يولد من بطون الأمهات قابلا للسمع وللبصر وللفأد، ولأنه لا يعلم شيئا فإن سمعه وبصره وفؤاده يكونون معطلين، فيسمع الأصوات ويرى

[133] جمعية التجديد، الخلق الأول: كما بدأكم تعودون، ص. 73–74.

الأشياء، ولكنه لا يعرف ما دلالتها، وكيف عليه أن يتصرف قبالتها[134]. وعندما يكتسب الإنسان علوما ومعارف كافية تنشط هذه الوسائل وتُفعّل، عندما يمارس الفؤاد وظيفته، فيصبح إنسانا مدركا مجرِّدا. بينما كان الإنسان الأول كائن لا يعلم شيئا، كائن غرز الله فيه الغريزة، ثم نفخ فيه من الروحِ، فأصبح مختلفاً عن الأنعام لاكتسابه وسائل الإدراك، مثل السمع والبصر والفؤاد، والتي كانت وسائل أنسنته.

ويظهر هذا التحول جلياً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [سورة السجدة ,٩] فبعد النفخ من الروحِ أصبح ذا سمع وبصر وفؤاد، بينما كان قبل ذلك بدونها، لذلك نجد أن الله تعالى يذكرنا كثيرا بنعمة السمع والبصر والفؤاد وكيف أنه أنشأها لنا، وأننا لا نشكر على ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾]سورة المؤمنون ,٧٨[، ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾ [سورة الـملك ,٢٣]

وليس المقصود من السمع والبصر مجرد القدرة على استقبال الأصوات ورؤية المشاهد، فهذا متحقق عند عامة الحيوانات، بل وبقدرة أكبر من الإنسان عند بعض الحيوانات، وإنما المراد من ذلك القدرة على الاستقبال ومعالجة هذا المستقبَل بصورة تجريدية، بعيدة عن رد الفعل الانفعالي الغريزي، أي سماع الشيء وفهم المراد منه وما يندرج تحته، ورؤية الشيء وفهم ما يرمي إليه.

[134] قال الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه أبي آدم، أن الإنسان الأول كان بلا سمع ولا بصر كالأطفال، ونحن نخالفه لأن الإنسان الأول لم يكن لديه المقدرة على السمع ولا الإبصار أصلا، بينما هي موجودة لدى الطفل الحديث، ومعطلة فقط، لانعدام العلم، ومع اكتساب المعارف تبدأ في أداء دورها.

وهذا الاستعمال هو الأعم الغالب في القرآن، فنجد أنه يتكلم عن استجابة الذين يسمعون، وأن الكافرين صمٌ بكم عميٌ[135]، وأنهم لا يسمعون ولا يبصرون، وليس المراد من ذلك فقدان هذه الحواس، وإلا لكان عذراً لهم، وإنما المراد أن هذه العمليات اقتصرت على الجزء الحيواني وهو استقبال المدركات، ورفض معالجتها، لإغلاق القلب تجاهها.

فبعد النفخ من الروح تميز الإنسان عن الدواب بالسمع والبصر والفؤاد، وعندما يغلق الإنسان قلبه، تتعطل وظيفة وسائل الإدراك ويصبح الإنسان كالحيوان، بل أضل. لذا نلاحظ اللوم المتكرر في القرآن للإنسان الذي لا يسمع ومقارنته بالأنعام، لأنه رضي أن يعطل هبة الله تعالى فيه، ويعود إلى الحالة التي كان عليها قبل أن ينفخ الله فيه من الروح، فنجد الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٧٩] فهم أضل من الأنعام لأن الأنعام ليس لديها وسائل الإدراك ابتداءً، بينما يمتلكها الإنسان ويعطلها بيده عمدا!

والناظر في القرآن يلحظ أن الله تعالى جعل الفؤاد/الأفئدة[136] وسيلة رئيسة من وسائل الإدراك ويربطها بالسمع والبصر، وتأتي دوما متأخرة بعدهما. والفأد في اللسان يدل على الشي وشدة الحرارة، يقال: فأد الخبزة في الملة: شواها. فما هو الفؤاد وما دوره في العملية الإدراكية إذن؟ هناك من قال أن الفؤاد هو الإدراك المشخص بالحواس وهو الذي يعطي المادة الأولية الخام للفكر والعقل. وهناك من قال أنه بوابة القلب والمشاعر والأحاسيس. والقولان قريبان في المضمون، والذي يظهر من خلال المدلول

[135] البَكَمُ: الخَرَسُ مع عِيٍّ وبَلَهٍ. والفرق بين الأخرس والأبكم –كما قال الأزهري–: «الأَخْرسُ خُلِقَ ولا نُطْقَ له؛ كالبَهيمة العَجْماء. والأَبْكَمُ الذي للسانه نُطْقٌ، وهو لا يعْقِل الجوابَ، ولا يُحْسِن وَجْه الكلام». والأعمى في غالب استعمال القرآن ليس المراد منه الضرير فاقد القدرة على الرؤية، وإنما أعمى البصيرة.

[136] هناك من قال أن الفؤاد هو القلب أو الغشاء الخارجي للقلب، وهناك أقوال أخرى فيه، إلا أن اقترانه الدائم بالسمع والبصر يدل على أنه وظيفة وليس عضو، فالسمع وظيفة الأذان والبصر وظيفة العين.

اللغوي للكلمة، أن الفؤاد يقوم بدور المعالِج للمستقبَلات، التي يُدخلها السمع والبصر، فيغيرها إلى بيانات مجردة، يستطيع القلب أن يتعامل معها.

وعمليات السمع والإبصار والفأد وإن كانت تحدث في المخ[137]، إلا أن هذا لا يعني أن المخ هو المسؤول عن سلوك الإنسان تجاه ما يقابله، أو أن الإنسان يتصرف تبعا له، وإنما يرسل المخ هذه البيانات المعالجَة إلى القلب، ليقرر كيف يتصرف تجاهها، فإما أن يكون القلب سليما، فيتصرف بحيادية تبعاً لها كما هي، أو مريضا فيحاول أن يغير مدلولاتها فيفهمها على هواه، تبعاً للشكل الذي يريدها أن تكون عليه.

لذلك بيّن لنا القرآن أن العبرة بموقف الإنسان من الهوى، فإما أن يخالفه ويتبع سمعه وبصره وفؤاده، وبذلك يكون الإنسان فالحاً مستقيم الحال، وإما أن يكون عبداً لهواه، مطيعا له في كل ما يأمر، وبذلك لن ينفع معه أي نصح: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الجاثية, ٢٣]

نشأة اللغة

قلنا أن الإنسان اكتسب السمع والبصر والفؤاد بعد النفخ من الروح، ولكي تُكتسب وسائل الإدراك هذه، كان لا بد من نشوء لغة مجردة على التوازي، حتى يستطيع الإنسان أن يفكر! لأن اللغة هي حامل التفكير، وبدون لغة لا تزيد خواطر الإنسان على جوانح حيوانية صرفة[138].

[137] عندما تُستقبل الأصوات تُرسل كإشارات إلى منطقة معينة في المخ (الفص الصدغي الأمامي من المخ)، وكذلك تُرسل المبصرات إلى منطقة أخرى، ثم يعالجان بالفأد، ليدرك الإنسان ماذا يعنيان وماذا يُقصد بهما.

[138] واجه المتفكرين في مسألة نشأة اللغة إشكالية كبيرة وهي: هل نشأت اللغة قبل أن يستطيع الإنسان التفكير؟ فإذا كان، فكيف تكلم بدون أن يفكر؟ وإذا كان استطاع التفكير قبل القدرة على الكلام، فكيف كان يفكر بدون لغة؟!

وكما قلنا فلقد مر البشر بفترة بعد خروجه من الأرض، حتى نُفخ فيه من الروح، وفي هذه الفترة كان جهاز النطق للإنسان يُعدَّل حتى يصبح صالحا للكلام[139]. ولأن جهاز النطق عند البشر، -حتى قبل تعديله- كان أرقى من الحيوانات، فإنه كان يستخدم الأصوات التي يخرجها كوسيلة للتخاطب، كلغة بدائية جدا، كما تفعل الحيوانات، والتي تستعمل أصواتها كإشارات ذات مدلولات معينة.

وهكذا أخذت مقدرة البشر على إصدار الأصوات واستخدامها في التواصل في التزايد، مع تعديل جهازه الصوتي ونمو قدراته العقلية. ولأن الإنسان كائن مقلِّد -أرقى من الببغاء- فلقد لاحظ الأصوات المحيطة به في الطبيعة، من أصوات حيوانات وطيور، وأصواتٍ صادرة عن الاحتكاكات والتصادمات وحركة النباتات والرياح ... إلخ، وعمل على تقليد بعضها[140].

ومع مرور الزمن دخل الكثير من الأصوات لغة البشر، وإن كانت اللغة لا تزال لغة بسيطة هي خليط من الإشارة والوصف والتقليد والأصوات[141]، التي ترتبط بهذا الشيء، مثل النواء إشارة إلى القط، وتسميته باسم صوته: مياو.

والعجب أن الدكتور عبد الصبور شاهين جعل نشأة اللغة ترتبط بشكل كبير بالصدفة! فبعد أن بيّن أن الأقوال في نشأتها أربعة: إما وحي أو محاكاة أو مواضعة أو نتيجة انفعالات تعرض لها الإنسان! قال: "لقد اقترنت نشأة اللغة بمجموعة هائلة من الصدف العشوائية، يجل حصرها، وكان المخلوق البشري أشبه بطفل جلس إلى جهاز

---

[139] يعرض البروفيسور باول لوث في كتابه: الإنسان مخلوق لا مصادفة، ص. 168-167مقارنه بين جهاز النطق عند الإنسان الحديث وإنسان قديم، ثم يبين التشابه بين جهاز النطق لإنسان بدائي وبين الطفل، فيقول: "إن جهاز النطق لإنسان حديث الولادة يطابق جهاز إنسان أريكتوس أكثر مما يطابق جهاز إنسان حديث بالغ. فمعظم لسان الطفل يستقر في الفم، في حين تكون الحنجرة مرتفعة ولهذا فمن المعتقد بأن نطق الطفل يشبه نطق أريكتوس." اه

[140] ويدلل على حدوث التقليد هذا من الإنسان الأول ما نراه من الأطفال، الذين يقومون بتقليد أصوات الكلاب والقطط وما شابه من الحيوانات، الموجودة في البيئة المحيطة بهم.

[141] وطريقة التواصل هذه نراها عندما نشاهد اثنين، ذي لسانين مختلفين، ولا يعرف أيٌ منهما لسان الآخر، يتحدثان مع بعضهما.

كمتور ضخم، ذي مفاتيح كثيرة كثيرة، فأخذ الطفل في البداية يلمس هذه المفاتيح ويرقب أثر لمساته، وكلما وجد أثرا على شاشة الجهاز كرر اللمس ليستمتع به أو يغيره، حتى تكونت بينه وبين الجهاز ألفة أغرته بالمزيد، فمضى يستخدم خبراته المثبتة نتيجة التكرار، ويبني تجارب أخرى مركبة من تجاربه البسيطة، إلى أن سيطر على الجهاز مع تقدمه في العمر.[142]" اهـ

وليس في الأمر أي صدفة، وإنما هو تقليدٌ موجه من الإنسان لما حوله، والإنسان سيظل طيلة تواجده على سطح الأرض يقلد ما حوله، وما الاختراعات إلا تقليد لبعض مظاهر الطبيعة.

ومع حدوث النفخ من الروح في البشر حدثت زيادة في قدراته العقلية، مما ساعده على تحسين لغته الموجودة فعلا وزيادتها، إلا أن اللغة على الرغم من هذا التحسن ظلت لغة بسيطة، قليلة الكلمات[143]، لأن اللغة مهما كانت القدرات العقلية للإنسان، قائمة على التقليد والتلقين.

ولذا كانت القفزة الكبرى في تاريخ لغة الإنسان بتعليم آدم الأسماء! بالتدخل المباشر الخارجي من الرحمن الرحيم، كما حدث سابقا عند النفخ من الروح في البشر، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ... ﴿٣١﴾﴾ [سورة البقرة, ٣١]، وعلى الرغم من أننا سنتحدث عن قصة أبينا آدم في الباب القادم، إلا أننا سنستثني هذه النقطة لنعرضها هنا، لحاجتنا إليها.

اختلف العلماء في المراد من الأسماء التي عُلّمها آدم عليه السلام، ولقد أجاد الإمام الفخر الرازي عند تناوله هذه الآية، وأصاب الحقيقة أو كاد، فقال: "من الناس من قال: قوله: "وَعَلَّمَ ءادَمَ الاسماء كُلَّهَا" أي علّمه صفات الأشياء ونعوتها وخواصها؛ والدليل عليه أن الاسم اشتقاقه إما من السمة أو من السمو، فإن كان من السمة كان

(142) عبد الصبور شاهين، أبي آدم، قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة، ص. 134.

(143) هناك من العلماء من يقدر الكلمات التي بدأت بها بعض اللغات بما يقارب المائة وخمسين كلمة فقط!

الاسم هو العلامة وصفات الأشياء ونعوتها وخواصها دالة على ماهياتها، فصح أن يكون المراد من الأسماء: الصفات، وإن كان من السمو فكذلك لأن دليل الشيء كالمرتفع على ذلك الشيء، فإن العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول، فكان الدليل أسمى في الحقيقة، فثبت أنه لا امتناع في اللغة أن يكون المراد من الاسم الصفة. بقي أن أهل النحو خصصوا لفظ الاسم بالألفاظ المخصوصة، ولكن ذلك عُرفٌ حادث لا اعتبار به، وإذا ثبت أن هذا التفسير ممكن بحسب اللغة وجب أن يكون هو المراد لا غيره، لوجوه: أحدها: أن الفضيلة في معرفة حقائق الأشياء أكثر من الفضيلة في معرفة أسمائها، وحمل الكلام المذكور لإظهار الفضيلة على ما يوجب مزيد الفضيلة، أولى من حمله على ما ليس كذلك. وثانيها: أن التحدي إنما يجوز ويحسن بما يتمكن السامع من مثله في الجملة، فإن من كان عالماً باللغة والفصاحة، يحسن أن يقول له غيره على سبيل التحدي: ائت بكلام مثل كلامي في الفصاحة، أما العربي فلا يحسن منه أن يقول للزنجي في معرض التحدي: تكلم بلغتي، وذلك لأن العقل لا طريق له إلى معرفة اللغات البتة، بل ذلك لا يحصل إلا بالتعليم، فإن حصل التعليم، حصل العلم به وإلا فلا، أما العلم بحقائق الأشياء، فالعقل متمكن من تحصيله فصحَّ وقوع التحدي فيه. القول الثاني: وهو المشهور أن المراد أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التي يتكلم بها ولد آدم اليوم من العربية والفارسية والرومية وغيرها، وكان ولد آدم عليه السلام يتكلمون بهذه اللغات فلما مات آدم وتفرق ولده في نواحي العالم تكلم كل واحد منهم بلغة معينة من تلك اللغات، فغلب عليه ذلك اللسان، فلما طالت المدة ومات منهم قرن بعد قرن نسوا سائر اللغات، فهذا هو السبب في تغير الألسنة في ولد آدم عليه السلام. قال أهل المعاني: قوله تعالى: "وَعَلَّمَ ءادَمَ الاسماء" لا بدّ فيه من إضمار، فيحتمل أن يكون المراد وعلم آدم أسماء المسميات، ويحتمل أن يكون المراد وعلم آدم

مسميات الأسماء، قالوا لكن الأول أولى لقوله: "أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء"، وقوله تعالى: "فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِم" ولم يقل: أنبئوني بهؤلاء وأنبأهم بهم.[144]" اهـ

والقول الثاني هو القول المشتهر بين عامة الناس، حتى أن ابن طفيل تأثر به عند كتابته قصة حي بن يقظان[145]، فالناس تظن أن الله تعالى علّم آدم كل الأسماء! وهذا هو أول خطأ في التعامل مع الآية، فالله تعالى لم يقل: "وعلم آدم كل الأسماء"، وإنما قال: "وعلّم آدم الأسماء كلها"، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾ [سورة طه ,٥٦] ومثل: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [سورة القمر ,٤٢]، فليس المراد أن الله أراه كل آياته أو أنهم كذبوا بكل آياته، وإنما أراهم الآيات المناسبة كاملة غير منقوصة على أتم وجه، وعلى الرغم من ذلك كذبوا وأبوا.

وكذلك كان الحال مع سيدنا آدم، فلقد علمه الله سمات وصفات الأشياء المحيطة به كلها، والتي من خلالها يستطيع آدم أن يسميها، بتوليد مفردات جديدة.

والناظر في اللسان العربي يجد أن العلاقة بين الدال والمدلول ليست علاقة اعتباطية[146]، وإنما علاقة قصدية، قائمة على حدوث التطابق التام بين سمات الشيء وبين سمات اللفظ. فكما نعلم فإن الحروف تحمل سماتا مثل النعومة والخشونة والحدة والتكرار والطول والقصر ... إلخ، وهذه الحروف لها مخارج محددة تتشكل

---

[144] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثاني، ص. 162.

[145] عندما ذكر ابن طفيل تعلم حي بن يقظان الكلام جعله بطريقة التلقين، فقال: "فشرع أسال في تعليمه الكلام أولاً بأن كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق، فينطق بها مقترناً بالاشارة، حتى علمه الأسماء كلها، ودرجه قليلاً قليلاً حتى تكلم في أقرب مدة" اهـ

وكما لاحظنا فلقد استعمل ابن طفيل نفس التعبير الذي ذكره القرآن، وهذا يشير إلى أنه يتبنى هذا الفعل كتأويل للآية! والمأزق الكبير الذي وقع فيه ابن طفيل كان أنه جعل "حي" يتفكر في أمور معقدة مثل الكون وخالقه وأسماءه *وصفاته*! والمسلك الأسمى للسلوك الإنساني، قبل تعليم آسال له، وبدون أن يكون لديه لغة! فكيف تفكر في هذه الأمور، وكيف صاغها كأفكار بدون أن يكون لديه مفردات؟!

[146] يمكن للقارئ الكريم متابعة موضوع نشأة اللغة ونوع علاقة الدال بالمدلول بتفصيل كبير على صفحات كتابنا: لماذا فسروا القرآن؟! وهو موجود على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

تبعا لها، وكذلك تحمل الأشياء نفسها سماتا خاصة بها، نابعة من شكلها ومن حركتها أو سكونها ومن الأصوات الصادرة عنها ... إلخ. فعلّم الله عزوجل آدم[147] صفات الأشياء والأصوات –والله أعلم–، والتي بها يستطيع توليد الكلمات المناسبة لكل شيء، فعندما يرى آدم عليه السلام الشيء يعرف سماته، ومن ثم يستطيع أن يسميه التسمية المناسبة له، التي تحمل صفاتا متطابقة مع صفات الشيء! ثم قام سيدنا آدم بتعليم من معه هذه الأسماء، حتى يستطيعوا الكلام مثله.

وهذا القول يحل إشكالية ظهور أشياء جديدة، لم يرها مسبقا، فهذه الأشياء لا بد أنها تحمل سماتٍ ما، ومن ثم فسيستطيع تسميتها! ولقد قال المفسرون أن الله علّم آدم أسماء كل الأشياء الموجودة والتي ستوجد فيما بعد! وهذا كلامٌ لا دليل عليه! فلقد جعلوا الآية بمعنى: "وعلّم آدم أسماء كل الأشياء"!

وهذا ما لم يقله الله تعالى! ثم ما فائدة هذا التعليم إذا كان آدم سيموت ولن يعرف أبناءه هذه التسمية، وسيضطرون إلى البحث عن أسماءٍ لها بأنفسهم؟! وكيف كان آدم سيعلمها أبناءها، إذا كانوا لا يرونها وليست موجودة في بيئتهم؟! ما الفائدة أن أقول لك أنه سيكون هناك أشياء اسمها: تلفاز، مذياع .. وأنت لا تعرف شكلها، ثم أموت أنا وتموت أنت بدون أن نراها؟!

والله أعلم بالطريقة التي علّم بها آدم الأسماء كلها، ولكنها كانت تعليم ولم تكن وحيا –بنص الآية–، ولا يجوز بأي حال أن نتصور أن الله تعالى علّم آدم الأسماء بنفس الطريقة التي نُعلم بها الأطفال، وهي طريقة التلقين! وإنما بطريقة أخرى اعتمدت أول

(147) ليس سيدنا آدم فقط هو من علمه الله، فهناك آخرون علمهم الله –كما جاء في الكتاب، منهم أنبياء وغير أنبياء:

فعلم يوسف تأويل الأحاديث: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ... ﴿١٠١﴾﴾ [سورة يوسف, ١٠١]، وعلم داود صنعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ... ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٨٠]، وعلم سليمان وداود منطق الطير: ﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ... ﴿١٦﴾﴾ [سورة النمل, ١٦] وعلم عيسى عليه السلام علم التوراة والإنجيل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة آل عمران, ٤٨]، إلخ.

ما اعتمدت على تنقية بصيرته ونظرته للأمور، حتى يستطيع أن يتوسم سماتها الرئيسة، ومن ثم يسميها!

وبهذا لا يكون هناك تعارض بين القول الذي يقول أن حضارة الإنسان ولغته نشأت بسيطة، وهي في ازدياد وتقدم إلى قيام الساعة، –والذي يستند إلى أدلة مشاهدة قاطعة كاسحة– وبين الدين. فلم يقل الدين أن الإنسان الأول كان في قمة الحضارة والرقي ثم أخذت البشرية في الانتكاس، وإنما تكلم عن تعلمه أسس الكلام، وهذا ينبأك بالمستوى الحضاري الفكري، الذي كان عليه هؤلاء، وكم أخذت اللغة من الوقت حتى تضخمت وتشعبت ووصلت إلى ما هي عليه الآن.

وعندما نقول أن اللغة العربية هي اللغة التي تكلم بها سيدنا آدم، فلا يتوقع القارئ أنها نفس لغتنا الحالية، وإنما هي أصول اللغة، التي خرج من رحمها كل الألسنة والكلمات.

التدرج في اكتساب المعارف

بعد أن خرج سيدنا آدم ومن معه من الجنة، عاشوا كجماعة بشرية، يفرض عليهم حاجة الإنسان إلى الاحتماء بغيره أن يظلوا كجماعة، وبدأت هذه الجماعة في اكتشاف الطبيعة حولهم، والطريقة المثلى للتعامل معها بأنفسهم، ويستفيدون بشكلٍ أفضل مما يحدث حولهم.

ولقد خلّد الله سبحانه حادثة وقعت في ذلك الزمان، وهي حادثة ابني آدم، والقربان الذي قرباه، وكيف تقبل الله تعالى من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وكيف قتل ذاك

أخاه، وكيف بعث الله غرابا[148] يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، وكيف تحسر ابن آدم على عدم فعله هذا. وهذا أكبر دليل على المستوى الذي كان عليه هؤلاء القوم، ولو كان معنى الأسماء كما يقولون، أن الله علّم آدم كل الأسماء لكان من البدهي أن يعرف ابن آدم الدفن، ولا ينتظر حتى يعلمه غراب.

وهكذا كان يمد الله سبحانه الإنسانَ دوما بيد العون، حتى ييسر له الوصول إلى مراحل جديدة من التقدم، والعلماء يتكلمون عن كثير من المصادفات في تاريخ العلم أدت إلى اكتشافات علمية عظيمة! وليست هذه مصادفات وإنما ألطافٌ من الله بعباده، يبديها لهم، كنعمة جديدة تضاف إلى نعم الله على الإنسان، ومن ذلك اكتشاف النار واستخدامها في الأغراض المختلفة مثل طي الطعام والتدفئة ... إلخ.

فعلى عكس كثير من العلماء الذين يقولون أن الإنسان اكتشف استخدام النار صدفة[149]، يقولها القرآن صراحة أن الله تعالى هو من يسّرنا لهذا: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة يس , ٨٠]

---

[148] بعث الله عزوجل غرابا واحدا، وليس غرابيين يقتتلان، حتى قتل أحدهما الآخر!: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾]سورة المائدة , ٣١[، وكان هذا الغراب يبحث في الأرض ولا يدفن آخر، فلما رأه ابن آدم اهتدى إلى مسألة الدفن.

ولتأثر ابن طفيل بالآية وبالفهم الإسرائيلي لها جعل اهتداء حي لدفن أمه (الغزالة) عن طريق غرابين اقتتلا، وليس أي طائر آخر.

[149] عندما تكلم ابن طفيل عن استخدام النار، والذي مثّل نقلة نوعية في حياة الإنسان، ذكر أن ذلك حدث بالصدفة أيضا، فقال: "واتفق في بعض الاحيان أن انقدحت نار في أجمة قلخ على سبيل المحاكة. فلما بصر بها رأى منظراً هاله، وخلقاً لم يعهده قبل، فوقف يتعجب منها ملياً، ومازال يدنو منها شيئاً فشيئاً، فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تعلق بشيء إلا أتت عليه وأحالته إلى نفسها، فحمله، العجب بها، وبما ركب الله تعالى في طباعه من الجراءة و القوة، على أن مد يده إليها، وأراد أن يأخذ منها شيئاً فلما باشرها أحرقت يده فلم يستطع القبض عليها فاهتدى إلى أن يأخذ قبساً لم تستول النار على جميعه، فأخذ بطرفه السليم والنار في طرفه الآخر، فتاتي له ذلك وحمله إلى موضعه الذي كان يأوي إليه – وكان قد خلا في جحر استحسنه للسكنى قبل ذلك. ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل، ويتعهدها ليلاً ونهاراً استحساناً منه وتعجباً منها. (...) وكان من جملة ما القى فيها على سبيل الاختبار لقوتها، شيء من أصناف الحيوانات البحرية –كان قد ألقاه البحر إلى ساحله – فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قتاره تحركت شهوته إليه، فأكل منه شيئاً فاستطابه، فاعتاد بذلك أكل اللحم، فصرف الحيلة في صيد البر والبحر، حتى مهر في ذلك. وزادت محبته للنار، إذ تأتي له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شيء لم يتأت له قبل ذلك." اهـ

فالله جعل الشجر نارا، لنوقد منه ونستعمل النار في حياتنا، وهكذا الحال في كل الصدف التي يتحدث عنها الناس، بل وحتى الأفكار والخواطر التي تجول في أذهان العلماء، فإنه وإن كان هناك بعض النتائج التي تخرج من مقدمات لها، إلا أن كثيراً من الأفكار والتصورات تُلقى في أذهان المتفكرين فيها، بدون أن تكون للمقدمات الموجودة فيها دور كبير في الوصول إليها، وإنما يتكلم العالم عن فكرة ظهرت في ذهنه فجأة، فيعمل على اختبارها، حتى يتأكد من صحتها، وما هي إلا مزيد لطف من الله تعالى بالإنسان، وعونٍ له فيما يريد! وهكذا أخذ الإنسان في استخدام العناصر الموجودة حوله في الطبيعة، يُطوّعها كيف يشاء، ويقلد بشكل أو بآخر ما يقدمه الله له عبر الطبيعة.

ولقد قدّم ابن طفيل تصورا حسنا لتدرج الإنسان في استعمال الأدوات، ممثلا للإنسان بحي بن يقظان، ذلك الذي نشأ في جزيرة منعزلة، فتكلم عن اتخاذه الثياب بعد أن كان عاريا، وعن البيوت بعد أن كان منكشفا متنقلا، واستألافه الحيوان ... إلخ، والنقطة الأهم هي اجتهاده في كيفية اهتداء الإنسان الأول إلى ذلك، بما شاهده حوله في الطبيعة، فقال: "وفي خلال هذه المدة المذكورة تفنن في وجوه حيله، واكتسى بجلود الحيوانات التي كان يُشرِّحها، واحتذى بها، واتخذ الخيوط من الأشعار ولحا قصب الخطمية والخباري والقنب، وكل نبات ذي خيط. وكان أصل اهتدائه إلى ذلك، أنه أخذ من الحلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوي والقصب المحدد على الحجارة[150].

واهتدى إلى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف فاتخذ مخزناً وبيتاً لفضلة غذائه، وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض، لئلا يصل إليه شيء من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة في بعض شؤونه.

[150] يبين الله تعالى لنا أنه هو من هدى الإنسان إلى الثياب، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾] سورة الأعراف, ٢٦[

واستألف جوانح الطير ليستعين بها في الصيد، واتخذ الدواجن ببيضها وفراخها، واتخذ من الصياصي البقر الوحشية شبه الأسنة، وركّبها في القصب القوي، وفي عصي الزان وغيرها، واستعان في ذلك بالنار وبحروف الحجارة، حتى صارت شبه الرماح، واتخذ ترسه من جلود مضاعفة: كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعي.[151]" اهـ

وبطبيعة الحال كان التقدم العلمي والمعرفي للإنسان في ذلك الزمان تقدما بطيئا، لأنه كان يعتمد بدرجة كبيرة مباشرة على العناصر الطبيعية حوله مع تحوير بسيط فيها، ولأن البشر كانوا قد انقسموا وعاشوا كجماعات منغلقة على بعضها، متمايزة عن غيرها، وكلما ازداد البشر تعارفا وتقاربا، زادت عجلة التقدم[152]، ولذلك وجدنا أن المجتمعات التي أفلحت –في الماضي القديم– في تكوين دول أو ممالك كانت أكثر تقدما مما بقى على شكل قبائل وجماعات منعزلة.

تلقين الدين

بأسباب كثيرة علّل عديد من العلماء الغربيين نشأة الدين عند الإنسان، وهذه التبريرات تدور كلها على وصفين كلاهما مُر، فإما أنه لا إله، والإنسان هو من اخترع الدين اختراعا! وإما أنه هناك إله ولكنه ليس لطيفا به، لذا لم يهده إلى ما فيه خير الرشاد له، ولم يعرفه بنفسه ولا بإلهه! وكلا القولين يؤديان في نهاية المطاف إلى نفس النتيجة.

ونحن نرفض كلا القولين رفضاً باتا، ونرى أن أصل الدين بدأ بتلقين إلهي للجماعة البشرية في شبه الجزيرة العربية، ومع انتشار الناس في أنحاء البسيطة كان من الطبيعي أن يضيف الإنسان ويحور من عند نفسه.

---

[151] عبد الحليم محمود، فلسفة ابن طفيل وقصة حي بن يقظان، ص. 126–127.

[152] يمكن للقارئ الكريم متابعة موضوع: نحو أمة إنسانية واحدة، على صفحات موقعنا: www.amrallah.com والذي بيّنا فيه دور التعارف والتقارب في زيادة رقي الأمم، وكيف أنه غاية من أهم الغايات الإنسانية.

والمسلمون عامة يرون أن البشرية بدأت مؤمنة ثم دخلها الكفر والشرك بعد ذلك، وذلك لإيمانهم أن البشرية بدأت بنبي! أُرسل إلى أبناءه، فعلمهم الإيمان، ومع تفرق الناس حدث الشرك.

ولكن كما أظهرنا للقارئ، فلقد كان البشر مجموعة من الهمج نفخ الله فيهم من روحه، –وسيرى القارئ في الفصل القادم عبر قصة سيدنا آدم ما يؤكد قولنا هذا– وكانت معارفهم جد محدودة، لأنهم أول جيل من أجيال الإنسان، فلم يكن هناك جيل سابق لهم حتى يقلدوه أو يبنوا على قواعده.

ولأن هذا الجيل كان يمثل طفولة الجنس البشري، فمن غير المنطقي أن يرسل إليه رسول يدعوه إلى الإيمان، لأن قدرة هذا الجيل على التجريد والتصور كانت أقل ما يكون.

والإيمان كما نعلم مبني على الإيمان بالغيب، وكما نعلم فإننا نعطي الأطفال تصورا مبسطا عن الدين وعن الإله، وننتظر حتى ينضجوا ويستطيعوا أن يفهموا الدين فهما صحيحا[153]. فكذلك قدّمت الملائكة لهذا الجيل تصورا مبسطا عن الدين، عرّفتهم فيه بالله، وما يريده منهم، وعرّفتهم بأشكال العبادة، والتي لم تكن بنفس الشكل التجريدي في عبادتنا، وإنما بأشكال تتناسب مع عقلية هذا الجيل.

وكما سنرى في قصة آدم فإن هذا الجيل كان يرى الملائكة، بشكل غير بشري وغير شكلهم الأصلي في عين الوقت، وكانت هذه الملائكة تأتي البشر فتُلقنهم الدين وتعرفهم بالله عزوجل. لذلك وجدنا في التراث البشري كله رسوما لهذه الملائكة، والرسومات وإن اختلفت، لأن من رسم إنما رسم عن مرويات الأجداد وليس عن

(153) لا يعني كون الطفل طفلا أنه لا يحاسب على أفعاله، فهو يدرك كثيرا من الأشياء يحاسب عليها، ولكن المسألة الدينية بشكلها الحالي، القائم على التجريد والإيمان بالغيب لا يستوعبها عقل الطفل، لمحدودية تصوراته، لذلك لا يمكن الاستدلال بمعصية آدم، فلقد كان الأمر فيها أمرا مباشرا بعدم فعل شيء ففعله، وأعتقد أنه يمكن معاقبة طفل في العاشرة، إذا نهيناه عن فعل شيء واضح ففعله.

مشاهدة، إلا أنها اتفقت في الخطوط العريضة للملائكة مثل أنهم أولو أجنحة! ومثل الدور الذي يقومون به.

وهكذا استمرت الملائكة في متابعة الجنس البشري إلى أن وصل إلى درجة من النضج ومعرفة الله، يستطيع بها الاعتماد على نفسه فتوقفت الملائكة عن مد يد العون – المباشر المرأي– للبشر. وتناقلت الأجيال أخبار الملائكة، واستمر البشر على الإيمان إلى أن بدأ يظهر فيهم الشرك والكفر.

وعند هذه المرحلة أرسل الله تعالى أول أنبيائه سيدنا نوح عليه السلام، فكان الاعتراض الكبير من قومه، أن هذا بشر!: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٢٤]

ولم ينحصر الأمر مع سيدنا نوح، وإنما استمر بعده، فوجدنا قوم عاد وثمود يعترضون نفس الاعتراض: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة فصّلت, ١٤]

ولنا أن نسأل: لماذا القول بأن الله لو شاء لأرسل ملائكة؟ ولماذا قال قوم سيدنا نوح أنهم ما سمعوا بإرسال بشر في آبائهم الأولين؟! ألا يشير هذا إلى أن البشر في ذلك كان الحين، كانت تأتيهم الملائكة مُعلمين، فتكلمهم عن الله وتعرفهم وتلقنهم الدين. وتوارث الأبناء هذه الأخبار، فلما جاءهم نوح يكلمهم عن الله ويطالبهم بالإيمان، تعجبوا من كونه بشراً مثلهم! فلماذا يرسل الله بشرا وقد كان يرسل ملائكة، فرموه بالكذب استنادا إلى المألوف.

ولمن يرفض هذا الاستنتاج نسأله: ما معنى: ﴿... مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٢٤]؟ ولماذا الربط بإرسال الملائكة؟! ولمن يرفض تعليم الملائكة البشر نقول: إن مسألة تعليم الملائكة البشر لم تتوقف عند هذا الجيل،

وإنما تكررت بعد فترة طويلة مع بني إسرائيل، لسبب معين، فحينها أنزل الله ملائكة ليعلموا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ... ١٠٢﴾ [سورة البقرة, ١٠٢]

وبغض النظر عما كان يعلمه الملكان فإنهما كانا يعلمان الناس شيئا، ولم يأتيا بالوحي، فإذا قلنا استنادا إلى هذه الآية وإلى قصة سيدنا آدم وإلى مطالب المشركين وإلى العقل، -الذي يقول بوجوب تلقين الأطفال- أن الملائكة كانت تلقن الأجيال الأولى من البشرية الدين، بل وأرشدتها إلى أهم احتياجاتها فلا أعتقد أننا نكون قد أبعدنا النجعة!

استفسارات

بعد أن قدمنا للقارئ الكريم تصورنا عن نشأة الإنسان، والذي استخرجناه من القرآن، فإني على ثقة أن القراء قد انقسموا قسمين، -بغض النظر عن قبولهم أو رفضهم التصور-: قسم سيتسائل: كيف يأول الآيات التي قد تبدو مخالفة لما يقول؟! وقسم آخر سيصر على التمسك برأيه استنادا إلى ظنه أن هناك آيات تخالف ما قلنا به! وهذه من الأخطاء التي يقع فيها عامة المتعصبين، فما أن تقدم له رأيا مخالفا لما يراه، حتى يسارع في تخطيأك وتضليلك، بحجة أن هناك آيات أو أحاديث تخالف ما تقول! بدلا من أن يسألك: وماذا تقول في هذا؟ وهذا من ظنه أنك ضالٌ مضِل! قرأت آيتين فقفز في ذهنك رأيٌ، فقلت به، ولم تلاحظ أن هناك آيات أخرى تخالف ما تقول به!!

وهذا الصنف يصر على رأيه، متمسكا بالسؤال التقليدي: كيف لم يكتشف هذا الأوائل، واكتشفته أنت؟!

والرد اليسير هو: وهل أنزل الله القرآن الكريم لعصر واحد؟ هل جعل الله التدبر واجبا على السلف دون الخلف؟! أعلم أنه ثمة تيار يكاد يقول أن القرآن أًنزل ليتدبره السلف ويتبعهم الخلف!

وأعجب، فإذا كان السلف قد أتوا بالصحيح في فهم جميع القضايا التي طرحها القرآن –حتى العلمية منها– فماذا ترك السلف للخلف إذن؟! يمكن القول وبكل ثقة أن السلف أبدعوا في الأحكام والإيمانيات (الفقه والعقيدة)، وما عدا ذلك فيجب أن ينظر إلى أقوالهم في الآيات المتعلقة بالمجال العلمي الطبيعي والتاريخي، بمنظور نقدي فاحص أكثر من ذلك المنظور السلفي المسلّم بما يقولون، كتأويل معتمد للقرآن! لأنه من المفترض أن نكون قد تعدينا هذه التصورات البدائية منذ زمن بعيد، فتُذكر من باب الاستئناس ليس أكثر.

إن القرآن مليء بالحقائق العلمية، المذكورة صراحة ومباشرة في القرآن الكريم، ولقد قام السلف الكرام بلي هذه الآيات لتتناسب مع علوم عصرهم –ونحن لا نزال نفعل! فنلوي الآيات لتتناسب مع علومنا–، فلمّا تقدم العلم اكتشفنا أن الآيات ذكرت الحقائق العلمية صراحة، وأن تفسيرات السلف جرت النص إلى واقعهم، بدلا من العكس.

ولم يختلف الحال في مسألة خلق الإنسان، فلقد عرضها القرآن مباشرة، مفرقة في آي القرآن، ففهمها السابقون تبعا لعلوم عصرهم، وخالفوا –كما رأينا– منطوق الآيات في أحايين كثيرة! فهل نتبعهم على الرغم من ذلك؟!

إن الله تعالى بث في القرآن حقائق علمية مناسبة لكل عصر، ومهما فعل أرباب البيان في العصور السابقة فلن يستطيعوا أن يصلوا إلى تصورها، فإذا التزموا المنهج القويم

فسيتوقفون أمامها قائلين: ظاهر الآية مخالف لما نقول به، فحتماً فيها معارف تعلونا، والله أعلم كيف ستكون وكيف ستقع. ويتركون الآيات نبراسا لمن بعدهم، حتى يصلوا إلى ما يكفي لتأويلها، أما إذا اتبعوا المنهج الخاطئ وفسروا كل آيات القرآن فسيضطرون إلى تأويلها، وهكذا يطمسون الآيات البينات الموجودة في الآيات القرآنية. فإذا سلّم القارئ بما نقول فقد يطفو عنده بعض الاستفسارات، أهمها: كيف نقول أن آدم مولود[154] وليس مخلوقا من الأرض، والله تعالى جعل مثل عيسى كمثل آدم، وقال أنه مخلوق من تراب؟! وكذلك كيف نقول بوجود بشر مع آدم، والله تعالى يخاطبنا ب: يا بني آدم؟ والاستفسار الأخير: كيف خلق الله تعالى الأنعام؟ هل خلقها بنفس طريقة خلق الإنسان، أم خلقها بطريقة أخرى؟! لذا سنرد على هذه الاستفسارات، حتى لا يبقى لدى القارئ حرجٌ مما نقول.

آدم خُلق من تراب

لقد أتت آية صريحة أن الله تعالى خلق آدم بطريقة "فوق طبيعية"، وقرنه فيها بعيسى عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [سورة آل عمران, ٥٩] فكيف تقول أنه ولد لأب وأم؟! فلماذا خُص بالذكر مقارنة بعيسى؟! نقول: لقد كنت أفهم هذه الآية فيما مضى فهماً غير صحيح، وبسببها قلت أن آدم ممن خرجوا من الأرض، ولكن بعدما تدبرتها وجدت أنها تقول بعكس المألوف.

فالناظر في الآية يجد أن الله تعالى يقول أنه خلق آدم من تراب، فماذا تعني هذه الجملة؟! هل تعني أنه لا يزال ترابا؟ أم تعني أن الله خلق إنسانا (آدم) من تراب، وبعد أن خلقه قال له: كن فيكون؟! إن المشكلة تكمن في الفهم المعوج الذي قدمه

[154] الهنود يقولون أن آدم مولود من أب وأم، وعنهم أخذ الميرزا غلام أحمد، مؤسس الجماعة الأحمدية، قوله بوجود بشر مع آدم عليه السلام!

المفسرون للآية على الرغم من وضوحها، ولقد لاحظ الإمام الفخر الرازي هذه الإشكالية، فقال: "في الآية إشكال، وهو أنه تعالى قال: "خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدماً على قول الله له "كُنَّ" وذلك غير جائز. (...) الجواب: الصحيح أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم عليه السلام قبل ذلك، تسمية لما سيقع بالواقع.[155]"اهـ

وكما رأينا فلكي يتجاوز الإمام الفخر الرازي الإشكالية جعل آدم بمعنى الهيكل، الذي سيصير آدم! أما نحن فنفهم آدم بمعنى آدم، إنسان حي خلقه الله من تراب، كما خلقنا كلنا من تراب، ولسنا حاليا قطعا متحركة من الطين! وبعد فترة من خلقه –بدلالة (ثم)– قال له: كن، أي أنه كان يخاطب المخلوق الحي[156]، وعلى قولهم جعلوه يخاطب التراب، وهذا يعني أن آدم لم يُخلق بعد، والله يقول: خلقه!

والذي ينبغي أن يلاحظه القارئ أن الله تعالى لم يقل: إن عيسى كآدم! وإنما قال: "مثل عيسى عند الله كمثل آدم"، فإذا نظرنا إلى بعض أمثال هذه الآية في القرآن، وجدنا الله تعالى يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ... ﴿٢٦١﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٦١]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ... ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٧٦]، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة

[155] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب المجلد الثامن، ص. 67.

[156] اشتهر بين العوام القول أن الله تعالى خلق بالأشكال الأربعة، فخلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق حواء من أب بلا أم! (وهذا يعني أن آدم كان ينكح ابنته، فليس الأمر مجرد نكاح أخوة جاء منه كل البشر!) وخلق البشر من أب وأم، وخلق عيسى من أم بلا أب! وهذا قولٌ باطل، فالخلق كله كما بيّنا شكلان بآلية واحدة، وعيسى عليه السلام (وكذلك يحيى) كان حالة استثنائية لختام نبوات بني إسرائيل، وعلى الرغم من إقرارهم بأنه بلا أب نسبوه إلى داود عليه السلام!!!

العنكبوت ,٤١] ومثل هذه الآيات كثير، وكما رأى القارئ فإنها لا تشير إلى المشابهة وإنما إلى استخراج مثل من هذا مماثل لهذا[157].

والنقطة التي غفل عنها عامة المفسرين هي قوله تعالى: "عند الله"، فهذه هي الآية الوحيدة في القرآن التي ذُكر فيها: "مثل ..كمثل" وجاء فيها: عند الله، بينما كل الآيات الأخرى تقول: "إن مثل كذا كمثل كذا"، وهذا يعني أن مثل الطرفين المذكورين في الآية عند الناس غير ذلك، بينما هو كذلك عند الله[158]، أما باقي الأطراف المذكورة في باقي الآيات فهي عند الله وعند الناس، لذلك لم تُخصص بأي مخصص.

والنقطة الأخيرة التي أوّلها المفسرون كذلك، هي قوله تعالى: ثم قال له كن فيكون! فجعلوا: "فيكون" بمعنى: "فكان"! وتفننوا في إيجاد وإظهار التبريرات اللغوية، مثل القول أن هذا من باب استحضار الصورة، وحكاية الحال كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ... ١٠٢﴾ [سورة الصّافّات ,١٠٢] أما نحن فنفهم الآية كما هي في سياقها، فالآية جاءت ردا على النصارى الذين يؤلهون عيسى لأنه جاء بلا أب، فيقول الله تعالى: إن مثل عيسى، (ذلك الذي أُخرج من بطن أمه بلا أب، وإنما بنفخة من الروح) عند الله –وليس عندكم–، كمثل آدم، المخلوق من تراب، (والذي أخرجه الله من الهمج، بالنفخ من الروح، ولولاها لظل همجا إلى أبد الدهر)، فمن أخرج الحي من الميت (العاقل من الهمج والحي من التراب) قادر على أن يُخرج الحي من الحي[159]!

---

[157] لو كان المراد مجرد المشابهة لكان من الأولى أن يقول الله: كمثل زوج آدم، فلقد أُخرجت –كما يدعون– من أب بلا أم، وهذا من أم بلا أب!!

[158] كنا قد قدمنا سابقا تصورا محتملا لخلق عيسى عليه السلام –انطلاقا من أن آدم خرج من الأرض!– وهو أنه خُلق بواسطة خلية خُلقت بنفس الشكل الذي خلقت به الخلايا الأولى، التي خرج منها البشر من الأرض، إلا أن هذه الخلية وُضعت في رحم مريم، فخرج منها عيسى.

[159] في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [سورة الأنعام ,١٣٣] دليل على أن سيدنا آدم كان من الجيل الذي تلقى نفخة الروح، فهو أول جيل عاقل، فلم تكن هناك أجيال ومجتمعات سابقة لآدم عليه السلام، كما يزعم بعض المتناولين لهذه القصة.

يا بني آدم!

قلتَ أن الله تعالى بدأ الخلق بشكل جماعي وليس بشكل فردي، وهذا يعني وجود ذرية لهؤلاء الآخرين، فما لنا نجد أن الله تعالى يخاطبنا ب: يا بني آدم؟! نقول: لقد بيّنت آية مريم، التي ذكرناها سابقا وجود ذرية لغير آدم، وبغض النظر عن هذه الآية نقول: الناظر في الآيات التي يخاطبنا الله تعالى فيها ب: يا بني آدم، تكاد تنحصر في سورة الأعراف، فلقد ذُكرت في هذه السورة أربع مرات، هي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [سورة الأعراف, ٢٦]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ... ٢٧﴾ [سورة الأعراف, ٢٧]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [سورة الأعراف, ٣١]، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ [سورة الأعراف, ٣٥]

ولقد ذُكرت مباشرة بعد قصة سيدنا آدم، والملاحظ أن الأوامر التشريعية فيها مناسبة لتأسيس مجتمع بسيط أكثر من مناسبتها لنا، وهذا ما كان فعلا، فلقد خوطب بها بنو آدم أولا، ثم قُصت علينا من باب التذكرة بما خوطبوا به، فالله تعالى يُذكرهم بإنزال الثياب عليهم، ويناههم عن أن يقعوا فتنة للشيطان، الذي أخرج أبويهم من الجنة، كما يأمرهم بأخذ الزينة عند المساجد، وأنه إذا أتاهم رسل فعليهم الإيمان[160]!

---

[160] هذه الآية أكبر دليل على أن هذه الآيات من باب القص لما خوطب به أبناء آدم –بواسطة الملائكة– ، وإلا لكان المعنى استمرار الرسالة بعد النبي الكريم، والأحمدية يستدلون بهذه الآية على استمرار النبوة بعد الرسول الكريم، ولقد تحاورت مع الأستاذ مصطفى ثابت –أحد كبار منظّريهم– فقلت له أن الآية من باب الحكاية والقص وليس الخطاب المباشر. فقال لي: ما الدليل؟ فقلت له: السياق!

والآية الوحيدة التي خوطب فيها بنو آدم كانت في اليوم الآخر وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ [سورة يس, ٦٠]

وتبقى آية واحدة، تحدث الله فيها عن بني آدم –ولم يخاطبهم–، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [سورة الإسراء, ٧٠]

ونلاحظ أن هذه الآية وردت كذلك بعد الحديث عن قصة آدم مع الشيطان، وأن الله قال: وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا. ولم يقل: على كثير مما خلقنا، وهذا يعني أنهم فضلوا على كثير من العقلاء، وليس على الحيوانات أو الجمادات! فعلى من فضلوا؟! لقد تجادل المفسرون حول تفضيل البشر على الملائكة بسبب هذه الآية، فهل البشر أفضل من الملك أم أن بعض البشر (النبيين) أفضل من الملائكة؟! ولا مانع أن يكون الحديث عن الملائكة، ولكن ما المانع أن يكون المراد أن الله فضلهم على كثير غيرهم من البشر؟!

إن الله تعالى يقول في الآيات التالية: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [سورة الإسراء, ٧١-٧٢] فهنا حديث عن تقسيمات للناس، وأن كل أناس سيُدعون بإمامهم، وبغض النظر عن الإمام أو الجنس فالصلاح والفلاح بالأعمال، فلا يعني تفضيل بني آدم أنه سيكون لهم معاملة خاصة في اليوم الآخر. أفلا يحق لنا أن نفهم بني آدم كجزء من البشر، ذي أفضلية خاصة؟!

وبغض النظر عن هذا كله، فحتى إذا قلنا إن هذه الآيات خطاب لنا، فليس فيها أي إشكال، فالانتساب إلى آدم عليه السلام لا يعني أبدا أن نكون كلنا من ذريته شخصيا، وذلك لأن كلمتي: الأب والابن، ذات دلالة أعم وأشمل من دلالة: الوالد والولد،

فالأب قد يكون الوالد الذي أنجب، وقد يكون العم أو الجد، وذلك كما جاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣﴾ [سورة البقرة, ١٣٣] فإبراهيم جده وإسماعيل عمه وإسحاق أبوه، وعلى الرغم من ذلك سماهم الله تعالى كلهم: آباء! ونحن لا نزال نستعمل في العامية المصرية هذه الكلمة بهذا الاستعمال الموسع[161].

وقولنا: بنو فلان، لا تعني بحال أنه من اللازم أن يكون الجميع من أبنائه! فلم يحدث أبدا في تاريخ البشرية أن علا جنس على الاختلاط بغيره، حتى اليهود! ولقد قال الله تعالى في كتابه الكريم مرارا وتكرارا: يا بني إسرائيل! فهل كل بني إسرائيل من نسل إسرائيل؟! –والذي هو إسرائيل وليس يعقوب عليه السلام!–

لا أعتقد أن أحداً يستطيع القول، أنه لم يحصل اختلاط مع باقي الأجناس، وخاصة أن التوراة ذكرت في مواطن كثيرة طفح الزنا في بني إسرائيل، ناهيك عن الاستعباد الذي وقعوا فيه! فكيف يظل النسل بعد كل هذا نقيا؟! لقد انتهك نقاء بني إسرائيل انتهاكا كبيرا، وعلى الرغم من ذلك فلقد ظلوا بني إسرائيل، ولم يصبحوا بني آخر! فلماذا نتقبل أن يكون بين بني إسرائيل من ليسوا من نسله ويُنسبون إليه، ولا نتقبلها مع آدم؟!

إن سيدنا آدم هو أبو الإنسان شئنا أم أبينا، فهو الذي علّم البشر أصول البيان، وبالكلام قفزت البشرية قفزة هائلة، والتعلم قائم على التوارث والأخذ من السابقين، وهكذا سيعود الفضل إلى سيدنا آدم: المعلم الأول، والذي له الفضل الأكبر على البشرية في تعلمها الكلام، وبهذا يكون آدم أبانا، أبوة روحية.

---

[161] يمكن للقارئ الكريم متابعة ما كتبناه حول الفرق بين: الأب والابن، والولد والوالد، على صفحات كتابنا: لماذا فسروا القرآن، على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

وحتى لا يظن القارئ أن حديثنا عن الأبوة الروحية هو من المستحدثات، نذكره بأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ ... ٧٨﴾ [سورة الحج, ٧٨] فهل سيدنا إبراهيم أبو كل العرب؟ وإذا افترضنا –عبثا– أنه كذلك، فهل يعني هذا أنه ليس أبانا نحن معشر الأفارقة والمسلمين الأوروبيين، وأننا غير مخاطبين بهذه الآية، وليس لنا هذا الشرف؟! لا أعتقد أن هناك عاقل يقول بهذا! إن سيدنا إبراهيم أبو كل المؤمنين الموحدين، أبوة دينية. فإذا كنا إبراهيم أبانا، وأكثرنا ليس من نسله، فلم لا يكون آدم مثله؟!

خلق الدواب

إذا سلّمنا أن الإنسان خُلق بالطريقة التي تقول بها، فكيف ترى خلق الدواب؟ هل خُلقت بنفس الآلية، أم خلقت بطريقة أخرى، وهل من الممكن أن تكون تطورت؟! نقول: الله أعلم كيف خُلقت الدواب، فلم يذكر الله تعالى في كتابه كيف، –تبعا لعلمنا القاصر، والله أعلم فقد يكون أشار– فمن الممكن أن تكون قد خُلقت بنفس الطريقة، طريقة الأرحام الأرضية.

ونحن نميل إلى القول بهذا، ولكنا لا نجزم به، لعدم وضوح ذلك لنا في القرآن، وفي جميع الأحوال فلن تكون قد خُلقت بآلية التطور العقيمة، لأن الخلق بهذه الطريقة هو من باب العبث[162]، وتعالى الله عن ذلك!

ولقد قالت جمعية التجديد في كتابها: الخلق الأول، كما بدأكم تعودون، بأن الدواب خُلقت كالإنسان في أرحام أرضية، ثم خرجت وانتقلت إلى التناسل بواسطة الماء المهين، والفارق أنه لم يُنفخ فيها من الروح. وعند حديثها عن الأنعام، –والتي تعامل

[162] إن الخلق المباشر يتكرر أمام أعيننا، ومن ذلك ما نراه من نشأة الحشرات في اليرقات الموضوعة على روث أو ما شابه، ومن كائنات تُخلق في بيض تحميه الأم ... إلخ، فلماذا الاتجاه إلى طرق غير مباشرة؟!

معاملة خاصة في القرآن– قالوا بأن إنزال الأنعام المذكور في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [سورة الزمر, ٦] المراد منه إنزال الخلايا الأولى الحاوية شفرتها الجينية، والتي عولجت معالجة خاصة، لتكون لباسا وشرابا وطعاما ومركباً للإنسان.

وقال الدكتور عماد محمد بابكر حسن في كتابه آذان الأنعام، أن الدواب كلها –والإنسان كذلك!– خضعت لقانون التطور، إلا الأنعام، فإنها مستثناة، فلقد أُنزلت للإنسان منذ قرابة السبعة آلاف عام! وهكذا أصبحت الأنعام –عنده– أفضل من الإنسان، فلقد خُلقت خلقا مباشرا، بينما تطور الإنسان!

ولقد توقفنا في هذه المسألة لأسباب عدة، منها: كيفية خلقت الكائنات البحرية؟! فهل تكونت في أرحام أرضية تحت سطح البحر؟! إن العوامل المهيئة لتكون الخلية على سطح الأرض قد لا تفلح تحت الأرض! والله أعلم كيف كان ذلك! وكذلك، لحديث القرآن عن الدواب المبثوثة في الكون، فالناظر في القرآن يجد أنه يتحدث عن دواب خارج الأرض:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [سورة الشورى, ٢٩] فالآية صريحة في أن هناك دواب مبثوثة في السماوات والأرض، فليست الدواب في الأرض فقط[163].

---

[163] هناك من يستدل بهذه الآية على وجود كائنات عاقلة خارج الكرة الأرضية، ولكن الملاحظ أن القرآن لم يتحدث عن كائنات خارج الأرض، سوى الملائكة والدواب! فلا دليل لهم بها! وإشكاليات وجود حياة عاقلة خارج الأرض كثيرة، وليس هذا موطن الحديث عنها، ويمكن للقارئ الكريم متابعة ما كتبناه حول هذا الموضوع على صفحات موقعنا الشخصي: www.amrallah.com

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة النحل, ٤٩] **وكذلك هنا حديث صريح عن دواب وملائكة في السماوات والأرض.**

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الأنعام, ٣٨] **وهنا تخصيص بكون الدواب في الأرض، فهذه إشارة إلى وجود دواب خارج الأرض!**

ونحن نميل إلى أن الأنعام أُنزلت من الدواب المبثوثة خارج الأرض، لاختلاف طباعها وخصائصها عن باقي الدواب[164]! أما باقي الدواب فقد خُلقت وبث على الأرض، كما بُث غيرها في السماوات.

[164] يمكن للقارئ الكريم تنزيل كتاب: آذان الأنعام، للدكتور عماد محمد بابكر، من الشبكة المعلوماتية، وعلى الرغم من اختلافنا مع مؤلفه في أكثر النقاط، وتناقشنا معه حول نظريته في ملتقى أهل التأويل، إلا أننا ننصح القارئ بقراءة الكتاب، ففيه الكثير من التصورات النافعة حول علاقة الإنسان بالأنعام، كما أنه يقدم تفسيرا حديثا لمناسك الحج، رابطاً إياه بقصة الإنسان الأول.

الباب الثالث

قصة آدم

تمهيد

بعد أن قدمنا للقارئ الكريم في الباب السابق تصورنا –المستخرج من القرآن– حول نشأة الإنسان، نستكمل هذا التصور بعرض قصة الإنسان الأول في القرآن الكريم: آدم ومن معه. ولن يكون تناولنا تناولاً قاصرا على عرض الجوانب المؤكِدة لما نقول به، والمتعلقة بآدم فقط وبمن معه، وإنما سنتناول القصة، كقصة تحتوي عددا من الأحداث، ينظر إليها الناس من زاوية غير صحيحة ومن ثم غير محيطة، وكل ما سنقوم به هو أننا سنحاول أن نقدم للقارئ زاوية أخرى ليبصر بها القصة، نرى أنها –بإذن الله وعونه– صحيحة وكافية لتحقيق تصور سليم حولها.

اشتُهر في تفسير قصة سيدنا آدم عليه السلام ذلك التصور التوراتي، أنه خُلق من تراب الأرض في الجنة، ثم عصى الله بالأكل من الشجرة المحرمة، فأُهبط منها إلى الأرض هو وزوجه، ثم تاب فتقبل الله توبته، وأنجب آدم من زوجه أبناء كثر، فكانت حواء تنجب في كل مرة ذكراً وأنثى، وكان يزوج الابن أختاً من بطن أخرى! وهكذا بدأت البشرية بنكاح محارم! واستمر البشر في التناسل والانتشار في الأرض إلى أن وصلوا إلى ما هم عليه الآن.

وبخلاف هذا التصور وجدت بعض الآراء لبعض كبار العلماء في زمن السلف، إلا أنها لم يُكتب لها الانتشار، لأنها لم تجد من يتبناها، أو لأنها خالفت الروايات المأخوذة من التوراة، والمنسوبة إلى الصحابة.

وسنبدأ في تناول أركان هذا التصور، لنبين للقارئ الكريم أن هذا التصور ليس من المُجمع عليه أصلا، وإنما مما اختلف حوله العلماء منذ قديم الزمان، وذلك للإشكاليات الكبرى التي سبّبها.

كما سنبين له أنه تصور مخالف للقرآن في أحايين كثيرة، وأن السادة المفسرين لووا أعناق الألفاظ لتتوافق مع الروايات التوراتية الأصل. وفي هذه الأثناء سيرى القارئ أن

تصورنا القائل بأن آدم خُلق من الأرض وفيها، ثم أُسكن جنة أرضية، هو وزوجه وآخرون، كمرحلة تمهيدية إعدادية، ثم أُخرج مبكراً هو ومن معه بسبب معصيته، وبدأوا في إنشاء أول مجتمع إنساني على سطح الكرة الأرضية، وأن الإنسانية بدأت بنكاح أجانب وليس بنكاح محارم. سيرى أنه تصورٌ سليم لا يخالف القرآن في آية واحدة، وأن بعضاً مما جاء فيه، هو مما قاله الأقدمون، ولكنه مما لم يُكتب له الانتشار.

كما سنعرض سريعا لبعض التصورات الحديثة حول قصة آدم، لنبين أنها وقعت فيما وقع فيه الأقدمون، من لي لأعناق النصوص، وأنها لا تتطابق تطابقا كليا مع النص القرآني، بخلاف ما نقول به.

كما سنجري بعض المقارنات بين ما جاء في القرآن بشأن قصة آدم عليه السلام، ليظهر للقارئ الاختلاف بين ما يقوله القرآن وبين ما تقوله التوراة، وليعرف القارئ أين تدخلت يد التحريف، وليقوم القرآن بدوره الرئيس في الهيمنة على الكتب السابقة، وإظهار مواطن الخلل فيها: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... ﴿٤٨﴾﴾ [سورة المائدة, ٤٨]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النمل, ٧٦] ليقارن القارئ الكريم بين فعلنا وبين ما فعله الأقدمون، الذين جعلوا التوراة تقص على المسلمين أكثر الذي هم فيه يختلفون!

وكعادتنا نبدأ تناولنا بالتحليل اللغوي للأسماء المذكورة في القصة، ولأن الأسماء الواردة كثيرة، فسنكتفي بتحليل أهم اسمين فيها؛ وهما: آدم وحواء!

آدم وحواء

الأسماء الواردة في قصة آدم عليه السلام كثيرة، ولكنها كلها تشير بوضوح إلى أن اللغة التي تعلمها آدم عليه السلام، كانت هي اللسان العربي القديم، وقبل أن نتناول الاسمين بالتحليل نود أن نذكر أن اسم "حواء" لم يرد في القرآن الكريم، وإنما ذُكر اسم "آدم" فقط، وكان يقال: أنت وزوجك!

وكذلك لم يرد اسم "حواء" في حديث صحيح عن الرسول الكريم، وإنما ورد في روايات عن الصحابة والتابعين، مأخوذ محتواها عن أهل الكتاب، لأنها مما ذُكر في التوراة، ولكنا سنحلل اسمها، لأن فيه إشارة إلى استقلال خلقها!

إذا نظرنا في المعاجم اللغوية بحثا عن مداليل كلمة: أدم، وجدناها تدور في فلك الموافقة والتآلف، فابن فارس يقول في معجمه مقاييس اللغة[165]: "الهمزة والدال والميم أصلٌ واحد، وهو الموافقة والملاءمة ..."اهـ

وابن منظور يقول في معجمه لسان العرب: "الأُدْمةُ: القَرابةُ والوَسيلةُ إِلى الشيء. يقال: فلان أُدْمَتي إِليك أَي وَسيلَتي. ويقال: بينهما أُدْمةٌ ومُلْحة أَي خُلْطةٌ، وقيل: الأُدْمة الخُلْطة، وقيل: المُوافَقةُ. والأُدْمُ الأُلْفَةُ والاتِّفاق؛ وأَدَمَ الله بينهم يَأْدِمُ أَدْماً. (...) وفلان أَدْمُ أَهْلِه وأَدْمَتُهم أَي أُسْوَتُهم وبه يُعْرَفون، وأَدَمَهم يَأْدُمُهم أَدْماً كان لهم أَدَمَةٌ عن ابن الأَعرابي. التهذيب: فلان أَدَمَةُ بني فلان وقد أَدَمَهم يَأْدُمُهم وهو الذي عَرّفهم الناس (...) وآدَمَ الأَدِيمَ: أَظهر أَدَمَتَهُ؛ (...) والأَدَمَةُ: باطنُ الجلْد الذي يَلي اللحم والبَشَرةُ ظاهرها[166] (...) وفي الحديث: أَنه لمَّا خرج من مكة؛ قال له رجل: إِن كنتَ تُريد النساء البيضَ والنُّوقَ الأُدْمَ فعَلَيْكَ بَبَنِي مُدْلِجٍ. قال ابن الأَثير: الأُدْم جمع آدم كأَحْمَر

---

[165] معجم مقاييس اللغة هو المعجم الوحيد في اللسان العربي القائم على نظام الاشتقاق الكبير، والذي يرجع المعاني الكثيرة للفظة إلى أصل واحد، تندرج تحته أو أصول قليلة، بخلاف باقي المعاجم التي تقوم برص معان كثيرة للكلمة، يحتار القارئ معها في إيجاد رابط بين هذه المعاني كلها!

[166] لعل القارئ قد لاحظ العلاقة بيننا وبين الجلد، فنحن : بشر، وهناك البشرة، وأبونا آدم ونحن آدميون، وهناك الأدمة: باطن الجلد!

وحُمْر والأُدْمة في الإِبل البياض مع سواد المُقْلَتَيْن، قال: وهي في الناس السُّمرة الشديدة وقيل هو من أُدْمة الأَرض، وهو لَوْنُها قال وبه سمي آدم أَبو البَشَر على نبينا وعليه الصلاة والسلام. الليث: والأُدْمةُ في الناس شُرْبةٌ من سَواد ..."اهـ

فكما رأينا من خلال المعاني التي ذكرها ابن منظور، فالأدم من الخلطة، ومن الظهور فهو الأسوة الذي يُعرف به القوم، وهو في البشر الأسود، لأنه من أدمة الأرض! وبسبب مدلولات الاسم وجدنا بعض من تناول قصة آدم، وهو متقبلٌ لنظرية التطور، قال أن اسم آدم إشارة إلى البشر الأوائل عموما، لأنهم جميعا خرجوا من الأرض، فاسم آدم إشارة إلى جنس! ومنهم من قال أن آدم كان اسما للجيل الأول، ثم اختير مرة أخرى كاسم لإنسان في جيل ثالث من البشر، وهو آدم الذي نعرفه[167]! وهناك من قال أنه كان هناك أكثر من آدم، في مناطق مختلفة، أجريت لهم عملية الأنسنة، ومن بعدهم ظهر البشر العاقل!

ويُرد عليهم بقصة آدم مع الشيطان، فهل خدعهم الشيطان جميعاً بنفس الطريقة، وأخرجهم من الجنات التي أُعدت لهم؟ أم أنه نجح مع بعضهم وأخفق مع آخرين؟ ولماذا يقص الله تعالى علينا إذن قصة ذلك المخفق، ولا يشير إلى المفلحين؟!

---

[167] من ذلك ما قاله الدكتور محمد شحرور في كتابه: الكتاب والقرآن، قراءة معاصرة، ص 291: "لقد جاء آدم من "أدم" وهذا الفعل في اللسان العربي له أصل واحد وهو الموافقة والملاءمة، ومنها جاءت الأدمة وهي باطن الجلد، لأن الأدمة أحسن ملاءمة للحم من البشرة، ولذلك سمي آدم عليه السلام لأنه أخذ من أدمة الأرض. هنا جاء في لفظة آدم المصطلحان معا، فالبشر مؤلف عضويا من عناصر موجودة في الأرض، وبعد انتصابه ووجود الجهاز الصوتي المناسب أصبح موافقا وملائما لعملية الأنسنة، أي أن آدم هو المخلوق المتكيف الملائم للأنسنة، ومن الخطأ الفاحش أن نقول أن آدم اسم أعجمي، بل هو مصطلح عربي صرف، وإذا مدحنا إنسانا وقلنا إنه آدمي. فهذا يعني أنه دمث متكيف مع الظروف التي يعيشها. وهنا أيضا يجب أن نفهم أن آدم ليس شخصا واحدا وإنما هو جنس نقول عنه الجنس الآدمي." اهـ

وكذلك ما قاله في نفس الكتاب، ص 315: "لقد بدأ القصص القرآني بعد آدم بنوح مباشرة، ولم يغط الفترة الطويلة بين آدم ونوح حيث أن البشر التي تعلمت التجريد من آدم المصطفى في كل منطقة وجد فيها البشر استمرت عملية الأنسنة. حيث قلنا إن البشر انتشرت قبل الأنسنة وأن آدم كان في أكثر من منطقة. وإن البشر التي لم تتعلم التجريد منه انقرضت وهذا ما يسمى بالإنسان القديم الذي انقرض لأنه لم تتم عنده عملية الأنسنة بالتجريد، أي أن الإنسان القديم هو الإنسان الذي بقيت عنده العلاقة الطبيعية بين الصوت والمدلول دون القفزة إلى العلاقة الاصطلاحية." اهـ

والذي يظهر من السياق أن المراد من آدم هو بشري واحد، اصطفاه الله من وسط من معه، وكانت له تجربة شهيرة مع الشيطان، خلّدتها البشرية بأشكال مختلفة، وسنعرض لها في الباب القادم.

اشتهرت زوج آدم عندنا معشر العرب باسم "حواء"، –واشتهرت في الحضارات الأخرى باسماء أخرى مثل: إيفا!–، ولقد حاول الأقدمون تقديم تفسير لهذا الاسم، ومن ذلك ما ذكره الإمام الطبري: "عن ابن عباس –وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: (...) فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدةٌ خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة. قال: ولم خلقت؟ قالت: تسكن إليّ. قالت له الملائكة –ينظرون ما بلغ علمه–: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء. قالوا: ولم سُميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حيّ.[168]" اهـ

وهذا التعليل للاسم قريبٌ مما جاء في التوراة في سفر التكوين في الإصحاح الثالث: "3: 20 ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي"

فهنا نرى أن آدم هو من سمى زوجه حواء، ولكنها تقدم تعليا عجيبا، وهو أنها أم كل حي! فكيف عرَف آدم هذا، وهو الذي كان يعيش وحيدا في الجنة، لا يعرف له هدفا ولا غاية، فما أن يرى امرأة حتى يعرف دوره ودورها!! والقرآن يخالف قول التوراة، والرواية التي ذكرها الطبري مصدقة للتوراة، ومخالفة للقرآن الذي قال: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة البقرة, ٣٥] فآدم ما سكن الجنة إلا وزوجه معه، ولقد ذكر الطبري بعد إيراده هذا القول قولا آخر يقول أنها خُلقت قبل أن يسكن الجنة! وللأسف لم يكن لهذا القول رواية تسانده! وإنما قاله "آخرون"!

لذا علينا أن نبحث عن تفسير آخر لهذا الاسم، فإذا نظرنا في لسان العرب، وجدنا ابن منظور يقول: "(حوا) الحُوَّةُ: سواد إِلى الخُضْرة، وقيل: حُمْرةٌ تَضْرب إِلى السَّواد،

[168] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، المجلد الأول، ص. 513.

وقد حَوِيَ حَوىً واحْوَاوَى واحْوَوَّى، مشدّد، واحْوَوى فهو أَحْوَى، (...) يقال: رجل أَحْوَى وامرأَة حَوَّاءُ وقد حَوِيَتْ. (...) والحُوَّاء نَبْتٌ يشبه لون الذِّئبِ واحدته حُوَّاءَةٌ (...) وحَوَى الشيءَ يحوِيه حَيّاً وحَوَايَةً واحْتَواه واحْتَوى عليه جمَعَه وأَحرزه واحْتَوَى على الشيء أَلْمَأَ عليه وفي الحديث أَن امرأَة قالت إنَّ ابْنِي هذا كان بَطْني لَهُ حِواءً (...) والحَوايا التي تكون في القِيعانِ فهي حفائر مُلْتوية يَمْلَؤها ماءُ السماء فيقى فيها دهراً طويلاً لأَن طين أَسفلها عَلِكٌ صُلْبٌ يُمْسِكُ الماءَ واحدتها حَوِيَّة وتسميها العرب الأَمْعاء تشبيهاً بحَوايا البطن يَسْتَنْقِعُ فيها الماء ..."اه

فالراجح من اسم حواء أنها كانت حمراء حمرة مائلة إلى السواد، كما نلاحظ ارتباط "حواء" كذلك بالأرض، فيكون في الاسمين إشارة واضحة إلى الأصل الذي خرج كلاهما منه، وهو الأرض، فكما خُلق آدم من الأرض خُلقت حواء، وليس منه! ولو كان هناك إشارة إلى خروج أحدهما من الآخر لكان من الأولى أن يخرج آدم من حواء لا العكس، لأنها حوّاء من الاحتواء!

آدم .. وآخرون

أول ما نبدأ به حديثنا هو إثبات أن آدم كان معه آخرون في الجنة، ولم يكن وحده أو هو وحواء فقط! فإذا أثبتنا هذا أصبح هذا مؤكدا كبيرا أن الجنة كانت حديقة أرضية كثيفة الأشجار، وليست في السماوات العلى.

بيّنا في الباب السابق أن خلق الإنسان كان جماعيا، ومن بين هؤلاء اختير بعضهم لينفخ فيهم من الروح، وبعد النفخ من الروح كان من المفترض أن يخضع هؤلاء لفترة إعدادية انتقالية، ليتهيؤا للحياة الإنسانية، ويبتعدوا عن الحياة الحيوانية، التي ألفوها قبل ذلك، لذا كان على هؤلاء أن يُعزلوا عن البيئة المحيطة بهم، ويوفر لهم مكان يلبي

لهم احتياجاتهم الرئيسة، حتى لا يشغلهم شاغل عن التعلم، وحتى يعيشوا تبعا للأسس الإنسانية الجديدة.

وقد يرى القارئ أن القصة تتحدث فقط عن آدم وزوجه، فكيف نقول بوجود آخرين معه؟! فنقول: عندما تحدث القرآن عن الأنبياء وقص قصصهم، لا نجده يذكر أسماء من كان معه، وإنما يتحدث عنهم كفريق مقابل للنبي، منهم من آمن ومنهم من عاند، والاسم الوحيد الذي يُذكر هو اسم النبي!

وفي قصة آدم لم يختلف الحال، فلقد ذُكر اسم آدم وذُكرت زوجه بدون تحديد اسمها، وأما الباقون الذين لم يشكلوا حزبا معارضا وإنما كانوا متعلمين تابعين لآدم، ذُكروا بصيغة الجمع والإشارة، لأنهم لم يكن لهم دور محوري في القصة.

ونبدأ في تناول الآيات، التي عرضت لهذه القصة، مذكرين القارئ أننا سنفهم المفردات كما هي، بدون أن نجعل العاقل لغير العاقل، أو المفرد للجمع أو الجمع للمثنى .. ولك أن تقرر في النهاية من تتبع! من يلوي أعناق النصوص بحجة قول فلان وعلان، أم من يأخذها كما هي!

أول ما نبدأ به هو المشهد المذكور في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾] سورة البقرة ,٣٠-٣٨[

كما رأينا، فالله تعالى يخبر الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، أنه أن يُفهمهم ماذا يحدث في الأرض، ولماذا هذه العناية الخاصة بهذا الكائن، –لا أنه كان يتشاور معهم!–، فتعجب الملائكة وتتساءل: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء –الآخرون جعلوهم يتحدثون عن المستقبل وليس حاضرا مشاهدا، بلا بينة!– فيخبرهم الله أنه يعلم ما لا يعلمون.

وعلّم الله آدم صفات الأشياء المحيطة به كلها –بيّنا سابقا بأن المراد من الأسماء هو السمات–، ثم عرضهم على الملائكة. وهنا نتوقف لنسأل: من هم الذين عرضهم الله على الملائكة، وكانت الملائكة لا تعرفهم؟ لو كان الحديث هنا عن غير عاقل، لقال: "عرضها/عرضهن"، ولكن بما أنه قال: "عرضهم"، واستعمل ضمير جمع المذكر، فالحديث عن عاقل، فمن هم العقلاء، الذين عرضهم على الملائكة؟ سبب هذا الضمير إشكالية للمتصدين للآية، وينقل لنا الإمام الطبري –رحمه الله– نماذج من الاختلاف حول الأسماء والمعروضين، فيقول: "وأوْلَى هذه الأقوال بالصواب، وأشبهها بما دل على صحته ظاهرُ التلاوة، قول من قال في قوله: "وعلم آدم الأسماء كلها" إنها أسماءُ ذرِّيَّته وأسماءُ الملائكة، دون أسماء سائر أجناس الخلق[169]. وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال: "ثمّ عرَضهم على الملائكة"، يعني بذلك أعيانَ المسمَّين بالأسماء التي علمها آدم. (...) ثم عرض هذه الأسماء، يعني أسماء جميع الأشياء، التي علّمها آدم من أصناف جميع الخلق. (...) "ثم عرضهم"، ثم عرض الخلقَ على الملائكة (...) قال ابن زيد: أسماء ذريته كلِّها، أخذهم من ظَهره. قال: ثم عرضهم على الملائكة (...) عن مجاهد: "ثم عرضهم"، عرض أصحاب الأسماء على الملائكة (...) عن

---

[169] وهذا تخصيص لا دليل عليه، فلقد قال الله تعالى: الأسماء كلها، وليست ذريته والملائكة هي كل الأسماء! ثم ما الفائدة التي ستعود عليه من معرفة عشرات مليارات الأسماء؟! وحتى على هذا القول، لم تخبرنا الآية كيف تعلم آدم الكلام أصلا!

مجاهد: "ثم عرضهم على الملائكة"، يعني عرض الأسماء، الحمامةَ والغراب (...).[170]" اهـ

وكما رأينا فقد جعلوا المعروضين –المفترض كونهم عقلاء– بمعنى الأشياء نفسها، أو الذرية –التي لم تولد بعد!– أوالملائكة، وهكذا عُرضت الملائكة على الملائكة، أو أسماء الملائكة وذرية آدم على الملائكة!!

أما نحن فنقول أن المعروضين هم البشر الموجدون مع سيدنا آدم، الذين قالت الملائكة في حقهم: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ"، فلقد عرض الله تعالى هؤلاء البشر على الملائكة، وأمرهم أن ينبؤه بأسماء (سمات/صفات) هؤلاء. وهنا أقرت الملائكة أنها لا تعلم إلا ما علمها الله، –والله لم يُعلمها ما هي سمات هذا المخلوق المعدل– وأنه هو العليم الحكيم!

هنا يأمر الله تعالى آدم أن ينبأهم بأسمائهم! ويجب أن نتسائل: من الذين سينبأهم آدم بأسمائهم (صفاتهم)؟ قال المفسرون أن آدم أنبأ الملائكة بأسماء ذريته أو بأسماء الأشياء[171]! وهكذا فمن المفترض أن الملائكة لم تكن تعلم اسم الحمامة أو الأسد أو الفيل، أو أي شيء عامة، ثم أنبأهم آدم بها، فبذلك صاروا من العالمين!!

ولست أدري هل كانت الملائكة "جاهلة" قبل آدم عليه السلام، لا تعلم شيئا؟! وإذا كان لهم لغتهم، وتعلم آدم لغة أخرى، فالمسألة مسألة لغة جديدة لا أكثر! ولا فضل فيها لأحد على أحد! فأنا أيضا أتكلم لغة لا يعرفها الآخر[172]، وهي تكفيني في تصريف أموري، فما مزية الآخر عني؟!

---

[170] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المجلد الأول، ص. 485–488.

[171] كنت أرى سابقا أن الله تعالى أمر آدم أن ينبأ من معه بسماتهم، ثم لاحظت أنه لا مبرر للالتفات في الضمير، وأنه علينا أن نفهم الآية كما هي، ثم إن الملائكة لن تتأكد في هذه الحالة كذلك من صدقه!

[172] انتبه الإمام الفخر الرازي إلى إشكالية منطقية وهي:

أما نحن فنقول: عرض الله البشر –المخلوق المعدل الجديد– على الملائكة، وأمرهم أن يخبروه بسمات هؤلاء البشر، فلم يقدروا، فأمر الله تعالى آدم أن يخبر الملائكة – الذين كان يراهم في ذلك الوقت، لأنهم كانوا من المشخصات– بسماتهم.

فلما أنبأ آدم الملائكة بصفاتهم، عرفوا أن هذا المخلوق الذي استهانوا به، قابل لتعلم أمور عظيمة، وسيكون له شأن عظيم، فلقد عرف سماتهم، بينما لم يستطيعوا هم أن يعرفوا سمات البشر!

إذا هذا أول دليل على وجود بشر مع سيدنا آدم. ثم يأمر الله تعالى آدم بسكنى الجنة مع زوجه. وقد يقول القارئ: لم يقل القرآن، أنه أمر كل المجموعة بسكنى الجنة، فكيف تدخلهم معه؟ نقول: لست من أدخلهم، ونطلب من القارئ التفكر معنا في الآيات القادمة، حتى يعرف إلى ما استندنا: ﴿... وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦ ... قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ... ۝٣٨﴾ [سورة البقرة, ٣٦-٣٨]

فالناظر يجد أن الله تعالى بعد أن أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة، يأمر "جماعة" بالهبوط، وليس اثنين، بدليل استعمال ضمير الجمع! وهذا يعني حتمية أن يكون هذا الجمع قد دخلها، ولأن الله تعالى لم يكن يخاطب أحد من البشر في ذلك الزمان إلا آدم، الذي اصطفاه عليهم، فلقد أمره بدخول الجنة هو وزوجه[173]، ومن ثم دخلها الباقون تبعا لقائدهم ومعلمهم.

إذا كانت الملائكة لا تعلم أسماء هؤلاء –كما قالوا–، فلما أنبأهم آدم بالأسماء، فكيف يعرفون أنها صحيحة؟! إذا قلت لك أنني أتقن اللغة الألمانية، وأنت لا تعلمها، وأخذت تسألني وأنا أجيبك، فهل أنت متأكد من أنني أجيب إجابة صحيحة لما تسأل؟! بداهة لن تعرف ولن تستفيد شيئا.

[173] استند من قال أن "آدم" ليس فردا وإنما إشارة إلى الإنسان الأول العاقل، إلى أن الله تعالى تحول إلى استعمال ضمير الجمع بعد الحديث عن المفرد، بدون أن يذكر أي أشخاص آخرين، فيكون هذا دليلا على كون آدم جنساً وليس فردا! وهناك من يقول أن المراد من الزوج –تبعا للاستعمال اللغوي كما جاء في اللسان وغيره– هو الصنف والنوع والنمط والنظير، والقرين كما جاء في قوله تعالى: "احشروا الذين ظلموا وأزواجهم"، وبهذا يكون المراد من زوج آدم هو أقرانه من البشر العاقلين، ولذلك استعمل ضمير الجمع بعد حديثه عن المثنى.

وحتى لا يجادل مجادل فيقول: أقل الجمع اثنان، فيحتمل أن يكون المراد من الجمع آدم وزوجه! نقل: لقد كرر الله تعالى الأمر بنفس الصيغة، مؤكدا بقوله: جميعا، وهذا يعني أنهم لا محالة أكثر من اثنين[174]، وأنهم كلهم من البشر وليسوا آدم وحواء وإبليس، لأن الله خاطبهم بأنه سيأتيهم منه هدى، وبالتأكيد لن يُرسل الله تعالى رسلا إليه! ثم كيف سيكون بعض آدم عدواً لبعض حواء؟!

وحتى لا يظن القارئ أن القرآن لم يتكلم عن آخرين مع آدم، ننتقل معه إلى آيات سورة الأعراف، والتي قالت صراحة بوجود آخرين معه، إلا أنها لويت ولم تُؤخذ كما هي، ففيها يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ... ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ[175] أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ... ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ... ۝١٣ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ

---

[174] حاول مؤلفو جمعية التجديد، في كتابهم "وعصى آدم، الحقيقة دون قناع" تبرير ضمير الجمع المذكور بمختلف الطرق، لأنهم يقولون أن آدم وزوجه هما الوحيدان الذان نفخ فيهما من الروح، ومن ثم كانا الوحيدين في الجنة، فكيف يؤمر الجمع بالنزول؟! و يمكن للقارئ الكريم متابعة ما قالوه في الصفحات81– 84 من الكتاب المذكور. ولكن تكرار الأمر بالهبوط شاهد لنا، فلقد تكرر الأمر بالهبوط ليهبط كل الباقين، حتى لا يظنوا أنهم غير مخاطبين بالأمر، لأنهم لم يفعلوا شيئا! وذلك مثل أن يأمر القائد الجنود بالخروج بسبب مخالفة بعضهم للأوامر! فيقول: أخرجوا .. اخرجوا جميعا!

[175] هذه الآية من أشهر الآيات، التي يستدلون بها على وجود زيادات في القرآن، لوجود "ألا"، والتي حاول المفسرون أن يوجدوا لها تبريرا، ومن ذلك ما قاله الإمام الفخر الرازي: "ظاهر الآية يقتضي أنه تعالى، طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود، وليس الأمر كذلك. فإن المقصود طلب ما منعه من السجود، *ولهذا الإشكال* حصل في الآية قولان: القول الأول: وهو المشهور أن كلمة "لا" صلة زائدة، والتقدير: ما منعك أن تسجد؟! (...) والقول الثاني: أن كلمة "لا" ههنا مفيدة وليست لغواً وهذا هو الصحيح، لأن الحكم بأن كلمة من كتاب الله لغو لا فائدة فيها مشكل صعب، وعلى هذا القول ففي تأويل الآية وجهان: الأول: أن يكون التقدير: أي شيء منعك عن ترك السجود؟! ويكون هذا الاستفهام على سبيل الإنكار ومعناه: أنه ما منعك عن ترك السجود؟!كقول القائل لمن ضربه ظلماً: ما الذي منعك من ضربي، أدينك أم عقلك، أم حياؤك؟ والمعنى: أنه لم يوجد أحد هذه الأمور، وما امتنعت من ضربي. الثاني: قال القاضي: *ذكر الله المنع وأراد الداعي* فكأنه قال: ما دعاك إلى أن لا تسجد؟ لأن مخالفة أمر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها." اهـ

ولقد قارب القاضي عبد الجبار –بإذن الله تعالى– الرأي الصواب، فالمنع ذو دلالة واسعة، ولست أدري لم لم يأخذوا المعنى المناسب لهذا السياق، فإذا نظرنا في اللسان، وجدنا أن المنع هو: "المَنْعُ: أَن تَحُولَ بين الرجل وبين الشيء الذي يريده، وهو خلافُ الإِعْطاءِ، ويقال: هو تحجيرُ الشيء، (...) ومَنِيعٌ: لا يُخْلَصُ إِليه في قوم مُنَعاءَ، (...) والمعنى الثاني من تفسير المانع أَنه تبارك وتعالى يمنع أَهل دينه أَي يَحُوطُهم وينصرهم، (...) ومانَعْتُه الشيءَ مُمَانَعةً، ومَنُعَ الشيءُ مَناعةً، فهو مَنِيعٌ: اعتَزَّ وتعسَّر." اهـ

فيكون المراد –والله أعلم– ما الذي أعزك وقواك ألا تسجد؟! فلا زيادة ولا حشو!

لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ... ۝١٩﴾] سورة الأعراف, ١٠-١٩]

فكما رأينا فالله تعالى يتكلم عن تمكيننا في الأرض وجعله لنا فيها معايش وأننا قليلا ما نشكر، ثم يقول: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ ... ۝١١﴾]سورة الأعراف, ١١[لاحظ استعمال ضمير الجمع وحرف العطف: "ثم"، فالله تعالى خلقنا ثم صورنا ثم أُمرت الملائكة بالسجود لآدم. فإذا قلنا –استنادا إلى ضمير الجمع وحرف العطف– أنه كان هناك بشر مخلوقون قبل أمر الملائكة السجود لآدم، فلم نزد على ما قالته الآية، ولم نضف شيئا من عند أنفسنا.

وليس هذا هو مستندنا الوحيد، فباقي الآيات طافحة بوجود آخرين مع آدم، –حتى لا يجادل مجادل فيقول أننا لم نكن موجودين مع أو قبل سيدنا آدم[176]!–، فإذا نظرنا

(176) السبب في أن المفسرين لم يتوقفوا عند هذه الضمائر، التي استدللنا بها، أنهم لم يستطيعوا فهم الضمائر المذكورة أو أن يجروها على ظاهرها، فجعلوا كل الضمائر فيها كذلك، ومن المحاولات التي قدمها المفسرون ما قاله الإمام الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، (المجلد الرابع عشر، ص26)، –وسنكتفي بوجهين مما قال–:

"فظاهر الآية يقتضي أن أمر الملائكة بالسجود لآدم وقع بعد خلقنا وتصويرنا، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك، فلهذا السبب اختلف الناس في تفسير هذه الآية على أربعة أقوال:

الأول: أن قوله: "وَلَقَدْ خلقناكم": أي خلقنا أباكم آدم، وصورناكم: أي صورنا آدم، "ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ" وهو قول الحسن ويوسف النحوي وهو المختار، وذلك لأن أمر الملائكة بالسجود لآدم تأخر عن خلق آدم وتصويره، ولم يتأخر عن خلقنا وتصويرنا. *وأقصى ما في الباب أن يقال: كيف يحسن جعل خلقنا وتصويرنا كناية عن خلق آدم وتصويره*؟ فنقول: إن آدم عليه السلام أصل البشر، فوجب أن تحسن هذه الكناية نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ... ۝٦٣﴾]سورة البقرة, ٦٣[أي ميثاق أسلافكم من بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام، ويقال: قتلت بنو أسد فلاناً، وإنما قتله أحدهم. قال عليه السلام: ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل، وإنما قتله أحدهم، وقال تعالى مخاطباً لليهود في زمان محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ ... ۝١٤١﴾] سورة الأعراف, ١٤١[، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ... ۝٧٢﴾] سورة البقرة, ٧٢[والمراد من جميع هذه الخطابات أسلافهم، فكذا ههنا.

الثاني: أن يكون المراد من قوله: "خلقناكم" آدم "ثُمَّ صورناكم": أي صورنا ذرية آدم عليه السلام في ظهره، ثم بعد ذلك قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. وهذا قول مجاهد. فذكر أنه تعالى خلق آدم أولاً، ثم أخرج أولاده من ظهره في صورة الذر، ثم بعد ذلك أمر الملائكة بالسجود لآدم..." اهـ

وجدنا أن الله تعالى يحكي أن إبليس طلب الإنظار إلى يوم يبعثون، وأنه سيقعد لهم صراط الله المستقيم وأنه سيأتيهم ... إلخ.

والسادة المفسرون يقولون أن كل هذا الوعيد لمن سيأتي بعد ذلك، أي للذرية، وهذا تخصيص بلا دليل، فإبليس يتوعد الجماعة البشرية، التي نُفخ فيها من الروح، وأنه سيفعل فيهم كذا وكذا عبر العصور، فكيف نجعل هذه الآيات مثل آية سورة الإسراء، والتي قال الله تعالى فيها: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الإسراء, ٦٢] فهناك الحديث صراحة عن الذرية، أما هنا فحديث صريح عن أناس، يطلب الإنذار إلى يوم يبعثون، ويتوعد بأنه سيقعد لهم وسيأتيهم، فكيف أجعلها بمعنى: سأقعد لأولادهم وسآتي ذريتهم؟!

وكما خاطبهم الله تعالى في سورة البقرة بصيغة الجمع، يخاطبهم هنا كذلك بنفس الصيغة، فيقول: ﴿... ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة البقرة, ٣٦] أفلا يكون هذا مؤكدا، أن ضمائر الجمع المذكورة قبل ذلك مقصود بها الحديث عن أناس موجودين في ذلك الوقت، وليس حديثا عن ذرية أو أقوام قادمين؟!

وسبب هذه الإشكالية أن السادة المفسرين قد غفلوا عن أن خطاب الله ليس محصور بالزمان أو المكان ولا يخاطب جيلا بعينه في القرآن وإنما يخاطب الناس بشكل عام، وأن حديث الله تعالى للناس في القرآن، صنفان: 1- خطابٌ (نداء أو أمر) وهذا يكون مبتدأً لأقوام وما يليها، ولا يكون هذا الخطاب إلا لمن وُجه إليهم أول مرة ولمن يليهم. 2-قصٌ، وهذا يكون شامل السابق من الأقوام واللاحق، فيندرج تحته من يصدق فيه الأمر المحكي عنه. وكلا الصنفين غير محكوم بمخاطب بعينه، بخلاف كلام البشر، المحكوم بالمناسبة التي قيل فيها ومن أجلها، أما كلام الله فمطلق. فإذا أخذنا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١] (وهي أول آية تتحدث عن الخلق في القرآن) نجد أنه خوطب بها أول من خوطب جيل النبي، وكان "الذين من قبلهم" هم أهل الجاهلية، ثم بعد ذلك أصبح المخاطبين بها هم التابعين وصار "من قبلهم" الصحابة، ثم تابعي التابعين ... وهكذا في كل زمان، يختلف من يصدق عليهم الخطاب.

ونوضح فنقول: من الذين قال الله تعالى في حقهم: "ولقد خلقناكم ثم صورناكم"؟ هل هم جيل الرسول أم السابق أم اللاحق أم الناس في عصر الإمام الفخر الرازي أم الناس عامة؟ الجلي أن الكلام عام، عن خلق الناس، بدون تحديد في أي زمنٍ هم، وهذا ما نقول به، فلقد خلق الله الناس ثم صورهم، ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم.

فإذا تركنا آيات الأعراف وانتقلنا إلى سورة طه، وجدنا أنها مؤكدة لما في هاتين السورتين، ففيها تأتي الكلمة الفاصلة، والتي تبيّن كونهم جمعا من الذكور والإناث، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم ... ١٢٣﴾]سورة طه ,١٢٣[فلقد أكد الله تعالى المثنى ب: "جميعا"، ثم فصله في نفس الجملة بصيغة الجمع: "يأتينكم"، وهذا يدل على أن المخاطب بهذا الأمر جمعٌ مثنى، ولقد حاول المفسرون حل هذه الإشكالية، وفي ذلك يقول الإمام الفخر الرازي: "اعلم أن على أول هذه الآية سؤالاً؛ وهو أن قوله: "اهبطا"، إما أن يكون خطاباً مع شخصين أو أكثر فإن كان خطاباً لشخصين، فكيف قال بعده: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مّنّى هُدًى"، وهو خطاب الجمع؟! وإن كان خطاباً لأكثر من شخصين فكيف قال: "اهبطا"؟ وذكروا في جوابه وجوهاً: أحدها: قال أبو مسلم: الخطاب لآدم ومعه ذريته، ولإبليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله: "اهبطا" ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم". قال صاحب «الكشاف»: لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر، والسبب اللذين منهما تفرعوا جُعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا مخاطبتهم، فقال: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم" على لفظ الجماعة، أمّا قوله: "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ[177]"اهـ

وكما رأينا، فلقد أدخلوا إبليس وذريته فيمن أُهبط من الجنة، وفيمن سيرسل الله إليهم هدى! ولست أدري كيف! فلم يكن فيها أصلا حين أُمر آدم بالهبوط! وحقا لست أدري كيف نسى المفسرون أن إبليس كان مطرودا منها! فكيف أخرج الخارج أصلا؟! من المفهوم والمقبول أن يُطرد آدم الموجود في الجنة، أما أن يُطرد المطرود أصلا، ويُحشر مع آدم، فهذا هو العجب!

[177] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثاني والعشرون، ص. 112.

ولكن لا عجب، فما هي إلا محاولاتٌ قدّمها المفسرون لتبرير صيغة الجمع[178]، وعلى الرغم من عجبها واستحالتها فإنهم لم يجدوا إلاها، أما نحن فنقول أنه جمع مثنى، أي جمعٌ مكون من ذكور وإناث، لذا صح مخاطبتهم بالجمع، على اعتبار العدد، وعلى المثنى على اعتبار الجنس.

جنة أرضية

بعد أن بيّنا وجود آخرين مع آدم في الجنة، ننتقل لنوضح للقارئ الكريم أن القرآن لم يتحدث عن جنة الخلد، وإنما يتحدث عن جنة أرضية! وأن القول بأنها جنة سماوية ظهر وانتشر بسبب الروايات المختلقة، وليس بسبب قوة أدلته!

وأول ما نبدأ به هو ما قاله الإمام الفخر الرازي حول هذم المسألة، ليظهر للقارئ كيف أن الخلاف حول المسألة قديم: "المسألة الرابعة: اختلفوا في الجنة المذكورة في هذه الآية، هل كانت في الأرض أو في السماء؟ وبتقدير أنها كانت في السماء؛ فهل هي الجنة التي هي دار الثواب أو جنة الخلد أو جنة أخرى؟ فقال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصفهاني: هذه الجنة كانت في الأرض، وحملا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى: "... ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا ... ﴿٦١﴾] سورة البقرة ,٦١[واحتجا عليه بوجوه: أحدها: أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد، ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله: ﴿... هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾] سورة طه ,١٢٠[، ولما صح قوله: ﴿... مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾] سورة الأعراف ,٢٠[. وثانيها: أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها، لقوله تعالى: ﴿... وَمَا

---

[178] ومن تلك المحاولات ما حكاه الإمام الفخر الرازي في تفسيره في المجلد الثالث، ص.17 وضعّفه، أنهم جعلوا الجمع لإدخال الحية في الخطاب! والحية غير مكلفة ولا عاقلة، وقيل لإدخال الذرية، وهم غير موجودين!

هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾] سورة الحجر ,٤٨[. وثالثها: أن إبليس لما امتنع عن السجود لُعن، فما كان يقدر مع غضب الله على أن يصل إلى جنة الخلد. ورابعها: أن الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها، لقوله تعالى: ﴿... أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ... ﴿٣٥﴾﴾]سورة الرّعد ,٣٥[ولقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ... ﴿١٠٨﴾﴾]سورة هود ,١٠٨[إلى أن قال: ﴿... عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾﴾] سورة هود ,١٠٨[، أي غير مقطوع، فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم عليه السلام لما فنيت، لكنها تفنى لقوله تعالى: ﴿... كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ... ﴿٨٨﴾﴾] سورة القصص ,٨٨[، ولمَا خرج منها آدم عليه السلام، لكنه خرج منها وانقطعت تلك الراحات. وخامسها: أنه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدىء الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف، لأنه تعالى لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل ولأنه لا يهمل عباده، بل لا بد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد. وسادسها: لا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام في الأرض، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان ذلك أولى بالذكر لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم ، فدل ذلك على أنه لم يحصل، وذلك يوجب أن المراد من الجنة التي قال الله تعالى له: "اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة" جنة أخرى غير جنة الخلد.[179]" اهـ

وكما رأينا فالاعتراضات التي اعتُرض بها قوية، وهناك غيرها سنعرضه عند تناولنا للآيات، وليس هذا القول لهذين الاثنين فقط، فلقد رُوي عن أُبى بن كعب وعبد الله ابن عباس ووهب بن منبه وسفيان ابن عيينة واختاره ابن قتيبة فى المعارف والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى تفسيره عن المعتزلة والقدرية.

وبغض النظر عمن قال أي رأي، فالعبرة بمطابقة قوله مع النص القرآني. وقد بيّنا للقارئ الكريم، كيف أن أقوالهم في آيات الخلق لم تتطابق مع النص القرآني، وسنواصل هنا لنبين كذلك عدم تطابقها بشأن الجنة!

---

[179] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثالث، ص.4.

ولأن كلا الفريقين قالا بخلقٍ خارق لآدم بمفرده، فمن المتقبل أن يحدث الخلاف حول كون الجنة في الأرض أو في السماء، وبما أننا أثبتنا أن الخلق حصل بشكل جماعي، وبطريقة غير خارقة، فمن المنطقي أن تجري أحداث القصة على سطح الأرض، استكمالا للبرنامج الذي أعده الله لخلق خليفة في الأرض.

وبعد أن بيّنا الخلاف حول المسألة، نعود إلى أول مشهد في قصة آدم، وهو المذكور في سورة البقرة، فنقول: بعد أن عرض الله البشر على الملائكة، أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم[180]، ونتوقف لنسأل: أين حدث التعليم والعرض والسجود؟ كلنا نقول أن السجود كان خارج الجنة، إلا أن الروايات التي يعتمدونها كتفسير للقرآن! لم تذكر تعليم آدم الأسماء، وإنما قالت أن آدم تكلم ما أن نُفخ فيه الروح! -ولست أدري كيف عرف الكلام؟!، وهذه وحدها كفيلة برد الرواية!- كما لم تذكر المعروض، الذي لم تعلمه الملائكة، وأنبأهم إياه آدم! وإنما ذكرت الأمر بالسجود مباشرة بعد نفخ الروح! والقول ب "نفخ الروح" كفيلٌ كذلك بردها، لأن القرآن يتكلم عن "نفخ من الروح"، وشتان بين الاثنين!

أما نحن فنقول أن هذا حدث على الأرض، والتي عُلم فيها آدم الأسماء! ولست أدري هل في الجنة نفس المخلوقات الأرضية، حتى يتعلم آدم أسمائها؟! أم أن الله عرج ببعض الحيوانات إلى السماء ليراها آدم؟!

[180] انتبه الإمام الفخر الرازي إلى أن الأمر بالسجود كان سابقا لهذا الموقف، فقال: "المسألة الأولى: الأمر بالسجود حصل قبل أن يسوي الله تعالى خلقة آدم عليه السلام، بدليل قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [سورة ص, ٧١-٧٢]، وظاهر هذه الآية يدل على أنه عليه السلام لما صار حياً صار مسجود الملائكة لأن الفاء في قوله: "فَقَعُوا۟" للتعقيب وعلى هذا التقدير يكون تعليم الأسماء ومناظرته مع الملائكة في ذلك حصل بعد أن صار مسجود الملائكة" اهـ

وكما قلنا فلقد كان هناك أمران بالسجود، أمر عام للمخلوق البشري، وأمر خاص لآدم عليه السلام.

وبعد سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس، أُمر آدم بسكنى الجنة هو وزوجه[181]، وأمرا بأن يأكلا رغدا وألا يقربا الشجرة، ثم عصى آدم، وخَرج من الجنة، وجاء الأمر الإلهي بالهبوط، والذي يستدل به أنصار الجنة السماوية، والذي هو أكبر حجة ضدهم! فلقد قال الله تعالى فيه: ﴿... وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ... ﴿٣٨﴾﴾ [سورة البقرة, ٣٦-٣٨] فإذا كانوا في السماء فكيف سيهبطون؟! لو كانوا في السماء لكان من الأولى أن يقال لهم: ستُنزلون إلى الأرض! أما أن آمر من في السماء أن يهبط إلى الأرض فهذا هو العجب العجاب!

فإذا انتقلنا إلى آيات سورة طه تأكد لنا أن هذه الجنة أرضية، وليست سماوية بأي حال، فالله تعالى يقول فيها: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ[182] وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ

---

[181] العجيب أن الله تعالى قالها صراحة، أنه أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة، وهذا يعني أن "حواء" كانت مخلوقة قبل أن يدخلا الجنة، ثم تقول الروايات أن آدم أُسكن الجنة بمفرده فاستوحش، فخلق الله تعالى منه حواء وهو نائم! وكآدم كانت حواء قادرة على الكلام ومعرفة دورها بدون أن يُعلمها أحد! ولست أدري لماذا أخرجنا الله من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، وجعل آدم وحواء –تبعا للروايات– يُخلقان عارفين بالكلام وبأدوارهما في الحياة!

[182] ليس المراد من النسيان ذهاب الشيء من الذاكرة، بحيث لا يتذكره الإنسان، وإنما المراد إهمال الشيء والغفلة عنه، مع معرفته به ووجوده في الذاكرة، وهذا هو المعنى المستعمل في القرآن للكلمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة التوبة, ٦٧]، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة طه, ١٢٦]، ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة السجدة, ١٤]، فلا يوجد إنسان ينسى الله بمعنى أنه لا يذكر إذا كان هناك إله أم لا، ولا يوجد إنسان لا يتذكر نفسه، ولا يوجد إنسان لا يتذكر اليوم الآخر، وإنما كل هؤلاء غافلون عن الشيء غير مهتمين به. ويمكن للقارئ الكريم، ما قدمناه حول مسألة النسيان في تناولنا لسورة الأعلى على موقعنا الشخصي: www.amrallah.com وكيف حللنا الإشكالية التي سببها المفسرون بفهمهم لقوله تعالى: سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله.

عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣﴾ [سورة طه, ١١٥-١٢٣] فالناظر في الأوصاف المذكورة للجنة في هذه الآيات يجد أن الله تعالى يذكر له مميزات هذه الجنة، وهي أنه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى! فهل هذه هي أوصاف الجنة، التي تجري من تحتها الأنهار، والتي تحتوي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، والتي يُذكر لنا ما فيها من باب التقريب؟!

وهل تحتاج هذه الجنة إلى إغراء وتبيان لما فيها، حتى يحافظ الإنسان على نفسه فيها؟! إن الجنة هي الحلم النهائي لكل إنسان، فماذا سأقدم له بعد ذلك لكي يتبعني ويغامر بتركها؟!

أما إذا كان الحديث عن حديقة مرتفعة، تؤمّنه وتوفر له المأكل والمشرب والستر، فمن الممكن خداع الإنسان واستدارجه، ووعده بأشياء أخرى؟ إن الروايات تقول أن آدم خُلق على باب الجنة ثم دخلها مباشرة بعد نفخ الروح! فكيف عرف آدم هذه المعاني: الجوع والظمأ والعري والضحى؟! فهل هناك شمس في السماء خارج الجنة؟ وهل عرف آدم الضحى؟ لقد أكل من ثمار الجنة مباشرة بعد تحوله بشرا! –كما تدعي الروايات!–

أما نحن فنقول أنه عاش كإنسان على سطح الأرض، ومر بهذه المعاني، فذاق الجوع والظمأ، وذاق عدم المأوى والانكشاف للشمس، لذلك يخبره الله تعالى أن كل ما يحتاجه متوفر في هذه الجنة، فلن يجوع ولن يظمأ ولن يضحى ولن يعرى! أما إذا أخرجه إبليس منها فسيشقى، أي أنه سيعاني من كل المعاني المذكورة، فسيجوع ويظمأ ويضحى ويعرى!

وهذا يعني أن خارج الجنة كذلك، وكل هذا يشير إلى أن خارج الجنة هو الأرض بشكلها المعروف، والتي تحتاج إلى الكد، لكي يهيأ الإنسان لنفسه ما يحتاج. فإذا نظرنا في وسوسة الشيطان إليه، تأكد لدينا أنه كان في جنة/حديقة أرضية، في وسط

مجتمع من الناس، وليس مع زوجه فقط، فالشيطان يقول له: ﴿... قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [سورة طه, ١٢٠] وهنا نسأل: أين عرف آدم الموت؟! إذا كان آدم في جنة الخلد، فهذا يعني أنه لم ير الموت ولا يعرفه! ومن ثم فوعد الشيطان له بالخلد وعدٌ لا معنى له، إذ أنه يجب عليه أولا أن يعرفه بالموت ثم يقنعه أنه سيموت! وأنه سيوفر له ما يحميه من الموت!

أما إذا كان في مجتمع بشري ورأى من حوله ومن سبقه من البشر يموتون، وكذلك الحيوانات، ثم جاءه الشيطان فمنّاه بالخلود، فيكون للتمنية معنى، والخلود حلم كل إنسان منذ بداية البشرية، ولن يتحقق إلا في جنة الخلد! كما منّاه الشيطان بملك لا يبلى، فلقد منّاه بأن يكون ملكا للمجموعة التي تحيى معه في هذه الجنة، ثم تكون ذريته ملوكاً على الأجيال التالية، وسيتضح معنى هذه الوسوسة عند تبياننا ما هي الشجرة. وهنا نسأل: على من سيكون آدم ملكا؟ إن المُلك ليس له معنى، إلا إذا كان مع الإنسان آخرون، يكون الإنسان ملِكاً عليهم، ومن هذا المدخل دخل الشيطان، فلقد منّاه بأنه سيكون حاكما لمن معه، وشهوة السلطة والتحكم موجودة بداخل كل إنسان منا! ولا أعتقد أن هناك عاقل يقول أن آدم ظن أنه سيكون ملكا على الله أو الملائكة[183]!

وتمكن الشيطان من الوسوسة دليلٌ على أن الجنة أرضية، فلو كانت في السماء لم استطاع دخولها والوسوسة إلى آدم! ولقد ذكر الإمام الفخر الرازي، الأقوال التي ذكرها المفسرون لكيفية وقوع هذه الوسوسة، فقال في تفسيره:"اختلفوا في أنه كيف تمكن إبليس من وسوسة آدم عليه السلام مع أن إبليس كان خارج الجنة وآدم كان في الجنة، وذكروا فيه وجوهاً. أحدها: قول القصاص؛ وهو الذي رووه عن وهب بن منبه

[183] العجيب أنني طرحت هذا السؤال على زميل: على من سيكون آدم ملكا، إذا لم يكن معه بشر؟ هل على الله والملائكة؟ فما كان منه إلا أن أجاب بالإيجاب!!!!!

اليماني[184]، والسدي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أنه لما أراد إبليس أن يدخل الجنة منعته الخزنة، فأتى الحية وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البختية، وهي كأحسن الدواب، بعدما عرض نفسه على سائر الحيوانات فما قبله واحد منها، فابتلعته الحية وأدخلته الجنة خفية من الخزنة، فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فمها واشتغل بالوسوسة. فلا جرم لُعنت الحية وسقطت قوائمها وصارت تمشي على بطنها، وجُعل رزقها في التراب، وصارت عدواً لبني آدم[185]. واعلم أن هذا وأمثاله مما يجب أن لا يلتفت إليه لأن إبليس لو قدر على الدخول في فم الحية فلم لم يقدر على أن يجعل نفسه حية ثم يدخل الجنة، ولأنه لما فعل ذلك بالحية فلم عوقبت الحية مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة. وثانيها: أن إبليس دخل الجنة في صورة دابة، وهذا القول أقل فساداً من الأول. وثالثها: قال بعض أهل الأصول: إن آدم وحواء عليهما السلام لعلهما كانا يخرجان إلى باب الجنة وإبليس كان بقرب الباب ويوسوس إليهما. ورابعها: وهو قول الحسن: أن إبليس كان في الأرض وأوصل الوسوسة إليهما في الجنة. قال بعضهم: هذا بعيد لأن الوسوسة كلام خفي، والكلام الخفي لا يمكن إيصاله من الأرض إلى السماء، واختلفوا من وجه آخر وهو أن إبليس هل باشر خطابهما أو يقال إنه أوصل الوسوسة إليهما على لسان بعض أتباعه.[186]" اهـ

ومحاولاتهم تبرير تمكنه من الوسوسة إلى آدم في جنة السماء محاولات واهية، أما القول بأنها أرضية فيعطي تفسيرا منطقيا لكونها في الأرض.

وختاما نقول: إن التصور المطروح في الروايات عامة تصورٌ خرافي مصادم للقرآن، يجعل آدم يتكلم بدون تعليم! وحواء تُخلق في الجنة على الرغم من أن الله أمر آدم

[184] وهو من مسلمة أهل الكتاب، كان يهوديا فأسلم، وهناك من تكلم في حسن إسلامه! والمتفق عليه أنه لعب دورا في بث الإسرائيليات بين المسلمين.

[185] بغض النظر عن أن هذا القول مطابق كلية لما ورد في التوراة، فإنه دليل على أن الجنة أرضية، وإلا فكيف عرض إبليس نفسه على سائر الحيوانات، ودخل في الحية! ونحن لا نقبل الرواية ونردها جملة، وإنما نعجب من أهل الأثر، الذين قالوا أن الجنة في السماء، ثم قبلوا هذه الرواية!

[186] المرجع السابق. المجلد الثالث، ص.15.

أن يسكن هو وزوجه! ثم يجعل جنة آدم هي جنة المأوى بلا دلي! فلا يكفي أن يقول الله تعالى: "الجنة" لتكون هي الجنة المعهودة، فلقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القلم, ١٧]. فهل أصحاب الجنة المذكورون في هذه الآية هم نفس أصحاب الجنة المذكورين في اثنتي عشر آية أخرى؟ ليسوا هم بداهة، والكل يجزم بهذا من خلال السياق!

فإذا كان الله تعالى قال أنه خلقنا من الأرض وأنه جاعل في الأرض خليفة، ولم يذكر إصعاد أحد إلى السماء ولا إنزال أحد منها، وإنما تكلم عن "هبوط"، –وهذا يكون من مكان لآخر[187] أو من مكان مرتفع لآخر، كما قال تعالى: ﴿... ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ... ﴿٦١﴾﴾ [سورة البقرة, ٦١]– وهذا يعني أن المخاطب به سيفعله، ويتحقق هذا بكل بساطة إذا كانت الحديقة مرتفعة عما حولها، ولو كانت في السماء لاحتاج إلى: إنزال أو إهباط!

كما أن هؤلاء لم يقدموا تبريرات معقولة لضمائر الجمع، إلا بإسقاطها على الذرية –بلا دليل!– أو بإدخال الشيطان –المطرود أصلا– فيها! ولا يعني أن الله تعالى قال لهم أن لهم في الأرض مستقر، أنهم لم يروها قبل ذلك، وإنما يعني أن المرحلة الانتقالية التي كانوا سيمرون بها قد انتهت مبكرا، فلم يعد هناك فائدة من وجودهم في الجنة، طالما قد وقع المحظور!

[187] لا نزال نستعمل هذه التعبيرات في لغتنا العامية المصرية، فنحن نقول في الريف: أنا نازل البلد أو الكَفر! ونازل مصر، والأخوة في صعيد مصر يقولون: هاتدلى مصر.

فهم مقلوب للوسوسة

بعد أن بيّنا أن جنة آدم جنة أرضية، ولهذا استطاع الشيطان أن يوسوس له، نتوقف مع آية الوسوسة، المذكورة في سورة الأعراف، والتي فهمها المفسرون فهما مقلوبا، مما أدى إلى ظهور إشكاليات، حاولوا هم تجاوزها، فلم يفلحوا في تقديم تبرير مقبول لها! وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الأعراف, ٢٠]

فلقد فهموا أن إبليس قال لهما أن الله نهاهما لكي لا يكونا ملكين ولا يكونا من الخالدين، ومن ذلك ما قاله الإمام الطبري: "قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: وقال الشيطان لآدم وزوجته حواء: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا ثمرَها، إلا لئلا تكونا ملكين. وأُسقطت"لا" من الكلام، لدلالة ما ظهر عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿... يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ... ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة النساء, ١٧٦]. والمعنى: يبين الله لكم أن لا تضلوا. وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يزعم أن معنى الكلام: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكين، كما يقال:"إياك أن تفعل" كراهيةَ أن تفعل. "أو تكونا من الخالدين"، في الجنة، الماكثين فيها أبدًا، فلا تموتا.[188]" اهـ

وفي تصديق آدم لهذا القول إشكالية كبرى، إذ أنه يعني أنه ظن الظن السيء بالله، وأن الله لم يرد له الخير! وهذه الإشكالية لا أساس لها في الآية، فالآية لم تقل ما قاله المفسرون، الذين فهموها بهذا الشكل: "نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة لئلا تكونا ملكين ولا تكونا من الخالدين"

[188] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المجلد الثاني عشر، ص. 348.

أما فهمنا[189] للآية، المطابق للآية بدون افتراض محذوف، فهو: لقد قال لهما الشيطان ما معناه: "ما نهاكما الله أنتما عن هذا الشجرة، إلا في حالة كونكما من الملائكة أو كونكما من الخالدين، -وبما أنكما لستما من الملائكة أو من الخالدين، فيمكنكما أن تقربا هذه الشجرة-. ونقدم للقارئ مثالا من القرآن، لآية ورد فيها نفس التركيبة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٤٥]

ونسأله: ماذا يفهم من هذه الآية؟ سيفهم أن الله يحكي على لسان رسوله أنه لا يوجد صنفا محرما من الطعام في هذه الشريعة إلا أن يكون واحدا من هذه الأصناف الأربعة. إذن فشرط التحريم اندراج الطعام في هذه الأصناف، وإن لم يكن منها فليس بمحرم. وكذلك الآية السابقة تقول أن إبليس خدع آدم وزوجه وأوهمهما أنهما لا يدخلان في الأصناف المخاطبة بالنهي، لأنهما ليسا من الملائكة أو الخالدين.

ونلاحظ أن الله عزوجل عندما حكى نداءه آدم وزوجه قال: ﴿... وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ٢٢] **فلو كان المعنى الذي يقول به المفسرون صحيحا، لكان من باب أولى أن يعاتب الله عزوجل آدم وزوجه، ويقول لهما: "لم سمعتما للشيطان وشككتما في كلامي؟" فهل يمكن أن يُقبل أن إنسان عادي، يشك في كلام ربه، فما بالنا بإنسان مختار ومصطفى؟!**

[189] هذا القول مأخوذ عن جمعية التجديد، فلهم الفضل في رجوعي عن القول المشتهر عند المفسرين، وانتباهي إلى عدم مطابقته للآية.

لماذا أُسكن الجنة؟!

الناظر في القرآن يجد أن الله تعالى أخبر الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، أي أنه سيخلق من يعمر الأرض ويتصرف فيها بأمر الله. وإذا كان الإنسان من الأرض، وخُلق للأرض، فلماذا أدخل الله الإنسان الأول الجنة؟ لم تقدم لنا الروايات تفسيرا لهذه المسألة، وإنما اكتفت بالقول بأن الله تعالى خلق آدم من طين الأرض، ثم رفعه إلى السماء وخلقه خارج الجنة، ثم أدخله مباشرة بعد الخلق، ثم أخرجه مرة أخرى ليعود إلى الأرض! ولنا أن نسأل: ما الحكمة في رفعه ثم إنزاله، طالما هو من الأرض ولها؟!

والعجيب أن بعضهم قال أن الله أدخل الجنة وعاهده أنه لو أطاعه سيظل فيها! وهذا يعني أنه لم يُخلق للأرض! ولست أدري هل كانت الأرض ستظل خربة بلا إنسان يعمرها، أم أن الله كتب على آدم الخروج منها إجبارا، فلم يكن له بد من المعصية؟! وحتى الذين قالوا أن الجنة كانت جنة أرضية، لم يقدموا تفسيرا لهذا الإدخال، تفسير يستحق معه أن تُذكر هذه المسألة في الكتب السماوية!!

أما نحن فنقول أن هذه المرحلة كانت مرحلة انتقالية، فبعد أن نُفخ في تلك المجموعة البشرية من الروح، وبعد أن عُلم آدم الأسماء، وكان من المفترض أن يقوم بتعليم البشر الآخرين، بالإضافة إلى أنه هو والآخرين كانوا بحاجة إلى برنامج إعدادي، يؤهلهم للعيش تبعا للسمات الإنسانية، وليس تبعا للغرائز الحيوانية، -كانت ستقدمه الملائكة-، وكذلك من أجل عدم الاختلاط بالهمج، حتى لا يستسهلوا التصرف تبعا لغرائزهم الحيوانية، فتطغى عليهم. كما يمكن اعتبارها نوعا من المكافأة، لتلك الجماعة التي امتلكت قدرا من السمات الراقية، التي أهلتهم لأن يُنفخ فيهم من الروح.

ويقدم لنا الدكتور عماد محمد بابكر حسن تعليلا آخر، فيقول: "المعروف أن جميع البشر، في كل العصور، يشغلون معظم وقتهم في العمل الشاق، من أجل توفير المسكن والمأكل والمشرب لهم ولأسرهم، ولا يجدون وقتا كافيا للتفكر والتدبر في

عظمة الكون وخالقه! وتوفير هاتين الضرورتين من غير جهد لآدم في هذه المرحلة، فيه دعوة غير مباشرة لهم للبدء في استعمال العقل والتأمل في الطبيعة وقوانينها، من غير خوفٍ من جوعٍ أو عدو يتربصهم غير العدو الوحيد الذي حذرهم الله منه. هذه الحقيقة ما زالت عاملا أساسيا في نجاح وتقدم أمم على غيرها، إذ أن البلاد المتقدمة تهتم بتنمية عقول المبدعين من أبناءها وبناتها، وتوفر لهم دخلا عاليا يغنيهم عن البحث عن لقمة العيش والمسكن، حتى يتفرغوا للابتكار والبحث والابداع. وهكذا كان شأن آدم من أول يوم، فقد وفر الله له معظم احتياجاته الحيوانية ليترك له مجالا واسعا لإطلاق العنان لعقله.[190]" اهـ

وبنفس التعليل تقريبا قالت جمعية التجديد، إلا أنهم يقولون أن آدم وزوجه فقط، هما من كان في الجنة! وأنهما استُدرجا إلى الجنة وهناك أُجريت لهما عملية تعديل جيني، وأنه كان من المفترض أن يبقيا فيها آلاف السنين، حتى يهلك الهمج الموجود في الأرض، ثم ينزلا فيعمرا الأرض، وينجبا نسلا إنسانيا!

الشجرة .. والسوأة .. والخروج!

من أهم العوامل التي أدت إلى صبغ قصة آدم بصبغة أسطورية مسألة الشجرة، وكيف أن الأكل منها أدى إلى بدو السوأة، وارتباط الخروج من الجنة بالأكل منها؟! فما هذه الشجرة التي تبدي السوأة! وأُمر آدم ألا يأكل منها؟! وهل الأكل منها جرمٌ كبير، لدرجة أنه كاف لأنه يخرج آدم من الجنة؟! ولماذا لم يجعل الله الجرم شيئا ذا ثقل، حتى يكون الخروج من الجنة عقوبة مستحقة؟! أمّا أن أخرج البشرية من الجنة لأكل ثمرة فهذا كثير!

[190] عماد محمد بابكر حسن، آذان الأنعام، ص. 101.

والعجيب أن بعضهم قال أن الشجرة ما هي إلا سبب لإخراج آدم من الجنة، فلقد خلقه الله ليعمر الأرض! وكان سيُخرج لا محالة، فلا يجب أن نتوقف عند الشجرة كثيرا! وهذا القول يعني أن نهي الله آدم عن الأكل لم يكن ذا مغزى، وأن وصفه آدم بالمعصية وتلقيه الكلمات وتوبة الله عليه كانت كلها "تمثيلية" كبيرة! وهذا القول لا يُقبل بحال، ففعل الله ليس عبثاً، والنهي لم يكن لمجرد النهي، وإنما كان لغاية، والعقاب كان على قدر الجرم!

لذا فكما توقفنا مع إدخال آدم ومن معه الجنة، وبيّنا المنطقية فيها، نتوقف مع ارتباط خروجه من الجنة بالأكل من الشجرة، لنبين أنها ليست قصة أسطورية، وإنما قصة تحتوي على حكمة بالغة، لمن ألقى السمع وهو شهيد.

أول ما نبدأ به هو السؤال الحتمي في هذا السياق: ما هي الشجرة، التي نهى الله تعالى آدم وزوجه عن قربها؟ اختلفت إجابات هذا السؤال، فقالت التوراة أنها شجرة معرفة الخير والشر[191]! وكالعادة وجدنا في تراثنا الإسلامي من ينقل هذا القول ويقول به، وهناك من قال أنها شجرة التفاح، وأنه لمّا أكل منها آدم، غُص فتوقفت قطعة منها في حلقه، وبسببها ظهر عند الرجال ما يُعرف ب: تفاحة آدم!!

والخلاف حول هذه الشجرة قديم، ولقد ذكر الإمام الرازي طرفا من هذا الخلاف في تفسيره، ثم أقر بعدم التحديد، فقال: "اختلفوا في الشجرة ما هي، فروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها البر والسنبلة. ورُوي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشجرة فقال: هي الشجرة المباركة السنبلة. وروى السدي عن ابن عباس وابن مسعود أنها الكرم، وعن مجاهد وقتادة أنها التين. وقال الربيع بن أنس: كانت شجرة من أكل منها أحدث ولا

---

(191) نلاحظ أن التوراة تتكلم عن شجرة معرفة للخير والشر، ومن المفترض أنها مختلفة عن باقي الأشجار، وهذا يعني أنهما قبل ذلك كانوا غير واعين ولا عارفين: همج! والفارق بينها وبين القرآن أنها جعلت معرفة الخير والشر سببا للطرد من الجنة، بينما جعل القرآن المعرفة سببا لدخول الجنة!

ينبغي أن يكون في الجنة حدث. واعلم أنه ليس في الظاهر ما يدل على التعيين فلا حاجة أيضاً إلى بيانه.[192]" اهـ

وبمثل ما قال الإمام الفخر الرازي من عدم تحديد الشجرة، قال الإمام الطبري وغيره من المفسرين، الذين رأوا السلامة في التوقف[193]! ونخرج من هذا أن المفسرين لم يحددوا نوع الشجرة، إلا أنهم يرون أنها شجرة نباتية، وكان النهي عن أكل ثمارها!

ولكن الناظر أن الله تعالى لم ينه آدم وزوجه عن الأكل، وإنما نهاهما عن القرب، فنجد أن الله تعالى قال: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة البقرة ,٣٥]، ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٩]**وعندما قربا ذاقا وأكلا! فما هي هذه الشجرة؟!**

إذا نظرنا في معجم مقاييس اللغة، ألفينا ابن فارس يقول: "الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرُب بعضُهما من بعض، ولا يخلو معناهما من تداخُل الشيء بعضِه في بعض، ومن عُلُوٍّ في شيءٍ وارتفاع." اهـ

فالشجر عامة يدل على التداخل، وبهذا جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء ,٦٥]

[192] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثالث، ص.6.

[193] ومن أحدث وأعجب ما قرأته بهذا الشأن، ما قاله الدكتور حسن حامد عطية في كتابه: "حواء من الخلق إلى البعث"، من أن الشجرة المحرمة هي شجرة الخشخاش أو أحد أقاربها! أي أنهما نُهيا عن قرب الحشيش! ويمكن للقارئ متابعة ما قاله في الكتاب المذكور في الصفحات 26–28.

وإذا نظرنا في اللسان، وجدنا ابن منظور يقول: "(...) وكلُّ ما تداخل، فقد تشاجَرِ واشْتَجَرَ. ويقال: التَقَى فئتان فتشاجَرُوا برماحهم أَي تشابكوا. واشْتَجَرُوا بِرِماحِهِم وتشاجَرُوا بالرِّماح: تطاعنوا. وشجَرَ طَعَن بالرُّمح. وشَجَره بالرمح: طعنه. وفي حديث الشُّرَاة: فَشَجَرْناهم بالرماح: أَي طعنَّاهم بها حتى اشتبكتْ فيهم، وكذلك كل شيء يأْلَفُ بعضُه بعضاً، فقد اشْتَبك واشْتَجَر. وسُمي الشجَرُ شَجَرَاً لدخول بعض أَغصانه في بعض" اهـ

ونحن نستعمل "الشجرة" استعمالا أعم من ذلك الصنف المخصوص من النبات، ومن ذلك قولنا: شجرة العائلة. وهو استعمال سليم.

ولقد جاء في القرآن استعمال الشجرة مع غير النبات، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ ... ٦٠﴾ [سورة الإسراء, ٦٠] وهذه الشجرة –على الرأي الراجح– هي بنو إسرائيل، لأنهم هم من لعنوا في القرآن[194]، فهذا استعمال للشجرة في غير النبات، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢﴾ [سورة الواقعة, ٧١-٧٢]، فهنا الحديث عن شجرة النار، وهي نار وليست نبات!

وهذا يعيدنا إلى السؤال نفسه: ما هي الشجرة التي ليست نباتاً؟ وكيف لا تكون نباتا، والله قد ربطها بالأكل؟! نقول: يجب علينا أن نلاحظ السياق الذي وردت فيه الجملة، ولا نمر عليه مر الكرام، فالله تعالى لم يستثن الشجرة من جنس المأكول، وإنما جعله بعد الأمر بالأكل الرغد، وفي ذلك تقول جمعية التجديد: "لم يأت لا هنا ولا في القرآن كله صياغة: (كلا رغدا حيث شئتما إلا من هذه الشجرة) باستخدام أداة "إلا"، لتصبح الشجرة المنهية أكلا مستثنى من جنس المأكول الرغد المذكور قبله،

[194] الرأي الآخر يقول أنها شجرة الزقوم، وهذا من العجب! فشجرة الزقوم شجرة مجعولة لتعذيب الكافرين في الجحيم، فلماذا تُلعن؟ وأين لُعنت في القرآن أصلا؟! وهل يُلعن غير العاقل وغير المخير؟! وهل تُلعن على تأديتها دورها؟!

فهذا التركيب أولى لو كانت الشجرة أكلا. (وهذا على فرض أن الأكل الرغد هو أكل بطن أيضا!) بل العجيب أنه سبحانه لم يذكر أبدا أي شيء عن أشجار الجنة لتكون هذه مستثناة من تلكم الأشجار، وكأن الجنة خالية من الأشجار تماما! مع أنها مليئة بالأشجار، فعل ذلك سبحانه لئلا يقع المرء في الوهم الذي وقعت فيه التفاسير، فيقوم بإلحاق هذه الشجرة بتلك الأشجار ويجعلها من صنفها! فقط تأمل لماذا عند الحديث عن جنة آدم لم يأت ذكر أي شجرة عدا هذه، حتى حين خصفا من الورق، لم يقل: "من ورق شجر الجنة" بل فقط "من ورق الجنة"؟ فتأمل.[195]" اهـ

وبالإضافة إلى ما قاله مؤلفو جمعية التجديد، فإنا نقول: إن النهي لم يرتبط بالأكل فقط وإنما ارتبط بالسكنى كذلك، فلقد أمره الله تعالى بالسكنى وأباح له الأكل حيث شاء ونهاه عن قرب الشجرة، ونسأل القارئ: ما هو الثالوث الذي يحلم به أي إنسان؟! الإجابة التي لا يختلف حولها إنسانان هي: مسكن آمن ومأكل طيب وجنس!

وهذا ما وفره الله تعالى لآدم، فلقد أسكنه الجنة الآمنة، وأباح له الأكل كما يشاء، إلا أن هذا لا يعني أنه أُدخل هذا المكان ليلهو فيأكل ويشرب ويضاجع، -فلو أصبح الحال هكذا، لما اختلف كثيرا عن الحالة الهمجية!- وإنما أُدخل ليُعد ويؤهل للحياة الإنسانية، وأكبر مُذهب للعقل هو الجنس والتفكير فيه، لذا فكان على آدم ومن معه أن يتوقفوا عن ممارسة الجنس أثناء إقامتهم في الجنة.

ولا يعني هذا أن الله كان سيمنع الجيل الأول من ممارسة الجنس، وإنما هو نهي مؤقت، سيزيله بخروجهم من الجنة معلمين، عارفين بالأسس الجديدة للإنسانية، وأولها هو تكوين الأسرة وارتباط الرجل بأنثى معينة، والقضاء على الفوضى الجنسية، الشائعة والمنتشرة بين الحيوانات!

ونحن كلنا لا نزال مخاطبين بهذا الأمر، فلقد أباح الله لنا الأكل والشرب، إلا أنه لم يبح لنا ممارسة العملية الجنسية إلا في إطار الزواج، وخارج هذا الإطار تكون -على

---

[195] جمعية التجديد، وعصى آدم، الحقيقة دون قناع، ص. 86.

الرغم من قدرتنا عليها– ممارسة خاطئة، نُعاقب عليها. فكما نؤمر بالصبر وكتم الشهوة حتى نتزوج، خوطب آدم ومن معه بعدم قرب هذه الشجرة.

وكما قلنا سابقا فإن الشجر أصلٌ يدل على التداخل، وعندما يُمارس الجنس تحدث عملية شجر، –تذكر ما جاء في اللسان تحت هذا المعنى–، ولذلك نهاهما الله عن هذه العملية. ونذكر القارئ الكريم أن اللغة في ذلك الزمان لم تكون قد تشعبت وتطورت بالقدر الكافي، وإنما كانت لغة بسيطة قائمة على الصفات "الأسماء"، وأكبر سمة للعملية الجنسية هي: الشجْر، لذلك نهاهما الله عن قرب[196] الشجرة. لذا فمن غير المنطقي أن ينهاهم الله عن قرب الزنا، لأن الزواج لم يكن قد شُرِع بعد! كما أن صفة "الزنا" ليست هي الصفة المميزة للعملية الجنسية، وإنما الشجْر! ونسأل القارئ: كيف تنهى إنسانا بدائيا، ذا لغة عربية بدائية، –تقوم مفرداتها على الطبيعة، من أشجار وأنهار وحيوانات– عن العملية الجنسية؟! كل ما ستقوم به أنك ستنهاه عن التداخل مع المرأة، وهذا ما خوطب به آدم ومن معه فعلا، فلقد نهي عن أن يكون شجرة مع زوجه!

ولقد قال مؤلفو جمعية التجديد أن المراد من الشجرة هو شجرة الهمج، أي أن الله نهى آدم وحواء عن مضاجعة الهمج! وهو قول جيد، ولكن يشنع عليه هو محاولتهم القول أن آدم فقط هو من وقع في المعصية فضاجع همجية "ليليت[197]"، وأما حواء فلم تفعل، وكانت معصيتها مجرد النظر والاشتهاء فقط!

وهذا تخصيص لا دليل عليه، فلقد قال الله تعالى أنهما: "أكلا وذاقا"، فكيف نجعل هذا في حق آدم مضاجعة وفي حق حواء مجرد نظر؟! ثم كيف يشتهي آدم امرأة

---

[196] الناظر في القرآن يجد أن "النهي عن القرب" لا يعني الاقتراب المكاني وإلا لأُتبع بحرف الجر "من"، وإنما يعني التلبس بالشيء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ... ﴿٢٢٢﴾﴾ [سورة البقرة ,٢٢٢]، ﴿... وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ... ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأنعام ,١٥١]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الإسراء ,٣٢]، واقترن في مواطن كثيرة بالزنا!

[197] نطلب إلى القارئ الكريم أن يجري بحثا في الشبكة المعلوماتية حول هذه الشخصية، وستقابله مفاجأة بشأنها!

همجية عفنة قذرة، ويترك زوجه النظيفة؟! إذا حدث اشتهاء فأمامه حواء، فلماذا يذهب إلى الهمجية القذرة؟!

أما نحن فنقول أن النهي كان عن الممارسة الجنسية، وبالفعل وقع فيها آدم وزوجه، فواقع آدم زوجه قبل أن يأذن الله له بذلك! —وغالباً فعل الآخرون تباعا!—، وبهذا يمكن تقبل أن تكون هذه الشجرة شجرة خلد! فلو كان الحديث عن أي شجرة نباتية، لأصبح الكلام خرافة، فهل هناك شجرة، إذا أكل[198] الإنسان من ثمارها يُخلد؟!

وإذا كان الإنسان ساذجا لدرجة أنه يصدق هذا اللغو، فإن هذا الإنسان لا يحاسب على أفعاله! أما إذا كان الحديث عن الجنس، فيكون كلاما منطقيا أنه سيُخلد بذريته التي سينجبها، وسيستمر الملك فيهم، فكما أنت يا آدم قائد على هؤلاء، سيكون لأولادك القيادة من بعدك! وبهذا نفهم الوسوسة التي وسوسها الشيطان إلى آدم وزوجه، فلقد قال لهما: ﴿... وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الأعراف ,٢٠] **فلقد دخل إليهما من مدخل الفناء وقال: هل أنتما ملَكان حتى لا تمارسا الجنس أو من الخالدين حتى لا**

[198] إذا كان القارئ يستغرب استعمال "الأكل" مع الجنس، فنذكره أن الله تعالى لم يقل أنهما أكلا من ثمارها، وإنما قال: فأكلا منها! فهل يقبل أن يكونا أكلا من جذع الشجرة مثلا؟! والأكل لا يستعمل فقط بمعنى إدخال الطعام إلى الفم، فله استعمالات كثيرة، منها ما جاء في اللسان: "... وأَكَلَت النار الحَطَبَ، وآكَلْتُها أَي أَطْعَمْتُها، وكذلك كل شيءٍ أَطْعَمْتَه شيئاً. والأُكْل الطُّعْمة؛ يقال: جَعَلْتُه له أُكْلاً أَي طُعْمة. (...) ورجل ذو أُكْل أَي رَأْي وعقل وحَصَافَة. وثوب ذو أُكْل: قَوِيٌّ صَفِيق كَثِير الغَزْل. وقال أَعرابي: أُريد ثوباً له أُكْل أَي نفس وقوّة؛ وقرطاس ذو أُكْل. ويقال للعصا المحدّدة: آكلة اللحم تشبيهاً بالسكين. (...) والرجل إِذا اشتد غضبه يَأْتَكِل؛ يقال: فلان يَأْتَكِل من الغضب أَي يحترق ويَتَوَهَّج. (...) وفي الحديث: أُمِرْت بقرية تَأْكُل القُرَى؛ هي المدينة، أَي يَغْلِب أَهلُها وهم الأَنصار بالإِسلام على غيرها من القُرَى، ..."اهـ

فكما رأينا فالأكل أصلا يدل على الإبلاء والإهلاك أو كما يقول ابن فارس في المقاييس أنها تدل على التنقص! ومن ذلك الاستعمال قولنا: تآكل الأسنان. والعجيب أن القارئ يتقبل: أكل الأموال، وأكل الربا، وهما بمعنى الأخذ والضم والتملك، ولا يتقبل الأكل مع الممارسة الجنسية، مع أن نفس المعاني موجودة فيها! واستعمال الأكل إشارة إلى الشدة والقوة في الفعل معروف، فعندما يقول الإنسان لآخر: سآكلك، فإنه يفهم أنه سيهلكه ويقضي عليه، أما عندما يقولها الرجل للمرأة فهي تعني ...!

تحتجوا إلى أولاد؟ إنكم بشر فانون، وبالجنس تحصلون على الخلود بحصول ذرية لكما! والجنس[199] هو الشجرة التي لا يقربها الملائكة ولا يحتاجها الخالدون!

أما إذا قلنا أن الكلام عن أي شجرة فما معنى إدخال الملائكة والخالدين في المسألة، فهل الملائكة تأكل أصلا؟! وهل هي والخالدون يأكلون كل الأشجار إلا هذه الشجرة؟! وبهذا القول نفهم تحول الإشارة بالنسبة للشجرة، فلقد قال الله لهما: ﴿... وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [سورة الأعراف, ١٩]، وعند معاتبتهما قال: ﴿... أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٢﴾ [سورة الأعراف, ٢٢] فنلاحظ أولا التحول من اسم الإشارة للقريب "هذا" إلى اسم الإشارة للبعيد "تلك"، وذلك لأن آدم وزوجه أُريا هذه الشجرة قبل دخولهما الجنة، بأن عُرض لهما الممارسات الهمجية، لهذا كانت قريبة، وبعدما دخلا الجنة أصبحت بعيدة.

ولهذا أمكن كذلك أن يشار إليها بالمثنى! وهذه النقطة على الرغم من أنها من العجب بما يكفي إلا أن المفسرين لم يتوقفوا معها بالقدر الكافي! وتصور عزيزي القارئ أني أقول: هذان الرجل! فهل هذه الجملة مقبولة؟!

والعجيب أن بعضهم، لمّا لم يجد حلا للإشارة إلى المفرد بالمثنى، جعل "تلكما" اسم إشارة للمفرد المؤنث عند خطاب المثنى[200]!!! أما إذا قلنا أن الشجرة هي توصيف

[199] بهذا نفهم سر إفراد آدم بالوسوسة، فلقد وسوس لهما أولا، ثم وسوس لآدم منفردا، بحديثه عن شجرة الخلد والملك، وكذلك سر إفراد آدم بالمعصية: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا ... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [سورة طه, ١٢١] فلأن ممارسة الجنس ترجع بالدرجة الأولى إلى رغبة الذكر، كان الحديث عن معصية آدم، لأنه هو من دعا زوجه إلى الشجرة، فاستجابت له، وليس كما تقول التوراة، التي جعلت حواء هي من شجعته على الأكل!

[200] وهكذا قلبوا قاعدة الإشارة بدم بارد، وأصبح اسم الإشارة متعلق بالمخاطب وبالمشار إليه! وهكذا أصبح يمكن للإنسان أن يشير إلى أي شيء بأي اسم إشارة تبعا للمخاطَب به! فيمكنني أن أشير إلى الدراجة مثلا، وأقول: هؤلاء الدراجة! لأني أخاطب جمع! وأقول: هذان الدراجة، لأني أخاطب مثنى مذكر! و: هذا الدراجة، لأني أخاطب مفرد مذكر! وهذا من العبث، فاسم الإشارة متعلق بالمشار إليه فقط، بغض النظر عن المخاطَب!

للممارسة الجنسية، فيمكن الإشارة إليها بالمثنى، لأن العملية لا تقوم إلا باثنين، يكونان بأنفسهما شجرة واحدة!

والقول بأن الأكل من الشجرة هو بمعنى الممارسة الجنسية ليس قولا حديثا[201]، وإنما له أصول عربية قديمة، تقول بهذا القول، وفي هذا يقول الدكتور عماد محمد بابكر: "ولعله من المفيد أن نذكر هنا أن في تراث السومريين قصة عن الذكر والأنثي في الجنة، حينما حرم الرب عليهم الاقتراب من السلوك الحيواني الشهواني، الذي أشير إليه بلفظ بروسيا أو فروسيا، ولكن الشيطان أغواهم، فوضع الذكر "ثمرة الخطيئة" في رحم الأنثى، وثمرة الخطيئة سميت "ميرا متعايا"[202]، وهذه الألفاظ قديمة جدا ربما تشترك في أصول النطق مع "ثمرة المتعة"، وقد يكون هذا أصل قصة الثمرة، التي تحولت بمرور الزمن إلى مفهوم شجرة وثمرة حقيقية ثم أصبحت شجرة تفاح![203]" اهـ

فإذا فهمنا الشجرة بهذا المعنى اتضحت معالم باقي القصة، ولم تعد خرافية بحال، فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ... ﴿٢٢﴾﴾]سورة الأعراف ,٢٢[فلقد جرأهما الشيطان بغرور[204]، على الاقتراب من بعضهما واستكشاف جسديهما، فلما ذاقا الشجرة وأحسا بالشعور الحيواني، بدت لهما سوءاتهما، وأنهما لا يزالان ذالك الحيوان، فالنفخة من الروح لم تُزل ذلك الشعور

---

[201] قرأت هذا الرأي في صغري للمفكر العظيم، الدكتور مصطفى محمود، واستغربته وعددته من شطحات الدكتور، ثم اكتشفت فيما بعد أن الحق فيما قال! كما اكتشفت مرارا صواب كثير من الآراء التي قالها، والتي هوجم بسببها!

[202] هناك من يقول أنها تُعرب ب: ميلا مطعايا، والتي تساوي بالعربية: ميلا مطغايا (حيث غين الفصحى تُنطق عين بالسريانية) وبهذا يكون معناها: الميل الطاغي!

[203] عماد محمد بابكر حسن، آذان الأنعام، ص.115.

[204] جاء في لسان العرب: "... ودَلُّ المرأَةِ ودَلالُها: تَدَلُّلها على زوجها، وذلك أَن تُرِيه جَراءةً عليه في تَغَنُّج وتَشَكُّل، كأَنها تخالفه وليس بها خِلاف، وقد تَدَلَّلت عليه. (...) قال: ويقال هي تَدِلُّ عليه أَي تجترئ عليه، يقال: ما دَلَّك عَلَيَّ أَي ما جَرَّأَك عليَّ ..." اهـ

الحيواني الشهواني الموجود بداخلهما! وهذه السوءة هي التي لا تزال تظهر للإنسان الملتزم بعد ممارسة الجنس[205]، لأنه يشعر بها أنه حيوان!

وليس المراد من بدو السوأت انكشاف العورة، كما زعمت الروايات، بأن النور الذي كان يسترها انطفأ! لأن هذا يجعل: "لهما" بلا فائدة! فلقد قال الله تعالى: "بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا" ولو كانت المسألة مجرد انطفاء النور، لبدت لكل أحد، ولكان من المفترض أن يقال: "بدت سوءاتهما"!

هذا إذا قلنا أن السوءات هي العورة أصلا، فالملاحظ أن الله تعالى استعمل صيغة الجمع، وبغض النظر عن استعمال صيغة الجمع، فالسوءة ليست العورة، وانظر قول الله تعالى –والذي يحكي موقفا قريبا زمانا ومكانا من هذه الحادثة–: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة المائدة, ٣١] فهل بعث الله غرابا ليريه ابن آدم كيف يواري عورة أخيه؟! أم أن المراد أن الله بعثه ليريه كيف يواري "الحال السيئة" الذي أصبح عليها أخيه؟!

وبنفس المعنى جاءت الكلمة مع آدم وزوجه، فلقد أحسوا بمشاعر حيوانية شهوانية تعتريهم، ثم أتبعها شعور طاغٍ بالندم، اختلط بالخوف والقلق، وهكذا بدت لهما – وليس لأي أحد آخر– سوءاتهما، وعرفوا أن الحيوان لا يزال موجودا بداخلهم، وأنهم انحدروا إلى مثل هذه الدرجة! لهذا: ﴿... وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ... ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأعراف, ٢٢] أخذا يضعان عليهما من ورق الجنة، أي أنهما حاولا ستر أنفسهما بالورق! وهو فعل يقوم به أي إنسان يرتكب جرما، فهو يحاول أن يتوارى ويستتر بأي شكل!

[205] هناك من يشعر بنفس عقدة الذنب أو بالضيق حتى بعد ممارسته الجنس مع زوجه! ولقد سمعتها من أحدهم بأذني، وأنه يشعر بشعور سيء بعد الانتهاء من ممارسة الجنس، وأنه لو وجد "مأذون" في ذلك الوقت لطلق امرأته!

والمشكلة أن السادة المفسرين جعلوا "عليهما" بمعنى: "عليها"، أي أنهما أخذا يغطيان العورة! والآية لم تقل ذلك، وإنما قالت: "عليهما"، وهذا يعني أنهما حاولا تغطية وستر أنفسهما بورق الجنة[206]، وعلى الرغم من معرفتهما أن هذا لن يخفيهما من الله، إلا أن الإنسان المذنب يحاول أن يستتر بأي شيء!

هنا أمر الله آدم ومن معه أن يهبطوا من الجنة، -ولعلها كانت على سفح جبل أو في مكان مرتفع-، ويبدأوا حياتهم الجديدة: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾]سورة الأعراف, ٢٤-٢٥[

وعند نزولهم من الجنة خاطبهم بأهم أمر من أوامر الدين، وهو أن الأرض ليست دار القرار[207]، وإنما هي دار سيعيشون فيها إلى حين، ثم ينتقلون إلى دار أخرى، وأنهم سيعيشون فيها ويموتون، وسيُخرجون منها في اليوم الآخر[208]!

فإذا واصلنا قراءة آيات سورة الأعراف تأكد لنا هذا المعنى، فالله تعالى يقول بعد ذلك: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا

[206] فهم الأستاذ محمد منير الأدلبي ورق الجنة فهما عجيبا، فلقد قال في كتابه: أبناء آدم من الجن والشياطين، ص. 310: "يعتقد البعض أن معنى قوله عزوجل: "طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة" أي أخذ آدم وزوجه يستران عوراتهما بأوراق أشجار الجنة، وهذا يخالف النص، لأنه لو كان المقصود بورق الجنة هو أوراق الأشجار لكان لا بد من القول: طفقا يخصفان عليهما من ورق أشجار الجنة. ولكن النص الكريم جاء بصيغة: "ورق الجنة" ذاتها. فما هو المقصود بورق الجنة؟ نقرأ في مراجع اللغة العربية ما يلي: "والورق من القوم: أحدثهم أو الضعاف من الفتيان وحسن القوم وجمالهم" وجاء في المعجم الوسيط: "ورق القوم: أحداثهم، أو الضعاف من فتيانهم. وورق الشباب: نضرته وحداثته. والورق: حسن القوم وجمالهم". وهكذا فإن "ورق الجنة" هم شباب الجنة وأحداثها وأحسنهم خلقاً وجمالا في السلوك والإيمان، وهؤلاء هم الذين سعى آدم وزوجه إلى دعوتهم من جديد ليشاركوهم في تأسيس المجتمع الآدمي الجديد!" اهـ

ويُرد عليه بأن "ورق القوم" استعمال مخصوص، يُفهم من إضافته إلى القوم، لا أنه يُفهم من كل استعمال للورق.

[207] هناك من يستدل بهذه الآيات على أنهما كانا في الجنة في السماء، بدليل إخبارهم أنهم سيعيشون في الأرض!

[208] وهذه الآية رد على من يقول أن الإنسان ربما يتجه إلى الفضاء في المستقبل، ويقطن الكواكب الأخرى!

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ[209] ... ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ... يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ... ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... ﴿٣٣﴾] سورة الأعراف, ٢٧-٣٣[

فنلاحظ أن الله تعالى يخاطب بني آدم أن لا يفتنهم الشيطان، كما أخرج أبويهم من الجنة، فما هي الفتنة التي ينهانا الله أن نقع فيها فريسة للشيطان؟! هل يحثنا الشيطان على أكل ثمرة معينة، أم أنه لا يزال يفتننا بالنساء؟ وهي الفتنة التي حذر الرسول الكريم أمته منها! وهي الفتنة التي تجعل الإنسان يرتد حيوانا بفعلها! فينكشف بها العقل وتظهر سوءات الإنسان، والتي لا يزال الناس يخجلون منها!

ثم نجد أن الآية التالية تتحدث عن أن أقوام ينسبون الفاحشة إلى الله عزوجل، فتقول أن الله لم يأمر بالفحشاء وأنه أمر بالقسط ... ثم نجد أن الله تعالى يأمر بني آدم بالأكل والشرب وعدم الإسراف، وأنه لم يحرم الزينة ولا الطيبات، وإنما حرم الفواحش! فلماذا تكرر الحديث عن الفواحش في هذه الآيات؟ إلا إذا كان الغرض مخاطبة بني آدم وتحذيرهم من الوقوع في الخطأ، الذي وقع فيه أبوهم، وألا يدفعهم التدين الكاذب للابتعاد عنها، بحجة تطهير النفس منها، كما فعل النفر الثلاثة الذين جاءوا إلى الرسول، وسألوا عن عبادته فتقالّوها، فأراد بعضهم أن يصوم ولا يفطر والآخر أن لا يقرب النساء!

والله لا يريد هذا من الإنسان، وإنما يريد منه الاقتصاد في الفعل، فيأكل ويشرب ولا يُسرف، ويلبس ويتزين بدون كبر ولا إسراف ولا مخيلة، وكذلك يريد منه التعفف

(209) نلاحظ أن الله تعالى قال: "من حيث لا ترونهم"، ولم يقل: "ولا ترونهم"! فهذا يعني بالإضافة إلى أننا لا نراهم، إلى أنهم يروننا من مكان لا نراهم منه، أي أن لهم ما يمكن تسميته ب "بعد" أو عالم آخر يعيشون فيه ويرونا منه، ولا نراهم لخفاء هذا العالم عنا، إما لأنه أعلى أو أدنى من الموجات التي يمكن أن تبصرها عيوننا!!

بالأزواج، وينهاه عن فعل الفواحش! إذن تبعا لهذا التصور، نكون قد قدمنا تصورا منطقيا للشجرة –مستخرجا من الآيات، وفهمنا معنى انكشاف السوأت، وكيف أن هذا الجرم كفيل بإخراجه من الجنة، وليس مجرد أكل ثمرة.

أين الجنة؟

بعد أن بيّنا –استناداً إلى القرآن– أن آدم لم يكن بمفرده في الجنة، وأنها كانت جنة أرضية، نعرض سريعا لنقطة قد تجول بخاطر بعض القراء، وهي: إذا كانت هذه الجنة ليست سماوية، فأين كانت على الأرض؟! نقول: الله أعلم، أين كان موقعها على الأرض، فلم يذكر القرآن أين كانت، ولكنا نميل إلى كونها في اليمن، استناداً إلى دلائل تاريخية ولغوية عدة، تؤكد أن الهجرات البشرية الأولى كانت تحدث من شبه جزيرة العرب، وتحديدا من جنوب الجزيرة "اليمن" إلى جميع أنحاء العالم! كما أن الوثائق المدونة تظهر أن تاريخها يعود إلى أكثر من تسعة آلاف عام، بينما لن نجد في الحوضين البشريين القديمين للهند والصين مثلاً، ما يعود تاريخهما إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. هذا إذا غضضنا الطرف عن أن الأصول الوراثية للهنود الحمر، الذين وجدوا في قارة أميركا ترجع إلى اليمن كذلك[210]!

ومن الملاحظ أن التوراة عند حديثها عن جنة آدم، ذكرت هذا صراحة، فلقد قالت أنها كانت "جنة" في عدن، والتوراة وعامة التراث البشري يقول أن جنة آدم كانت أرضية، وأنه وزوجه كانا يعيشان عاريين[211]، –كما نجد في الديانة الجينية مثلا–،

---

[210] بعد اكتشاف الخريطة الجينية في بدايات القرن الحالي بدأت محاولات عدة لمعرفة الأصول الوراثية عند الهنود الحمر، أشارت إلى ان أصول البشرية تعود إلى منغوليا، إلا أنها عادت وقالت أنها ترجع إلى اليمن. وكانت كثير من الدراسات قد أشارت إلى أن أصل الإنسان إفريقي، إلا أن هذه الأبحاث ما قدمت إلا بعض عينات من قرود وليس بشرا! وأما البشر الذين وُجدوا في أفريقيا فلقد هاجروا إليها عن طريق باب المندب!

[211] حاول بعض العلماء تبرير كون آدم وحواء عاريين، بأن عورتيهما كانت مغطاة بالنور، فلما عصيا زال النور ورأيا السوأة! وليس ألأمر كذلك، وإنما لأنه لم يكن قد نُفخ فيهما من الروح بعد، لذا لم يكن البشر يتحرجون من أن يكونوا عراة، لأنهم لا يعقلون!

ونعرض للقارئ الكريم أهم ما ذكرته التوراة حول قصة آدم، ليقارن بينه وبين ما جاء في القرآن، ليتأكد أنه لا نقل من التوراة، وليظهر له الفارق الشاسع، بين ما قاله القرآن، وقدمته التوراة. والقصة بأكملها مذكورة في سفر التكوين، أول أسفار العهد القديم بأكمله: "2: 8 وغرس الرب الإله جنة في عدن[212] شرقا ووضع هناك آدم الذي جبله. (...) 2: 15 وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها. 2: 16 وأوصى الرب الإله آدم قائلا: من جميع شجر الجنة تأكل أكلا. 2: 17 وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت. 2: 18 وقال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده فاصنع له معينا نظيره. 2: 19 وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. 2: 20 فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره (...) 2: 25 وكانا كلاهما عريانين، آدم وامرأته وهما لا يخجلان (...) 3: 6 فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. 3: 7 فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. (...) 3: 21 وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جلد وألبسهما. 3: 22 وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل و يحيا إلى الأبد. 3: 23 فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها. 3: 24 فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" اهـ

---

(212) نجح اليهود في دس معتقداتهم عند بعض أهل السنة، ومن ذلك أننا وجدنا بعض الروايات المرفوعة والموقوفة، والتي تقول أن الله خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس جنة عدن بيده!

فكما رأينا فالحديث يدور حول جنة في عدن، وكما نعلم فعدن في اليمن، وهي تطل على البحر! والماء شرط رئيس لإنشاء الحياة، كما قال المولى سبحانه: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ... ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٣٠]

وبخلاف ما ذكرته التوراة، فإن هناك الكثير من المناطق الموجودة في اليمن، تحمل عددا من الأسماء[213]، تشير صراحة إلى أن اليمن كانت موطن آدم والإنسان الأول والجنة، والتي جرت فيه أحداث قصته.

بل إن الجنة المذكور خبر أصحابها في القرآن –وهي غير جنة آدم–: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة القلم ,١٧]، يقال أنها في اليمن، كما ذكر المفسرون في ذلك، مثل ما رواه الإمام الطبري عن سعيد بن جبير أنها أرض باليمن يقال لها ضَرْوان من صنعاء على ستة أميال. وبمثل ذلك قال الإمام الألوسي. وذكر الإمام القرطبي في تفسيره: "كما بلونا أهل الجنة" المعروف خبرها عندهم. وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء –ويقال بفرسخين– وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها، فلما مات صارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها، فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان، ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم. وقيل: هي جنة بضوران، وضوران على فرسخ من صنعاء." اهـ

وأرجو ألا ينظر القارئ إلى اليمن بشكلها الحالي، وإنما عليه أن يتذكر أن بلاد اليمن كانت تسمى فيما مضى: بلاد اليمن السعيد! لخصوبة أرضها ولاعتدال جوها، ولوفرة الزراعات فيها! ولقد أثبتت الأبحاث أن منطقة جنوب جزيرة العرب، كانت (من) أول

[213] من ذلك مذيخرة آدم، آدم قب الجوف، أدما، أدمات، أدام ... إلخ . وكذلك مناطق سُميت باسم الجنة، مثل جنة عدن تسمى جنة عدن وجنة آدم وجنة الدنيا ، وكذلك جنة طور الباحة، جنة: وادي عسيلان ، جنة سارة : جماعة صعدة، الجنتين : مأرب، إلخ.

المناطق، التي انقشع فيها الجليد، ودبت فيها الحياة. ففي كل هذا إشارة إلى أن اليمن موطن الإنسان الأول، ومحل جنة آدم!

خطوات الشيطان

بعد أن بيّنا الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، نتوقف مع آيات سورة الإسراء، والتي بيّن الله عزوجل لنا فيها مكائد الشيطان، والوسائل التي يدخل بها إلينا، وذلك في قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ [سورة الإسراء, ٦٢-٦٥]

فإبليس يقول أن الله لو أخره إلى يوم القيامة، ليسوقن ويقودن ذرية آدم حيث يشاء كالدواب، واضعاً لجامه في حنكها، فيبعدها عن طريق الله عزوجل. فيقول الله عزوجل له أن جزاءه وجزاء من تبعه جهنم، ثم يبين له أن مداخله قاصرة، وأنها لن تفلح مع عباد الله عزوجل، لأنه ليس له سلطان عليهم، لذا فافعل ما يحلو لك: فمن استطعت أن تستخفه فتدفعه إلى اتباعك بوسوستك فافعل، ولا تكتفي بهذا، وإنما اجمع واستعمل كل وسائلك، فاستعن عليهم بتخييلك لهم، وبسعيك ومشيك وضربك[214]

[214] المشتهر عند المفسرين أن المراد من الخيل هو الفرسان!! وأن الرجْل هم الرجالة، جمع راجل، وهو من يمشي على رجله! فهم يفهمون الآيات أن الله تعالى يقول للشيطان أعد لهم العدة لقتالهم مستعملا الراكبين والمشاة. أي أن الله، يصور فعل الشيطان كمن يشن حربا على الإنسان! ثم اختلفوا في من هم فرسان الشيطان ومن هم رجالته! فقالوا وقالوا!
وهكذا انحرفوا عن النص، ثم أخذوا يُخَرجون ليفسروا أقوالهم هم! فهل الخيل هي الفرسان أم الجياد؟!! ولنا أن نسأل: هل تركب الشياطين الخيول؟ وإذا قيل أن المراد منها صورة تمثيلية، فهل كان للبشر في ذلك الوقت جيوش تنقسم إلى خيالة ومشاة، حتى يشبه الله تعالى بهم؟ وإذا كان الله يعلم ذلك بعلمه السابق، فلماذا لم يتحدث عن طائرات أو عن أي أدوات أخرى أكثر تقدما؟!!! أما نحن فنفهم الكلمات كما هي، فالصوت هو الصوت باتفاق، ولكن الخيْل والرجْل ليست جموع وإنما هي مصادر،

الدؤوب، وشاركهم في الأموال والأولاد، فاجعل لك نصيبا منها، بأن تجعلهم فيها يتصرفون على مرادك، والذي هو غير مرادي، بأن يربوهم تربية معوجة، وينشأونهم على الديانات الباطلة، وادفعهم إلى انفاق أموالهم في المعاصي، بل وإلى قتل أولادهم، إذا أمكن! فكل هذا لن يجدي لأن سلطان الشيطان معدوم على عباد الرحمن! وبشكل عام فإن كيد الشيطان تجاه الإنسان ليس قويا، ويستطيع الإنسان أن يرده بسهولة:

﴿... إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [سورة النساء, ٧٦]

والشيطان نفسه سيتبرأ من كل من اتبعه في يوم الفصل، فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة إبراهيم, ٢٢]

فلم يكن له أي سلطان إلا مجرد الدعوة والوسوسة، فلم يجبر أحد على فعل شيء، ولم "يلبس" هو ولا أحد من أتباعه أي إنسان، وإنما الأمر كله تلبيس وخداع وتغرير! ومن ثم سيكفر بكل من أشركه في ماله أو عياله أو أفعاله، فجعله غاية أو قائدا، فاتبعه وأطاعه، على الرغم من تحذير الله تعالى له، والذي بيّن له ولكل الناس عداوة الشيطان له، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم

–كما أن الصوت مصدر–، فإذا نحن نظرنا في اللسان، ألفينا ابن منظور يقول: "خالَ الشيءَ يَخالُ خَيْلاً (لاحظ أنه أول مصدر ذكره ابن منظور! –عمرو–) وخِيلة وخَيْلة وخالاً وخِيَلاً وخَيَلاناً ومَخالة ومَخِيلة وخَيْلُولة: ظَنَّه، وفي المثل: من يَسْمَعْ يَخَلْ أَي يظن، (...) وخَيَّل فيه الخير وتَخَيَّله: ظَنَّه وتفرَّسه. وخَيَّل عليه: شَبَّه. وأَخالَ الشيءُ: اشتبه. يقال: هذا الأَمر لا يُخِيل على أَحد أَي لا يُشْكِل. وشيءٌ مُخِيل أَي مُشْكِل. وفلان يَمْضي على المُخَيَّل أَي على ما خَيَّلت أَي ما شبهت يعني على غَرَر من غير يقين، ..."اهـ

فال خيْل مصدر الفعل "خال"، وكذلك "ال رجْل" مصدر الفعل "رجَل"، وال رجْل أصلٌ يدل على السعي والشدة، ولهذا استُعملت مع العضو المعروف ومع الذكر البالغ، وبهذا نفهم أن الشيطان يجلب عليهم أي يصيح بهم (ونحن لا نزال نستعمل الكلمة، فنقول: هذا المكان يصدر منه جلبة، أي أصوات عالية) ويستحثهم على اتباعه بتخيلاته ووعوده وأمانيه وبسعيه الدؤوب لكي يعرضوا عن ذكر الله، فهذه هي وسائل الشيطان، أما أكثر من ذلك فليس له أي سلطان على البشر، كما بيّن الله في كتابه!

بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾] سورة فاطر, ٥-٦]

هل كان آدم نبيا؟!

بعد أن قدمنا تصورا مغايرا لقصة آدم عليه السلام، تصورا يخلو من الخرافة، نصل إلى نقطة حساسة، وهي مسألة نبوة آدم عليه السلام! فهل كان نبياً أم غير نبي؟! ونحن إذ نناقش هذه المسألة فإننا لا نعرض لها من باب الترف الفكري، وإنما نعرض لها لنبين أن التكليف الديني لا يكون إلا على البالغين! أمّا من لم يبلغوا بعد فلا يُخاطبون بتكليف ديني، وإنما يكونون في فترة "سماح"، يُعلّمون ما يحتاجون وما تقوم به حياتهم!

والبشر في تلك الفترة كانوا فيما يمكن تسميته ب "الطفولة الفكرية"، –وليس العقلية!–، فلقنتهم الملائكة ما يحتاجون وعلمتهم الدين، وكان ظهور الملائكة كمعلمين في هذه الفترة ضرورة حتمية لإفهام البشر وجود ما يُسمى بالغيب! فعندما كانت الملائكة تظهر أمامهم بأشكال غير بشرية ثم تختفي، كان هذا أكبر دليل على وجود ما لا يراه الإنسان (عالم الغيب). وكانت الأوامر والنواهي التي خوطبت بها البشرية في تلك الفترة بسيطة، من قبيل التعليم، كما يأمر الأباء أبناءهم بما يحتاجون، وينهونهم عن ما يضرهم. واستمرت البشرية فترة على "الفطرة" إلى أن وصلوا إلى درجة من النضج الفكري التبس مباشرة بالشرك، فأرسل الله عزوجل أول أنبياءه نوح عليه السلام، ليردهم إلى حظيرة الإيمان!

إذن فناقشنا حول هذه المسألة لإثبات أن التكليف الديني لا يُخاطب به إلا البالغون، أما الأطفال فيُعلمون (الدين وخلافه) ويُخاطبون بتكاليفٍ حياتية لازمة. وإذا كنا نتقبل

أخطاء الأطفال مهما فعلوا، ونتقبل أنهم لن يحاسبوا إذا ماتوا وهم في هذا العمر، أو سيُحاسبون حسابا يسيرا، فلماذا لا نتقبل الأمر نفسه مع هذا الجيل؟!

أول ما نبدأ به حديثنا عن نبوة آدم هو السؤال: هل نبوة آدم من المجمع عليه، أم اختُلف فيها؟!

العجيب أن بعض العلماء يدعي أن نبوة آدم من المجمع عليه بين المسلمين! وأن من ينكرها كافر مرتد! ولست أدري كيف تكون المسألة من المجمع عليه والخلاف حولها قديم، لذلك نجد مثلا أن الإمام الفخر الرازي –وغيره من المفسرين– يذكر في تفسيره أقوال الرافضين لنبوته، واستدلالاتهم المنطقية على رفض نبوته، ثم يبدأ في الرد عليهم بدون أن يتشنج أو يصفهم بالكفر[215]، أما مشائخنا العظام فليس لديهم سعة صدر لتقبل الخلاف، فإما أن نأخذ بما يقولون، وإما أن نصبح من الكافرين! ولقد اختُلف في نبوة مريم وغيرها من النساء، وعلى الرغم من ذلك لم نجد هذا التشنج!

وليس في المسألة دليلٌ قاطع على نبوته، فالآيات القرآنية لم تشر إلى نبوة أو رسالة أو دعوة قوم! وإنما استُنتج الحكم من بعض آيات، مثل آية الاصطفاء، ومثل أن الله تعالى كان يكلمه، وكما استدلوا ببعض أحاديث، قالت أن آدم كان نبيا! ولولا هذه الروايات لرجح القول الذي يقول بأنه ما كان نبيا! وسنمر على المسألة مر الكرام، لنبين أن القرآن ينفي نبوة آدم، ويقول أنه أبو الإنسان والمعلم الأول .. ليس أكثر!

---

[215] من الذين وجوهوا بهذه التهمة، "محمد أبو زيد"، –كاتب مصري–، كان له مجموعة من الكتب، أهمها كتاب في التفسير، بعنوان "الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن"، ولقد تمت مصادرة الكتاب بعد صدوره. ولقد قام بعضهم برفع قضية للتفريق بينه وبين زوجه بتهمة الردة! في سنة **1917**، لأنه قال "إن آدم ليس نبيا ولا رسول بنص قطعي وإنما نبوته ورسالته ظنيتان"؛ وحكمت المحكمة الابتدائية للأحوال الشخصية ب "دمنهور" بالتفريق بينه وبين وزوجته، إلا أن محكمة الاستئناف بالإسكندرية حكمت برفض الدعوى ونقض الحكم.

ومن الذين كتبوا في الموضوع باستفاضة في عصرنا الحديث الكاتب اللبناني عز الدين بليق، وذلك في كتابه الكبير: نبوة آدم ورسالته بين الظن واليقين، والذي صدر في عام **1990**، وأثيرت ضجة حوله، وكالعادة ذهب الكتاب طي النسيان، ورُمي كذلك بالردة! ولست أدري كيف يُكفر من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويرجح قول قاله بعض العلماء القدامى، ولم يزد عن ذلك!

وأول ما نبدأ به هو بعض ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره، ناقلا أقوال القاطعين بعدم نبوة آدم، بدون أن يكفرهم أو يفسقهم!، حيث قال: "واحتج من قطع بأنه عليه السلام ما كان نبياً في ذلك الوقت بوجوه: أحدها: أنه لو كان نبياً في ذلك الزمان، لكان قد صدرت المعصية عنه بعد النبوة. وذلك غير جائز، فوجب أن لا يكون نبياً في ذلك الزمان، أما الملازمة فلأن صدور الزلة عنه كان بعد هذه الواقعة بالاتفاق، وتلك الزلة من باب الكبائر على ما سيأتي شرحه، إن شاء الله تعالى، والإقدام على الكبيرة يوجب استحقاق الطرد والتحقير واللعن، وكل ذلك على الأنبياء غير جائز، فيجب أن يقال وقعت تلك الواقعة قبل النبوة. وثانيها: لو كان رسولاً في ذلك الوقت لكان إما أن يكون مبعوثاً إلى أحد أو لا يكون،...[216]" اهـ

ونسأل القارئ: لقد ذكر الله تعالى في كتابه عددا من الأنبياء، وذكر أنه أرسلهم، وحكى طرفا من قصصهم، يدل على أنهم أنبياء ورسل، أما آدم عليه السلام، فلم يذكر أنه أرسله، وقصته المذكورة في القرآن لا تزيد عن حكاية قصة الإنسان الأول، فكيف نجعله نبي؟ هل لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [سورة آل عمران, ٣٣]؟! فعلى هذا آل إبراهيم وآل عمران أنبياء، وهذا ما لا يقول به أحد! أم لأن الله تعالى كلّمه؟! فإذا كان الله تعالى قد كلمه فعلينا أن نتذكر قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [سورة الشورى, ٥١] وكلام الله لآدم، على الرغم من تكراره، ليس خطابا مباشرا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [سورة النساء, ١٦٤] فلقد ذكر الله تكليمه موسى، ولم يذكر تكليمه آدم، على الرغم من تكرره معه! أم لأن الله أوحى إليه؟ لم يقل الله تعالى أنه أوحى إليه، وحتى لو كان، فمن المعلوم أن الله أوحى إلى غير الأنبياء، فلقد أوحى إلى

[216] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، الملجد الثاني، ص. 163.164.

الحواريين: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي ... ﴿١١١﴾﴾ [سورة المائدة, ١١١] وأوحى إلى أم موسى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ... ﴿٧﴾﴾ [سورة القصص, ٧] وخاطبت الملائكة مريم: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة آل عمران, ٤٢] فهل هي نبية؟!

وإذا نحن رجعنا إلى قصة آدم، لا نجد ما يشير إلى أنه نبي، وإنما نجد أنه خوطب – هو ومن معه– بانتظار الهداية من الله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة البقرة, ٣٨]

فهل سيأتي النبي نبي آخر ليهديه؟ وحتى لا يجادل مجادل، نجد تفصيلا أكبر في سورة الأعراف، والتي يقول الله تعالى فيها: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأعراف, ٣٥] فلقد خوطب بنو آدم أن المتّقي والمصلح عند مجيء الرسل هو من المفلحين، فالمخاطبون بهذا الأمر هو بنو آدم وليس آدم! وسورة مريم تبين أن الأنبياء من ذرية آدم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ ... ﴿٥٨﴾﴾ [سورة مريم, ٥٨] وعندما تكلم الله عزوجل عن أشكال الوحي للأنبياء، قال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ... ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة النساء, ١٦٣] فكما أوحي إلى نوح والنبيين من بعده أوحي إلى النبي، فهل كان لآدم وحي مختلف عن كل الأنبياء، حتى لا يدخل في هذه التقسيمة؟ وإذا قلنا بوحي مختلف، فما الدليل على وجود هذا الوحي أصلا؟!

إن القرآن يؤكد أولية نبوة نوح بمؤكدات كثيرة، منها أن قومه استنكروا أن يكون الله أرسل بشرا –بغض النظر عن كونه نبياً أو رسولا–، ولو كان هناك رسلٌ قبله، لقال لهم:

هناك آدم وفلان، ولكنه لم يقل: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٢٤]

بينما عندما خاطب سيدنا هود قومه، ذكّرهم بقوم نوح، قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ٦٩]

وحاول المثبتون لنبوة آدم التملص بقولهم أن آدم كان نبيا ولم يكن رسولا، ولكن القرآن يبطل عليهم محاولتهم هذه أيضا، فلقد قالها القرآن صراحة، أن الإنسانية ظلت فترة بلا نبيين، ثم بدأ الإرسال بعد هذه الفترة عندما حصل الاختلاف، واحتاجوا إلى هداية، -وهذا يقطع باستحالة كون آدم نبيا- وذلك في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ... ﴿٢١٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٣] فمتى كان الناس أمة واحدة، ثم حصل بعد ذلك بعثة النبيين، إذا كانت البشرية قد بدأت بنبي، أُرسل إلى نفسه أو عياله؟! أما على قولنا فآدم كان معلّم معلّم، فهو المعلم الأول، الذي علم البشرية كلها، كما كانت الملائكة تعلم الناس، وبعد ذلك بدأ إرسال الرسل.

ولقد ذكر الإمام الفخر الرازي، كيف حاول المؤمنون بنبوة آدم التملص من دلالة الآية، فقال في تفسيره: "القول الثالث: -وهو اختيار أبي مسلم والقاضي- أن الناس كانوا أمة واحدة في التمسك بالشرائع العقلية، وهي الإعتراف بوجود الصانع وصفاته، والإشتغال بخدمته وشكر نعمته، والإجتناب عن القبائح العقلية، كالظلم والكذب والجهل، والعبث وأمثالها. واحتج القاضي على صحة قوله بأن لفظ النبيين يفيد العموم والإستغراق، وحرف الفاء يفيد التراخي، فقوله: "فَبَعَثَ الله النبيين" يفيد أن بعثه جميع الأنبياء كانت متأخرة عن كون الناس أمة واحدة، فتلك الوحدة المتقدمة على بعثة

جميع الشرائع لا بد وأن تكون وحدة في شرعه غير مستفادة من الأنبياء، فوجب أن تكون في شريعة مستفادة من العقل وذلك ما بيناه، (...)، (وليست الشرعة من العقل، وإنما من تعليم الملائكة –عمرو–) ثم سأل نفسه؛ فقال: أليس أول الناس آدم عليه السلام وأنه كان نبياً، فكيف يصح إثبات الناس مكلفين قبل بعثة الرسل؟! وأجاب بأنه يحتمل أنه عليه السلام مع أولاده كانوا مجتمعين على التمسك بالشرائع العقلية أولاً، ثم إن الله تعالى بعد ذلك بعثه إلى أولاده، ويحتمل أن بعد ذلك صار شرعه مندرساً، فالناس رجعوا إلى التمسك بالشرائع العقلية ...[217]" اهـ

وليست هذه الآية هي الدليل الوحيد على كون الأنبياء بعد نشأة المجتمعات، فالله تعالى يقول للنبي، مستخدماً أسلوب حصر وقصر، لا يقبل الاستثناء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [سورة يوسف, ١٠٩] أنه ما أرسل إلا رجال من أهل القرى، فهل كانت هناك قرى في زمن آدم عليه السلام حتى يرسل منهم؟!

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ... ٤﴾ [سورة إبراهيم, ٤] فأين قوم آدم الذي أُرسل بلسانهم؟!

ولعل القارئ يسأل: أنت تقول أن آدم كان معه بشر آخرون، فلماذا لا يكون نبياً إليهم؟! نقول: أولا: للآيات القرآنية الكثيرة، التي استثنته من النبوة، وأنه لا يوجد آية واحدة ذكرت إرساله أو بعثته. ثانيا: قصته المذكورة في القرآن تقول أنه كان معلَّماً وليس نبيا! ثالثا: آدم ومن معه كانوا الجيل الأول من الإنسان، وكانوا يحتاجون إلى من يعلمهم، وفي ذلك الوقت كانوا يرون الملائكة، والتي كانت تأتي في أشكال غير أشكالها الحقيقية، فتعلمهم ما يحتاجون، فلم يكن ممكنا صدور الكفر من هؤلاء! لأن الكفر لا يكون إلا مع الوهم! وهؤلاء لم يكن لديهم هذه القدرة بعد، كما أن الرسائل

[217] المرجع السابق، المجلد السادس، ص. 12–13.

تحتاج إلى قدر من النضوج العقلي، لم يكن متوفرا عند هؤلاء، فكان الأنسب لهم التعليم وليس الرسالة. فكما أن الأطفال لا يخاطبون بتكليف شرعي، وإنما يُوجهون بتعليم وتربية، حتى يصلوا إلى سن معين، يُكلفون معه، فكذلك كان حال هذه الجيل وأجيال بعده!

وهذا القول نجد له أصلا في تراثنا، فلقد روي عن قتادة رضي الله عنه –من كبار التابعين– أنه قال: ذُكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله نوحاً، وكان أول رسول أرسله الله إلى الأرض، وبُعث عند الاختلاف من الناس، ..." اهـ

والحقيقة التي يجب أن نقر بها، هو أن تشنج القائلين بنبوة آدم، ورميهم الرافضين بالكفر، راجعٌ بالدرجة الأولى إلى بعض الروايات، التي قالت أنه كان نبيا، مثل ما رواه أحمد عن أبي أمامة: "قلت: يا نبي الله، فأي الأنبياء كان أول؟ قال: آدم عليه السلام. قال: قلت يا نبي الله، أونبي كان آدم؟ قال: نعم، نبي مكلم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه" اهـ

كما يستندون إلى الحديث الطويل الشهير المروي عن أبي ذر، والذي يذكر عدد الأنبياء وتقسيماتهم، والذي رواه ابن مردويه في تفسيره، والذي فيه: "عن أبي ذر قال : يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير. قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم. (لاحظ أنه جعل آدم رسولاً!، وهذا يهدم قول القائلين أنه كان نبيا! – عمرو–) قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبيلا."

ثم يتكلم الحديث بعد ذلك عن تقسيمات الأنبياء، فيقول: "يا أبا ذر؛ أربعة سريانيون: آدم وشيث ونوح وخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بالقلم، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر..." اهـ

وهذه الأحاديث التي يستدلون بها كلها ضعيفة، ويكفيك أن بن الجوزي ذكر الحديث الأخير في كتابه الموضوعات!! ولقد ضعف علّامة المغرب، الدكتور محمد عمراني – صاحب التأصيل الجديد لعلم مصطلح الحديث– هذه الروايات، وحكم عليها بالنكارة!

وبغض النظر عن ضعف الأحاديث سندا، فإنها منكرة متناً لمخالفتها القرآن، كما أن بها من التناقضات ما يكفي لردها، فإذا أخذنا الحديث الأخير مثالاً، نجد أنه يحتوي من التناقضات ما يكفي لرده، ويعلق الأستاذ عز الدين بليق على هذه التناقضات، فيقول: "حديث أبي ذر الطويل، وهو يفرق بين الأنبياء والرسل، ويثبت نبوة ورسالة آدم، ويتحدث عن جنسية أربعة من الأنبياء بأنهم سريان، وأربعة من العرب ليس فيهم أبو العرب إسماعيل عليه السلام، فهل نسي محمد (ص) جده إسماعيل عليه السلام؟ وهل هناك شك في عروبته وهو أول من سكن مكة المكرمة، وأجرى الله على يديه ماء زمزم؟ ويقول الحديث بأن أول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، ومعنى ذلك أن محمدا (ص) قد نسي يوسف عليه السلام كما نسي إسماعيل؟! ومن المعلوم أن يوسف عليه السلام هو ابن يعقوب عليه السلام، ويعقوب هو إسرائيل، فيوسف أول أنبياء بني إسرائيل من بعد أبيه يعقوب وليس موسى، فهل يريدون إثبات نبوة ورسالة آدم على حساب نبوة ورسالة إسماعيل ويعقوب ويوسف عليهم السلام؟! وهل يُعقل أن يسمي محمد(ص) إدريس خنوخ أو أخنوج، بعد أن سمّاه الله سبحانه في كتابه إدريس: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦﴾ [سورة مريم ,٥٦]، أليست هذه التسمية من التوراة؟!(218)" اهـ

ثم إن هناك من الأحاديث ما يقول أن أول نبي هو نوح عليه السلام، مثل ما رواه الديلمي في مسنده، عن أنس رضي الله عنه، أن النبي (ص) قال: "أول نبي أُرسل نوح"

---

(218) عز الدين بليق، نبوة آدم ورسالته بين الظن واليقين، ص. 317.

كما توجد بعض الأحاديث الأخرى، التي يصححونها، وتقول بهذا القول، ولكنا نرد هذه الأحاديث، ولكنها ملزمة لهم، لتقبلهم إياها!

وفي الختام نقول: تفكر بنفسك في الآيات، وانظر، هل يقول القرآن بنبوة آدم أم أنه يتكلم عن الإنسان الأول؟! وسل نفسك: لماذا لم يذكر الله تعالى كلمة واحدة كانت كفيلة بإنهاء كل هذه المسألة، مثل: ولقد أرسلنا آدم، أو: وإن آدم من المرسلين! أما إذا كنت ممن يعدون أقوال العلماء من الدين، وتعدها حجة، فلن ينفعك أي دليل، وستتفنن في إيجاد تبريرات لتتقبل أن آدم كان نبيا[219]، مع أنه لا دليل صريح يقول بهذا!

[219] من تلك التبريرات ما قدمته جمعية التجديد في كتابها: "بين آدمين، آدم الإنسان وآدم الرسول". والتي قالت أنه كان هناك آدمان، آدم أبو الإنسان، وهو الذي عصى وأُخرج من الجنة، وآدم آخر من ذريته جاء بعد قرابة العشرة آلاف عام، وآدم هذا هو الرسول، وقالوا بهذه الفرضية ليبرأوا النبي من المعصية! وليتجاوزوا الاعتراض بأن قصة آدم في القرآن لا تقول أنه نبي! ولأن هذه الفرضية فرضية غريبة، حاولوا الدفاع عنها، بالقول بإقرار المفسرين بوجود شخصيات مشتركة الاسم في القرآن، فقالوا في الكتاب المذكور، ص.200–201: "فإنهم التفتوا إلى احتمال وجود (إسماعيلين) في القرآن، إسماعيل ورد ذكره 12 مرة في التنزيل، فإسماعيل الرسول ابن إبراهيم (ع) هو جد نبينا (ص)، وهناك (إسماعيل) نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقول بعضهم أن قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [سورة مريم, ٥٤] تعنيه، وهو إسماعيل ابن النبي حزقيل (حذق– إيل). (...) طبعا، لسنا في وارد مناقشة أن إسماعيل هذا هو ابن إبراهيم أو ابن حزقيل، إذ شاهدنا هو وجود تفكير نوعي يسمح بهذا الاتجاه لدى الرواة أو المفسرين أو حتى المرويات الشريفة وكتب الملل، أن يكون آدم في القرآن اثنين (لعله سبق قلم منهم –عمرو)، وامرأة نوح اثنتين، وإسماعيل في القرآن اثنين، وعمران اثنين، وهارون في القرآن اثنين، وفرعون فرعونين وأكثر، ومريم ابنة عمران اثنتين، ويوسف اثنين! فلماذا حين وصلت المسألة إلى آدم تعطلت أداة القسمة لديهم؟!" اهـ

ولأن هذه الفرضية لا تجد لها مستندا واضحا في القرآن يفصل بين الشخصيتين قدموا احتمالية أخرى، وهي أن آدم أُدخل الجنة مرة أخرى، وظل هناك طيلة هذه الفترة حتى أصبحت ذريته صالحة لتقبل الرسالة، فأُنزل مرة أخرى ولكن كنبي! وهذا القول متأثر كثيرا بمذهب "الرجعة" الشيعي الباطل، ولكن لأن منهم من يتقبله، ذُكر هذا القول احتمالا!

وكل هذه التبريرات والأقوال الغريبة لأنهم صححوا الأحاديث الضعيفة، المخالفة للقرآن والمتناقضة تاريخيا، والتي تقول أن آدم كان نبياً أو رسولا، مما اضطرهم لمخالفة منهجهم الدقيق في التعامل مع القرآن!!

إشكالية نكاح المحارم

من أكبر الإشكاليات التي يقابلها التصور التقليدي، القائل بأن الخلق بدأ بآدم وحواء فقط، إشكالية نكاح المحارم أو الأخوة! —هذا إذا غضضنا الطرف عن أن آدم كان ينكح بعضه (حواء كانت ضلعه!). فإذا كان الخلق قد بدأ برجل وامرأة فقط، فمن أين يتزوج أولادهم؟! حاولت الروايات تقديم حلٍ لهذه الإشكالية، فقالت أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، وكان ذكر البطن يتزوج أنثى البطن الأخرى. وكأن هذا كاف لرفع الإشكالية، فمهما فعلوا فهم لا يزالون أخوة! ويبدو أن هذا القول كان قولاً قديما، فإليه كان يستند المجوس في إباحتهم نكاح الأخوات، فالله قد أباحها وبدء بها خلق الناس، فلا حرج فيها إذن!

وفي التراث الشيعي بعض الروايات الواردة عن أهل البيت، والتي تنفي أن يكون أولاد آدم قد تزوجوا من أخواتهم، وقالت أن الله أنزل لهم حوريات من الجنة للزواج. وروي ذلك أيضا عن أبي مسلم الأصفهاني، من أهل السنة. من ذلك ما رُوي عن الإمام جعفر الصادق: "سأل رجل جعفر الصادق: كيف بدأ النسل من ذرية آدم؟ فإن عندنا أناساً يقولون: إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم أن يزوج بناته بنيه، وأن هذا الخلق كله أصلهم من الأخوة والأخوات؟ فقال الإمام جعفر الصادق: سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، يقول من يقول ذلك أن الله عزوجل جعل أصل صفوة خلقه وأحبائه وأنبيائه ورسله والمؤمنين والمسلمين والمسلمات من الحرام، ولم يكن له من القدرة ما يخلقهم من الحلال، وقد أخذ ميثاقهم على الطهر والحلال والطيب؟ قال زراره: ثم سُئل عليه السلام عن خلق حواء، وقيل له: إن أناسا عندنا يقولون: إن الله عزوجل خلق حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصى. قال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، يقول من يقول هذا، أن الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم زوجا من غير ضلعه، وجعل لأهل التشنيع سبيلا إلى الكلام، يقول إن آدم كان ينكح بعضه، إذا كانت من ضلعه، ما لهؤلاء، حكم الله بيننا وبينهم."اهـ

وعلى الرغم من أن الروايات الشيعية لم تقدم تصورا معقولا لبدء الخلق بعد ذلك، إلا أنه يكفي أنها انتبهت إلى هذه الإشكالية، وبيّنت –على لسان بعض أهل البيت– أنه لا أصل لها في دين الله، وإنما هي المختَلقات المدسوسات!

وأهل السنة يقولون أن هذا كان مباحاً ثم حرمه الله! واعتراض المجوس عليهم قوي، فإذا كان كل البشر قد أتوا منه، ولله الحمد هم أسوياء، فما الضرر الذي حدث بعد ذلك حتى يُحرم الله نكاح الأخوة؟!

ولقد واجهت جمعية التجديد نفس الإشكالية، لأنهم يقولون أن الخلق بدأ بآدم وزوجه فقط، فكان منهم أن تجاوزوها بقولهم أن الله عدّل بعض الهمجيات ونفخ فيهم الروح، من أجل أولاد آدم الذكور، وبذلك لم يُضطر هؤلاء إلى نكاح الأخوات! وبداهة، إذا كان لآدم بنات، فإن الله سيعدل لهم بعض الهمج الذكور، وينفخ فيهم من الروح، من أجل ألا يُنكحوا من إخوتهم الذكور! وهكذا تكون جمعية التجديد، قد وصلت إلى طريق مسدود، بتبنيها نظرية بدء الخلق باثنين فقط، فإذا كان الله قد عدّل في الجيل الأول من الأبناء ذكورا وإناثا ونفخ فيهم من الروح، فلماذا لم يفعل هذا مع أول جيل من الإنسان، بدلا من أن يكتفي بتعديل زوجين فقط (آدم وزوجه)؟ إذا كان الأمر لن يستقيم إلا بعدد يقضي على الإشكاليات، وينشأ الحياة الإنسانية كمجتمع صحيح سليم، فلماذا الاتجاه إلى البدء بفردين فقط؟

وتبعا لقولنا فلا إشكالية، لأنه كان مع آدم عليه السلام بشر آخرون، وكان الأولاد يتزوجون من أولاد الآخرين، بدون الحاجة إلى الزواج من الأخوات، وبهذا لا يكون هناك أي إشكال حول بدأ الخلق!

ما هو إبليس؟!

على الرغم من أن إبليس من أشهر الشخصيات في التاريخ الإنساني، إلا أن الناس لم يتفقوا على طبيعته، فمنهم من قال أنه كان ملَكاً ثم تشيطن، ومنهم من قال أنه كان من الجن[220]! والرأيان موجودان في التراث الإسلامي، ولكل رأيٍ أنصار، إلا أن الرأي المشتهر، هو أنه كان من الجن وكان ملتحقا بالملائكة.

وأصحاب الرأي القائل بأنه كان من الجن، يرون أن رأيهم هو القول القاطع في المسألة، وأن القول الآخر متهافت، وذلك لأن الله تعالى قال في آية من الآيات: ﴿... إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ... ۝﴾ [سورة الكهف, ٥٠]، ولا ينتبهون إلى الإشكاليات الكثيرة التي يسببها رأيهم هذا!

ولأن الخلاف حول المسألة قديم، نعرض ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره، بخصوص هذه المسألة، مطيلين النقل عنه، لأنه جمع في هذه المسألة فأوفى، حيث قال: "اختلفوا في أن إبليس هل كان من الملائكة؟ قال بعضُ المتكلمين –ولا سيما المعتزلة– إنه لم يكن منهم. وقال كثير من الفقهاء: إنه كان منهم. واحتج الأولون بوجوه: أحدها: أنه كان من الجن، فوجب أن لا يكون من الملائكة، وإنما قلنا إنه كان من الجن لقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿... إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ... ۝﴾ [سورة الكهف, ٥٠] واعلم أن من الناس من ظن أنه لما ثبت أنه كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة، لأن الجن جنس مخالف للملك، وهذا ضعيف؛ لأن الجن مأخوذ من الاجتنان؛ وهو الستر، ولهذا سمي الجنين جنيناً لاجتنانه، ومنه الجِنة لكونها ساترة، والجَنة لكونها مستترة بالأغصان، ومنه الجنون لاستتار العقل فيه. ولما ثبت

[220] من أغرب ما قرأت بهذا الشأن هو ما قاله الأستاذ محمد منير أدلبي –وتقول به الجماعة الأحمدية (القاديانية) عامة– ، في كتابه: أبناء آدم من الجن والشياطين، أن إبليس كان من البشر، وأنه كان من المعاندين لدعوة آدم عليه السلام! وهو يفرق بين إبليس والشيطان، فليس إبليس هو الشيطان الذي أخرج آدم من الجنة، وإن كان كلاهما من البشر! وعلى الرغم من أنه ذو طبيعة بدائية رافضة للتحضر، فإنه يشبه نفسه وطبيعته بالنار وطبيعة آدم بالطين! كما أنه يُكلم الله!

هذا والملائكة مستورون عن العيون، وجب إطلاق لفظ الجن عليهم بحسب اللغة، فثبت أن هذا القدر لا يفيد المقصود. فنقول: لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سورة سبإ ,٤٠-٤١] وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك. (...) وأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ... ۝١٥٨﴾ [سورة الصّافّات ,١٥٨] قلنا يحتمل أن بعض الكفار أثبت ذلك النسب في الجن، كما أثبته في الملائكة[221]، وأيضاً فقد بيّنا أن الملك يسمى جناً بحسب أصل اللغة، لكن لفظ الجن بحسب العرف اختص بغيرهم، كما أن لفظ الدابة وإن كان بحسب اللغة الأصلية يتناول كل ما يدب، لكنه بحسب العرف اختص ببعض ما يدب فتحمل هذه الآية على اللغة الأصلية، والآية التي ذكرناها على العرف الحادث. وثانيها: أن إبليس له ذرية والملائكة لا ذرية لهم، إنما قلنا إن إبليس له ذرية لقوله تعالى في صفته: ﴿... أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ... ۝٥٠﴾ [سورة الكهف ,٥٠] وهذا صريح في إثبات الذرية له، وإنما قلنا إن الملائكة لا ذرية لهم لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى، والملائكة لا أنثى فيهم، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ [سورة الزخرف ,١٩] أنكر على من حكم عليهم بالأنوثة فإذا انتفت الأنوثة انتفى التوالد لا محالة فانتفت الذرية. (...) واحتج القائلون بكونه من الملائكة بأمرين: الأول: أن الله تعالى استثناه من الملائكة، والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل أو لصح دخوله، وذلك يوجب كونه من الملائكة. لا يقال: الاستثناء المنقطع مشهور في كلام العرب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ... ۝٢٧﴾ [سورة الزخرف ,٢٦-٢٧]، وقال تعالى: "لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥

[221] هذا التبرير من الإمام الرازي قولٌ لا دليل عليه، فالمعروف –والمذكور في كتاب الله– أن بعض غير المسلمين نسبوا الملائكة إلى الله، فقالوا أنهم بنات الله، بينما لم –ولن– يوجد أي إنسان نسب الجن إلى الله!

إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾] سورة الواقعة ,٢٥-٢٦[وقال تعالى: ﴿... لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ ... ﴿٢٩﴾] سورة النساء ,٢٩[، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ... ﴿٩٢﴾] سورة النساء ,٩٢[، وأيضاً[222] فلأنه كان جنياً واحداً بين الألوف من الملائكة، فغلبوا عليه في قوله: "فسجدوا"، ثم استُثنى هو منهم استثناء واحد منهم. لأنا نقول: كل واحد من هذين الوجهين على خلاف الأصل، فذلك إنما يصار إليه عند الضرورة، والدلائل التي ذكرتموها في نفي كونه من الملائكة، ليس فيها إلا الاعتماد على العمومات، فلو جعلناه من الملائكة لزم تخصيص ما عولتم عليه من العمومات، ولو قلنا إنه ليس من الملائكة، لزمنا حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع، ومعلوم أن تخصيص العمومات أكثر في كتاب الله تعالى من حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع فكان قولنا أولى. وأيضاً فالاستثناء مشتق من الثني والصرف، ومعنى الصرف إنما يتحقق حيث لولا الصرف لدخل، والشيء لا يدخل في غير جنسه فيمتنع تحقق معنى الاستثناء فيه. وأما قوله: إنه جنيٌ واحد بين الملائكة، فنقول: إنما يجوز إجراء حكم الكثير على القليل، إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير ملتفت إليه، وأما إذا كان معظم الحديث لا يكون إلا عن ذلك الواحد، لم يجز إجراء حكم غيره عليه. الحجة الثانية: قالوا: لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ... ﴿٣٤﴾]سورة البقرة ,٣٤[متناولاً له، ولو لم يكن متناولاً له، لاستحال أن يكون تركه للسجود إباء واستكباراً ومعصية، ولما استحق الذم والعقاب، وحيث حصلت هذه الأمور علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله، ولا يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة. لا يقال: إنه وإن لم يكن من الملائكة، إلا أنه نشأ معهم وطالت مخالطته بهم والتصق بهم، فلا جرم يتناوله ذلك الخطاب، وأيضاً فلم لا يجوز أن يقال: إنه وإن لم يدخل في هذا الأمر، ولكن الله تعالى أمره بالسجود بلفظ آخر ما، حكاه في

---

[222] هم يواصلون الرد على ردود غيرهم عليهم، فالتقدير: "وأيضا لا يقال"، وهي معطوفة على: "لا يقال الاستثناء المنقطع ..." المذكورة بأعلى.

القرآن، بدليل قوله: ﴿... مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ... ﴿١٢﴾﴾] سورة الأعراف ,١٢[، لأنا نقول: أما الأول فجوابه، أن الخطابة لا توجب ما ذكرتموه، ولهذا قلنا في أصول الفقه: إن خطاب الذكور لا يتناول الإناث وبالعكس، مع شدة المخالطة بين الصنفين، وأيضاً فشدة المخالطة بين الملائكة وبين إبليس لمّا لم تمنع اقتصار اللعن على إبليس، فكيف تمنع اقتصار ذلك التكليف على الملائكة؟! وأما الثاني فجوابه، أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية، فلمّا ذكر قوله "أبى واستكبر" عقيب قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ... ﴿٣٤﴾﴾] سورة البقرة ,٣٤[، أشعر هذا التعقيب بأن هذا الإباء إنما حصل بسبب مخالفة هذا الأمر لا بسبب مخالفة أمر آخر، فهذا ما عندي في الجانبين والله أعلم بحقائق الأمور.[223]" اهـ

وكما رأينا، فالإمام الفخر الرازي يضعف قول من رفض أن يكون إبليس من الملائكة استناداً إلى قوله: "كان من الجن"، ويستند في ذلك إلى أدلة أخرى، وفي نهاية عرض القولين يقول: "فهذا ما عندي في الجانبين والله أعلم بحقائق الأمور"، وهذا يدل على قوة أدلة الرأي الآخر القائل بكونه من الملائكة! وتحيره بشأنها، وإن كان يجزم في مواطن أخرى في تفسيره بأنه ليس من الملائكة، وأنه قد ذكر من الأدلة ما يكفي لبطلان هذا القول! كما يعترض المعترضون على كونه من الملائكة بأنه رفض السجود استنادا إلى أنه مخلوق من نار، والملائكة –كما جاء في الحديث– مخلوقة من نور، وأن له ذرية، فكيف يكون منهم؟!

ونكتفي في الرد على هؤلاء، بما ذكره الإمام الطبري، والذي لم يجد في هذا القول، ولا في سابقه "كان من الجن" حجة لمن يرفض كونه من الملائكة، فيقول: "قال أبو جعفر: وهذه علل تنبئ عن ضعف معرفة أهلها. وذلك أنه غيرُ مستنكر أن يكون الله جل ثناؤه خَلق أصنافَ ملائكته من أصنافٍ من خلقه شَتَّى. فخلق بعضًا من نُور، وبعضًا من نار، وبعضًا مما شاء من غير ذلك. وليس في ترك الله جل ثناؤه الخبر عَما

[223] الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، المجلد الثاني، ص.195–197.

خَلق منه ملائكته، وإخبارِه عما خلق منه إبليس، ما يوجب أن يكون إبليس خارجًا عن معناهم. إذْ كان جائزًا أن يكون خلق صِنفًا من ملائكته من نار كان منهم إبليس، وأن يكون أفرد إبليس بأنْ خَلقه من نار السموم دون سائر ملائكته. وكذلك غيرُ مخرجه أن يكون كان من الملائكة بأنْ كان له نسل وذرية، لِمَا ركَّب فيه من الشهوة واللذة التي نُزعت من سائر الملائكة، لِمَا أراد الله به من المعصية. وأما خبرُ الله عن أنه "من الجن"، فغير مدفوعٍ أن يسمى ما اجتنّ من الأشياء عن الأبصار كلها جنًّا –كما قد ذكرنا قبل في شعر الأعشى– فيكون إبليسُ والملائكةُ منهم، لاجتنانهم عن أبصار بني آدم.[224]" اهـ

ونقول: حتى على فرض خلق الملائكة من نور، فلا يعني هذا أنها لم تُخلق من نار! ولا أنها ليست من الجان! ويدلل على هذا خلق الإنسان، فلقد قال الله تعالى أنه خلقه من ماء، ومن تراب، ومن طين، ومن صلصال! ولا تعارض، فكلها مراحل للخلق، وفي النهاية صار الإنسان كائنا من دم ولحم، ولا علاقة له بهذه المواد الأصلية!

فإذا قلنا أن الملائكة خُلقت من نور، فلا يعني هذا أنها لم تُخلق من نار، ولا يعني هذا في عين الوقت وجوب أن نتصور الملائكة كأنوار متحركة، فإذا كان الطين قد صار لحما ودما وعظما، فالله أعلم إلى ما صارت النار!

والعجيب أن الإمام الطبري –رحمه الله– جعل إبليس حالة استثنائية، غرس الله فيها الشهوة، التي نُزعت من الملائكة، لما أراد به من المعصية! وهذا يعني أن الله أعد إبليس ليعصي وأراد منه هذا! ولست أدري كيف نلوم إبليس بعد هذا على فعله!

الناظر في إجابة إبليس يجد أنها إجابة من ملئت الغيرة قلبه، فهم لم يقل أنه ليس منهم حتى لا يشمله الأمر، وإنما قال أنه خيرٌ منه، وأصبح موقفه مثل موقف العامل الذي يأمره مديره بأمر عسير على نفسه، فلا يسمع له، فإذا سأله عن السبب، قال أنه قريب من قلبه وذو منزلة. ولأن هذا لا يُعد مبررا لمخالفة الأمر، فيتعصب ويتوعد بأنه

[224] ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المجلد الأول، ص.508.

سيخرب المصنع ويؤذي العاملين فيه، تحت باب: عليّ وعلى أعدائي! ويتهم صاحب المصنع أنه هو السبب فيما صار إليه!

وهناك إشكالية كبرى، تواجه القائلين بأنه كان من الجن وليس من الملائكة، والعجيب أنهم لم ينتبهوا إليها، -لا هم ولا المخالفون!- وهي: كيف يوسوس إبليس ومن تبعه إلى البشر؟!

إن الملائكة تستطيع أن تصل إلى قلب الإنسان، فتوحي إليه، وتستطيع أن تبث إليه من الأفكار ما يُطلب منها: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ ... ۝٣٩﴾ [سورة طه, ٣٨-٣٩]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... ۝٧﴾ [سورة القصص, ٧]، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ... ۝٢٧﴾ [سورة المؤمنون, ٢٧] وغير ذلك مما ينفع الإنسان ويحتاجه في مواقفه المختلفة، وكثير من الأفكار التي تظهر فجأة في ذهن الإنسان، هي مما يُوحى إليه بها، وما جزء كبير من المخترعات والمكتشفات العلمية إلا مما يُوحى به إلى الإنسان، ويظن أنه من بنات أفكاره! ولكنه لا يُوحي به بداهة إلا لمن يضع قدمه على أول الطريق!

وهم يقولون أن الجن مخلوق مكلف مثلنا، مخاطب بالقرآن، منه المؤمن والكافر، فهل للجن القدرة على الوسوسة إلى الإنسان، والوصول إلى قلبه أو عقله؟! أم أنه لم يكن لديه هذه القدرة، وبعد أن رفض الأمر بالسجود أعطاه الله هذه القدرة، هو ومن يلتحق به؟!

وإذا كان لدى الجني الكافر أو العاصي القدرة على الوسوسة، فلماذا لا يوسوس للناس؟! وما الفارق إذن بين الجني الكافر والشيطان؟! أما إذا قلنا أنه كان ملكا، فإن هذا يُفسر كيف يستطيع الوسوسة إلى الإنسان، وبهذا يكون الإنسان بين وحي رباني ووسوسة شيطانية!وبهذا نستطيع أن نفهم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [سورة البقرة, ٣٤]

فلقد توقف المفسرون مع قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فقالوا: إن هذا يقتضي وجود كافرين آخرين، فأين ومتى كان هؤلاء الكافرون؟ ومن ثم جعلوا "كان" بمعنى "صار"! أما إذا قلنا أن كان هناك بعض الملائكة قد تمرد قبل ذلك، ورفض تنفيذ أمر من أوامر الله، وعندما رفض إبليس السجود، كان من (ضمن) الكافرين، نفهم الجملة كما هي، وليس كما نتوقع نحن! وبهذا نفهم قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾] سورة ص ,٨٥[فالله تعالى يقول لإبليس، بعد أن طرده من السماء، أنه سيملأ جهنم منه وممن تبعه منهم أجمعين، ولقد توقف المفسرون في "أجمعين" هذه، ماذا تؤكد؟! ثم قالوا أنها تشير إلى البشر فقط! ولست أدري لماذا استثنوا الملائكة منها؟! إنها تشير إلى البشر والملائكة، فمن تبع إبليس من البشر والملائكة، فسيكونون ملأ جهنم!

وحتى لا يقول القارئ، إنه من المحتمل أن يكون التأكيد عائداً على البشر فقط، نثني له بقوله تعالى: ﴿... وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾]سورة هود ,١١٩[، ﴿... وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾] سورة السجدة ,١٣[فالله تعالى قال أنه سيملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين! والآية دليل صريح على أن هناك مِن (الذين كانوا مِن) الملائكة، مَن سيدخل النار.

ولقد وجدنا عامة المفسرين يمرون مرور الكرام على هذا الجزء من الآية، ويجعلونه في الجن فقط! ولقد ذكر الإمام الطبري قولا عن أبي مالك، قال أن المراد من الجنة هو الملائكة! إلا أنه وجهه فقال: "وأما معنى قول أبي مالك هذا: أن إبليس كان من الملائكة، والجن ذريته، وأن الملائكة تسمى عنده الجن، لما قد بينت فيما مضى من كتابنا هذا." اهـ

فالكلمة التي قالها الله في مبتدأ البشرية لإبليس، ستقع وتكون يوم القيامة، وسيملأ جهنم من الجنة والناس!

والملاحظ أن الله تعالى لم يقل أنه سيملأ جهنم من الملائكة والناس، لأن الملك الذي يتمرد يتحول إلى شيطان! ولا يظل ملاكا، ولكنه في الحالتين من الجنة! لذلك ذكر الله أنه سيملأ جهنم من الجنة[225]! والذي يبدو –والله أعلم– أنه ليس للملائكة، الذين يتمردون ويتشيطنون، توبة، فإذا عصى الواحد وتمرد منهم، أصبح شيطانا إلى يوم الدين، ولا يعود ملاكا أبداً، لأن معصيته حاصلة عن بطر وكبر، مع وجود علم بالدين، يعلو على علوم البشر! ولأن جبلتهم فيما يبدو –والله أعلم– مقدمٌ فيها الطاعة على المعصية والتقوى على الفجور، بخلاف نفس الإنسان ذات الأصل الحيواني، والتي قُدم فيها الفجور على التقوى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [سورة الشمس, ٨]، كما أن الإنسان حيواني الأصل، والصراع دائر في الإنسان بين أثر الروح والحيوان!

وليس الملك المتشيطن فقط من لا يستطيع الإيمان، فالإنسان الكافر بطرا لا يؤمن هو الآخر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ [سورة البقرة, ٦] والقول بأن إبليس متمرد من الملائكة يحل الإشكالية الكبرى: ماذا يحدث لو لم يرفض إبليس السجود؟ هل كنا سنحيى بدون شياطين توسوس؟! تبعا لقولهم لم يكن ممكنا لإبليس ألا يتمرد، أما نحن فنقول: لو لم يتمرد إبليس، لتمرد غيره، وقد حدث هذا بالفعل ممن تبعه من الملائكة! والفارق أنه هو من رفض هذا الأمر، ثم تمرد بعده آخرون، فصار هو كبيرهم!

وسبب استبعاد المفسرين لهذه الاحتمالية، ولكل ما ترتب عليها، من مثل ما استنتجناه، يرجع إلى تلك التصورات التي أسقطوها على الملائكة، بدون أدلة بيّنات

[225] نُذكر القارئ أنه لا يوجد خلق اسمه "شياطين"، وإنما هناك خلق يتشيطن، فالإنسان قد يصير شيطانا –ولا يعني هذا أنه قد نبت له قرون وغطى الشعر الأسود جسده ونبت له ذيل، وامتلك رمحاً ثلاثي الرؤوس!– والملاك كذلك قد يتمرد فيصير شيطانا، ولا يعني هذا أن تتغير خلقته، وإنما يتغير دوره!

على ما يقولون، وإنما هي استنتاجات نازعة إلى تشبيهها بالبشر! لذا فسنناقش في النقطة القادمة مسألة تصور الملائكة عند المسلمين، والنقطة المحورية، والتي يتوقف عليها قبول ما قلناه أو رفضه، وهي مسألة حرية إرادة الملائكة، فهل الملائكة مخيرون أم مسيرون؟!

تصور الملائكة

الآفة في تعاملنا مع الملائكة أننا أطلقنا بعض الأحكام بشأنهم، بدون الاستناد إلى أدلة قطعية؟ وأننا قسناهم على البشر! فقلنا أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون، استناداً إلى بعض آيات مثل أن الملائكة، التي أتت إلى الخليل، لم تأكل من العجل، الذي قدّمه لهم، وأنّ الله تعالى شنع على من وصف الملائكة بالإناث! وأنا أسأل بدوري: هل الملائكة بشر، أو خلقٌ من عالمنا الطيني، حتى نسقط عليهم هذه الأوصاف؟!

إن الملائكة كائنات ذات طبيعة مختلفة تماما، وأنا أرى فعلا أنهم لا يأكلون ولا يشربون، ولكن لا يعني هذا أنهم لا يحتاجون إلى مصدر تغذية أو طاقة، فإذا كانوا محتاجين، فسيكون هذا المصدر بالتأكيد مختلفاً عما نحتاجه نحن معشر البشر أو الحيوانات، في الهيئة وفي طريقة الوصول! المشكلة الكبرى أننا تصورنا الملائكة بشرا من نور ولهم أجنحة –كما نرى في الرسومات!–، فمن أدرانا أن لهم أفواه أصلا، أو أنوف أو وجوه أو أذرع أو أرجل؟! فلا يعني أنهم يتكلمون، أنهم يتكلمون لا محالة بأفواه وألسنة؟!

ولا يعني أنهم يتشكلون بأشكالنا أنهم مثلنا! ويجب أن نعي هذه النقطة تماما: الملائكة خلق مختلف تماما، له أجنحة متناسبة مع خلقه، وليست كأجنحة الطيور، وهذا كل ما يمكننا معرفته عن خلقهم! ومن ثم فلا يجب أن نقع في شراك التقسيمة

المضحكة حول كونهم ذكورا وإناثا! أو ذكورا فقط بدون إناث، أو وجود شهوة جنسية فيهم!

إن هذه التقسيمة تعني انتمائهم للجنس الحيواني! والعجيب أنها لا تنطبق على كل المخلوقات حولنا، فالنبتة الواحدة قد تكون ذكرا وأنثى في عين الوقت! وعامة الحيوانات لا تمارس الجنس إلا في موسم للتزاوج، وليس اشتهاءً كما يفعل الإنسان والخنزير! والجمادات تنقسم إلى ذرات ذات طبيعة موجِبة وأخرى سالبة، ولا تصدق فيها التقسيمة الحيوانية، التي تصدق علينا! فلماذا لا ننظر إلى الملائكة باعتبارها قريبة من (ومختلفة عن) هذه التقسيمات؟! إن الذي يجب أن نأخذه في عين الانتباه هو قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الذاريات, ٤٩]

وكما رأينا فالزوجية لا تنحصر في ذكر وأنثى منفصلين، وإنما تظهر بأشكال عدة، والله أعلم بحال الملائكة! لذا فلا يوجد ما يمنع من وجود ذرية للملائكة، بطريقة مناسبة لطبيعتهم! ولن نقع فيما وقع فيه السابقون، فنقول: بالانقسام الذاتي مثلا، لأن هذا يعني أننا نقيس الملائكة على الكائنات البسيطة في عالمنا الطبيعي! ومسألة الشهوة هذه لمن له أنثى، أما من لا أنثى له، فدوافعه ورغباته لن تكون مثل من له شهوة!

وفي النهاية لا يعني قولنا أننا لا نقيس الملائكة على البشر وأننا لا نقدم لها تصورا طبيعيا أننا ننفي وجود الملائكة أو نجعلها تعبيرا عن أشياء أخرى! لا، فنحن نرى أن الملائكة كائنات عاقلة، تفوق إدراكاتنا وتصوراتنا، إلا أنها في نهاية المطاف مخلوقات عاقلة ذات إرادة حرة!

والمشكلة أن هناك من يفهم الملائكة بغير هذا الفهم، ويقول أنها إشارة إلى النواميس والقوانين الحاكمة للكون! وهذا القول قديم قال به بعض الفلاسفة والمفكرين، ووجدنا من يتبناه في عصرنا الحديث! وهناك من يفهم أن بعضها –وليس كلها– إشارة إلى هذه القوانين! ومن ذلك ما قاله الدكتور عماد محمد بابكر: "فإذا كان الخالق قد

خاطب كل الكون قبل أن يخضعه له، فإننا يمكن أن نقيس على ذلك أنه تعالى قد أمر جزءً من قوانين الكون أن تخضع لخليفته! من هنا نفترض أن أمر الخضوع لآدم كان موجها للقوانين النوعية، التي تحكم حركة الكون، لتدخل في إطار معرفة الإنسان وقدرته على دراستها وفهمها وتطويعها لمصلحته. هذه القوانين أشير إليها بلفظ "ملائكة"، لأنه في علم الله فإن كل الكون بجماداته وأحيائه تتحكم فيه "رسل" كيميائية وفيزيائية، هي التي تحدد خواص وقدرات كل موجود وتتحكم فيه، وهذه هي التي أُمرت بالخضوع لآدم، وليست ملائكة السماء العالية. هذه المعلومة ما كان يمكن أن تخطر على بال إنسان قبل زمننا هذا، الذي اكتشف الإنسان فيه الكثير من تلك القوانين التي تحكم حركة الوجود، ومن عجب سماها "ملائكة" أو "رسل" بناءً على واقعها ووظيفتها. فكل حركة الأحياء تتحكم فيها "مسنجر" مثل المسنجر RNA الذي يعمل بلا كلل في نسخ الصفات الوراثية من حمض إلى آخر، والتي تشكل كل خواص المخلوق؛ إنسانا كان أو حيوانا أو نباتا![226]"اهـ

ونحن نرفض هذا القول، ونقول أنها كائنات عاقلة، ذات إرادة حرة، وأن تصورها كإنسان من نور، ذي أجنحة، هو تصورٌ غير سليم، والله أعلم بهيئتها، وبإذن الله سنراها في اليوم الآخر!

ملائكة مخيرون

بعد أن تكلمنا عن تصور الملائكة، نصل إلى النقطة الفاصلة، وهي مسألة حرية الملائكة، وأنهم قادرون على المعصية، وأنهم غير مُسَيّرين! والمشتهر أن الملائكة خلق مجبولٌ على الطاعة، لا يستطيع المعصية! إلا أن هذا القول مختلف فيه منذ صدر الإسلام، فالخلاف حوله قديم، والمسألة معروضة وموجودة في كتب العقائد منذ

[226] عماد محمد بابكر حسن، آذان الأنعام، ص.81.

قديم الزمان! والعجيب أن الأدلة التي يستدلون بها على جبلة الملائكة على الطاعة، هي في الواقع أدلة على تخييرهم، ولقد تناولنا هذه المسألة بالتفصيل في كتابنا عقائد الإسلاميين، وذكرنا الأدلة القاطعة على تخيير الملائكة، ومما ذكرناه هناك:

"الدليل الأول: نبدأ بالدليل الذي يستدلون به، وهو قوله تعالى: ﴿... لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [سورة التحريم, ٦]، والتكليف عبارة عن أمر بالفعل وأمر بالكف عن الفعل (افعل، ولا تفعل). والله تعالى لا يخاطب بالتكليف إلا من يعقل معنى التكليف، فالجمادات والحيوانات التي لا تعقل غير مكلفة، وبالتالي لا عقاب عليها ولا حساب، وفي هذه الآية بيّن الله تعالى أن الملائكة مكلفون، لتوجيه خطاب التكليف إليهم بقوله تعالى (ما أمرهم) وقوله: (ما يؤمرون). (...) ولو كانوا مسيرين لما كان لهم فضل، ويكون مدلول الآية مطابق لمن يقول: "إن هذه الآلة رائعة جدا، تنفذ كل ما آمرها به، ولا تعصيني أبدا"! فليس هناك أي فضل للآلة، فالمرء هو الذي وضع لها البرنامج الذي تتحرك به، فلا يكون المدح لها، بل لمصممها وصانعها[227].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾ [سورة النساء, ١٧٢] "في هذه الآية من الدلالة على أفضلية الملائكة الشيء الكبير، (...)، (والآية دليل صريح على أن هناك من الملائكة من يستنكف ويستكبر[228]، وإذا حدث فسيحشرهم –أي عيسى والملائكة المقربين– إليه جميعا! لأنه لا حديث في الآيات إلا عنهم، فتكون دليلا على إمكانية صدور المعصية من الملائكة ... المقربين! فما بالنا بغيرهم؟!!)

[227] والملائكة لا تعصي الله، وهذا مدح، ولكن هل يعني هذا أنها غير قادرة على المعصية؟! لو لم تكن قادرة لما كان للمدح معنى! والحديث في الآية عن ملائكة النار، وحتى لو كان عاما، فلا دليل، لأن الملاك كما قلنا إذا عصى لا يظل ملاكا، وإنما يُطرد ويفقد دوره ووظيفته، ويصبح شيطانا، ومن ثم يقوم بدورٍ آخر!

[228] لاحظ أن المعصية الصادرة عن إبليس أنه أبى واستكبر!

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾] سورة الإسراء, ٦١[وكل الآيات التي تتحدث عن أمر الملائكة بالسجود لآدم. في هذه الآيات دلالة على التكليف من عدة أوجه: (...) الوجه الثاني: أن الأمر بالسجود لآدم كان اختبارًا للملائكة وامتحانًا لهم، بالإضافة إلى إبليس، حيث كان معهم في الاختبار، فنجح الملائكة بالاختبار ورسب إبليس، والابتلاء والاختبار لا يكون إلا لمكلف، لأن الله لا يبتلي ويختبر غير المكلفين، وهذا شيء متفقٌ عليه، وإلا ما الحكمة من الابتلاء والاختبار إذا كان المبتَلى غير مكلَف؟![229] (...)

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴿١٢﴾] سورة الأنفال, ١٢[والاستدلال بالآية على التكليف أن الله يوحي إلى الملائكة أنه معهم وهذه بشرى من الله تعالى إلى الملائكة والبشرى لا تكون لمجبور وإنما لمختار. (...)

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾] سورة التكوير, ١٩-٢١[فيصف الله تعالى أمينه جبريل عليه السلام بأنه مكين ومطاع، ثم بأنه أمين، وكيف نتصور أن يمدح الله أحداً بالأمانة، وهو مجبول على فعل الأمانة لا يستطيع أن يخون لأن الله جبله على هذا الفعل؟! (...)

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ... ﴿١٨﴾] سورة آل عمران, ١٨[. في ذكر الملائكة بالشهود على وحدانية الله تعالى مع أولي العلم من الرسل والنبيين والصديقين، ومن هو عالم بوحدانية الله

[229] لسنا مخاطبين بمعرفة نوعية الجزاء على الابتلاء والتكليف الذي يُجازى به الملائكة، فإذا كنا لا نعرف بالضبط حقيقة وكُنه الجزاء الذي سنُجازى به مقابل التكليف الذي كلفنه الله، قال تعالى: "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون"، فهل سنعلم ما أعد للملائكة؟

تعالى وعدله، دون غيرهم من المخلوقين غير المكلفين، لدلالةٌ على تكليفهم ومنزلتهم، حيث ذكروا بعد الله وقبل البشر.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ... ﴿١٣﴾﴾]سورة الرّعد ,١٣[(...) وذكر الله تعالى الفارق في سبب تسبيح الملائكة، وهو الخوف منه سبحانه، وهذا السبب (أي الخوف) غير مذكور في الرعد ومن في حكمه، مِن مَن لا إرادة – ظاهرة– له، أما الملائكة فذكر الله تعالى أنهم يخافونه، وهذا ينافي قول من يقول أن الملائكة مجرد آلة أو خلق للعبادة فقط، فإذا كان الله سبحانه وتعالى أراد الملائكة مخلوقات مجبولة على العبادة لما فرّق بين الرعد، ومَن في حكمه، وبين الملائكة في مسألة الخوف من الله تعالى.

الدليل التاسع: قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾] سورة الأنبياء ,٢٦-٢٩[. فالله في قوله: "وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ" يتوعد الملائكة بجهنم في حال قول أحدهم بما يستوجب العقاب، أي أن عليهم ثواب وعقاب والله لايستثني أحداً، وفي هذه الآية دلالة واضحة كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ثم إن الملائكة هم المخصصون بالذكر عند الشفاعة، وما عدا ذلك تذكر الشفاعة عامة.[230]" اهـ

وأعتقد أن فيما ذكرنا الكفاية والغناء على أن الملائكة خلقٌ مكلفٌ مختار، وليس مجبول على الطاعة، وإلا لعُدموا الفضل كله!

[230] عمرو الشاعر، عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام، ص. 336–338. منقول بتصرف كبير!

الخاتمة

بعد هذه الوقفات، ها نحن بحمد الله وعونه قد قدّمنا إجابة للسؤال الخالد، الذي يجول بذهن الإنسان بشأن كيفية نشأة الإنسان الأول، حيث بيّنا أن الأقوال المعروضة على الساحة بهذا الشأن، وخاصة الداروينية والتوراتية، أقوالٌ غير علمية ولا منطقية، وإنما هي اجتهادات من علماء فسروا التوراة تبعا لخلفيتهم العلمية، وشطحات من علماء يحاولون إثبات مادية الكون، وأنه قائمٌ على الصدفة! غير محتاج إلى رب يُسيّره ويدبر أمره!

كما بيّنا –في عين الوقت– أن كلا التصورين يحمل جانبا من الصحة والخطأ، فليس التصور التوراتي التمثالي كله خطأ، وليست النظرية الداروينية عين الخطأ، وإنما في كليها صواب وخطأ.

كما بيّنا أن القرآن لم يقل بما قالت به التوراة ولا بما قالت به الداروينية، وإنما قدّم طريقاً ثالثا، قدّم تصورا علميا منطقيا، لا يقابل أي اعتراضات منطقية أو عقلية! قدّم تصورا، يحدث أمثاله أمام أعيننا يوميا، مما لا يعطي أي إنسان فرصة للجدال، تصور ينطق بحتمية وجود الخالق، لأنه من المستحيل أن يتم الخلق بهذه الطريقة بدون خالق عليم! (وإن كان لا مستحيل عند الملاحدة، فكل شيء عندهم ممكن!)

ولأن التصور التوراتي مما رسخ عند المسلمين كتأويل لكتاب الله، قمنا بتتبع آيات كتاب الله، لنبين للقارئ الكريم اتساع البون بين ما تقوله التوراة وبين ما يقدمه القرآن، ليتأكد لدى القارئ اللبيب أنه من المستحيل أن يكون القرآن ناقلاً عن التوراة في هذه المسألة.

ولأن الحديث عن خلق الإنسان الأول، كان لزاماً أن نُعرج على قصة سيدنا آدم، لنربطها بأحداث خلق الإنسان الأول، ولنبيّن أن التناول المقدَّم لها كان تناولا أسطوريا،

فقمنا بتقديمها للقارئ من منظور جديد، يبين أن القصة لا تحتوي أي قدر من الخرافة، وإنما هي أحداثٌ منطقية لا عجب فيها ولا منها!

وسيعجب القارئ كيف لم ينتبه إلى الاختلافات الهائلة، بين ما قدّمه المفسرون والأثريون، كتأويل لهذه الآيات، وبين ما تقوله الآيات نفسها! ولكن لا عجب، فمن ترك تدبر القرآن فلا يلومن إلا نفسه!

ومن خلال هذه التناول بيّنا للقارئ الكريم المعنى الحقيقي لكونه إنسان، والفتنة التي فتنها إبليس لأبوينا آدم وزوجه، وكيف أنه لا يزال يسعى لفتنتا بمداخله، التي عرضها الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه الكريم، وكيف أن الإنسان باتباعه الشيطان فإنه يتنازل عن إنسانيته ويرتد على أعقابه .. حيوان بهيم .. همجي .. مهما ارتدى من الثياب وتحلى بعذب الخطاب!

فرحلة الإنسان منذ خلقه الله إلى قيام الساعة تتلخص في كلمتين: كنت حيواناً فجعلك الله إنسانا، فلا ترتد على عقبك!

ولا يزال الشيطان يسعى ليردنا على أعقابنا حيوانات، نتسافح كما يتسافحون، ونفسد في الأرض ونسفك الدماء! ولقد نجح الشيطان بدرجة كبيرة في إضلال جم غفير من البشر، وجعلهم من أتباعه، ووضع لجامه في أفواههم، فقادهم كما يحلو له، وبهذا استحوذ عليهم أتم الاستحواذ، وجعلهم يسيرون على مراده لا على مراد الله، وبهذا شاركهم في الأموال والأولاد .. ولا يزال.

فانظر أخي في الله، هل أنت ممن استحوذ عليهم الشيطان واحتنكهم، أم أنت من عباد الرحمن، الذين ليس له عليهم سلطان؟! هل أنت من الكثرة الضالة، الذين هم كالأنعام بل هم أضل، أم أنك من القلة المؤمنة؟! من أولئك الذين لم يرضوا أن يظلوا بشرا!، وإنما أراد الواحد منهم أن يرتقي فيكون .. إنسانا!

كان الفراغ من هذا الكتاب في ظهر يوم السبت، الرابع من رجب، في عام ثلاثين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة، الموافق السابع والعشرين من شهر يونيه، في عام تسع وألفين بعد ميلاد المسيح!

للتواصل مع الكاتب يرجى زيارة موقعه الشخصي:

www.amrallah.com

سرد لأهم المراجع

* أورخان محمد علي، مناقضة علم الفيزياء لفرضية التطور، الطبعة الأولى 2006، الناشر أورخان محمد علي.

* باول لوث، الإنسان مخلوق لا مصادفة، تعريب: عمر لطفي العالم، دار قتيبة، الطبعة الأولى، 1994.

* تشارلز داروين، أصل الأنواع: نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي، ترجمة مجدي محمود المليجي، تقديم: سمير حنا صادق! المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى 2004.

* ج س جورنجر، عبدالمجيد الزنداني، مصطفى أحمد. علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة إسلام آباد – باكستان في الفترة من 25–28 صفر سنة 1408هـ الموافق 18–21 أكتوبر سنة 1987م.

* حسن حامد عطية، حواء من الخلق إلى البعث في النصوص الدينية المقدسة، دار الخيّال، الطبعة الأولى 2002.

* حمد الرقعي، خلق الإنسان بين العلم والقرآن، الدار الجماهيرية بليبيا، الطبعة الأولى عماد محمد بابكر حسن، علاء الدين محمد بابكر حسن، آذان الأنعام، نسخة منقحة بعد مناقشة النظرية.

* شوقي أبو خليل، غريزة أم تقدير إلهي. دار الفكر، الطبعة الثانية 1978.

* عبد الحليم محمود، فلسفة ابن طفيل وقصة حي بن يقظان، دار غريب، تاريخ النشر 2000.

* عبد الرحمن محمد الرفاعي، آدم وعلوم الاستنساخ، الخلق والبعث بين المادة والطاقة والعدم، مدبولي الصغير، الطبعة الأولى 1998.

* عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون، بدون تاريخ إصدار!

* عبد الصبور شاهين، أبي آدم، قصة الخلق بين الأسطورة والحقيقة، دار أخبار اليوم، الطبعة الثانية.

* عدنان أوكتار، أطلس الخلق، المجلد الأول، الطبعة الأولى.

* عز الدين بليق، نبوة آدم ورسالته بين الظن واليقين، دار الفتح؛ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1990.

* عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، المكتبة القيمة، 1993.

* عمرو الشاعر، السوبرمان بين نيتشه والقرآن، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى 2009.

* عمرو الشاعر، عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى 2008.

* فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1421/2000هـ

* فريق من العلماء، خلق لا تطور: الإنسان ابن آدم وليس ابن قرد، عرّبه بتصرف إحسان حقي، دار النفائس. الطبعة الرابعة، إصدار 1988.

* قسم الدراسات والبحوث بجمعية التجديد، الخلق الأول، كما بدأكم تعودون، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية بالبحرين، الطبعة الأولى 2005.

* قسم الدراسات والبحوث بجمعية التجديد، وعصى آدم، الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد، الطبعة الأولى 2005.

* قسم الدراسات والبحوث بجمعية التجديد، بين آدمين: آدم الإنسان وآدم الرسول، جمعية التجديد، الطبعة الأولى 2007.

* كوستي بندلي، كيف نفهم اليوم قصة آدم وحواء، قراءة لصورة الإنسان في الفصول الثلاثة الأولى من سفر التكوين، منشورات النور، 1990.

* محمد بن جرير بن يزيد الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة 2000.

* محمد شحرور، الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، دار الأهالي، بدون تاريخ إصدار.

* محمد منير الأدلبي، أبناء آدم من الجن والشياطين، دار الأهالي، الطبعة الأولى، دمشق 1993.

* موريس بوكاي، أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية، ترجمة فوزي شعبان، المكتبة العلمية، الطبعة الأولى.

* هارون يحيى، هدم نظرية التطور في عشرين سؤالا، ترجمة مصطفى الستيتي، رقم الطبعة غير متوفر، إصدار 2003.

* هارون يحيى، خديعة التطور، الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الأيديولوجية. ترجمة سليمان بايبارا، مراجعة: أحمد ممتاز سلطان، اورخان محمد علي، رقم الطبعة غير متوفر، إصدار 2002.

* هشام كمال عبد الحميد، الهندسة الوراثية في القرآن، وأسرار الخلق والروح والبعث، مركز الحضارة العربية، الطبعة الأولى 2002.

* موقع الباحث العربي:

www.baheth.info

* برنامج الباحث في القرآن الكريم، الإصدار الثاني.

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران

* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام

* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟

* السوبرمان بين نيتشه والقرآن

* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون

* قراءة لسور الطعن

* السيدة عائشة والتاريخ المشوه

* قصص القرآن القرآني

* الجن .. الأرباب المختلَقة

* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً

* السلفية .. منهج إسلامي؟

* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة

* رواية خواطرٌ شواذ

* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية

* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست